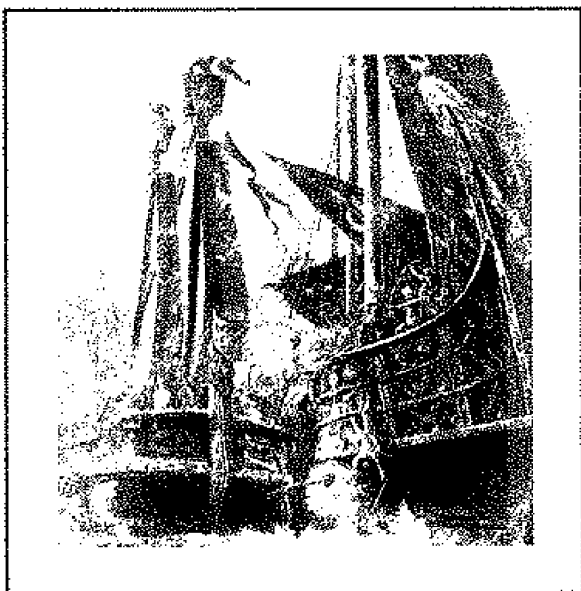


السيرة هاملتون. آ. ر. هب

حزرها
د. يوسف ايدش

الحدين الأيوني



دراسات
في
التاريخ
الإسلامي



صَلَاةُ الدِّينِ الْأَيْمُونِي
دراسات في التاريخ الإسلامي

السيرة هاملتون. آ. ر. جب

صَلَاحُ الدِّينِ الأَيُّوبِيِّ

دراسات في التاريخ الإسلامي

مَدْرَسَةُ

يُوسُفِ أَيْبُش



بِسْطَان

- * صلاح الدين الأيوبي (دراسات في التاريخ الإسلامي).
- * تأليف: السير هامبتون أ. ر. جب.
- * تحرير: د. يوسف إيش.
- * الطبعة الثانية، 1996.
- * جميع الحقوق محفوظة.
- * الناشر: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام.
- ص.ب، 5261-13 بيروت - لبنان
- هاتف: 351269.

قائمة المحتويات

صفحة	
٧	كلمة المحرّر
٩	ثبت الاختصارات
١١	مقدمة : الخلافة والدول العربيّة
٣٩	الفصل الأول تاريخ دمشق
٦٩	الفصل الثاني المصادر العربيّة عن حياة صلاح الدين
٩٧	الفصل الثالث « البرق الشامي » : تاريخ صلاح الدين للكاتب عماد الدين الاصفهاني
١١٧	الفصل الرابع ظهور صلاح الدين ١١٦٩ - ١١٨٩
١٥٤	الفصل الخامس جيوش صلاح الدين
١٧٩	الفصل السادس ماّ تي صلاح الدين
٢٠٢	الفصل السابع الأيوبيّون
٢٣٦	الفصل الثامن بيليوغرافيا

كلمة المحرر

الطبعة الثانية

قام السير هاملتون أ.ر. جب بكتابة المقالات والدراسات التي يضمها هذا المجلد على امتداد عقود عديدة من السنين، وقد ظهرت في منشورات على اختلاف أنواعها. ومما لا ريب فيه أن القارئ اليقظ لن تفوته ملاحظة الفوارق في الأسلوب والتشديد والعمق. لكنها تؤلف مع ذلك مجموعة كلية متماسكة، وهي جديرة بالجمع في مجلد واحد كمساهمة في دراسة التاريخ الإسلامي. ولم يبق المحرر في محاولة لتوحيد طرق كتابة الأسماء ونقل الألفاظ بحروفها، رغبة منه في الحفاظ على الأمانة للنصوص الأصلية.

ويطيب للمحرر أن يعرب عن شكره وامتنانه للمحررين والناشرين من أصحاب الدوريات والكتب المستلقة منها هذه الأبحاث، لتلطّفهم بالسماح في إعادة طبع ونشر المقالات والدراسات التي يضمها هذا المجلد والمشار إليها بعلامة النجمة *.

ويطيب لي كذلك أن أتقدّم بالشكر من المرحوم الدكتور عبد الوهاب الكيالي لما أبداه من اقتراحات قيمة والمراسلات التي قام بها مع محوري وناشري المقالات الواردة في الكتاب، كما أشكر الدكتور يوسف ق. خوري على مساعدته في استخراج النصوص واستنساخها وفي ترتيب الفهرس.

بيروت - لبنان/ ١٩٩٥

د. يوسف إيش

BEO	<i>Bulletin d'études Orientales.</i>
BGA	<i>Bibl. Geographum Arabicorum.</i>
BSOS	<i>Bulletin of the School of Oriental Studies.</i>
BSOAS	<i>Bulletin of the School of Oriental and African Studies.</i>
GJ	<i>Geographical Journal.</i>
IA	<i>International Affairs.</i>
IC	<i>Islamic Culture.</i>
JAOS	<i>Journal of the American Oriental Society.</i>
JCAS	<i>Journal of the Central Asian Society.</i>
JNES	<i>Journal of the Near Eastern Studies.</i>
JRAS	<i>Journal of the Royal Asiatic Society.</i>
JRCAS	<i>Journal of the Royal Central Asiatic Society.</i>
JTS	<i>Journal of Theological Studies.</i>
MEJ	<i>Middle East Journal.</i>
MSOS	<i>Mitteilungen des Seminars für Orientalische Sprachen.</i>
MW	<i>Muslim World.</i>
RAAD	<i>Revue de l'Académie Arabe de Damas.</i>
REI	<i>Revue des études islamiques.</i>
RMM	<i>Revue du monde musulman</i>
RSO	<i>Rivista degli Studi Orientali.</i>
SI	<i>Studia Islamica.</i>
WI	<i>Welt des Islams.</i>
WZKM	<i>Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes.</i>
ZDMG	<i>Zeitschrift der Deutschen morgenländischen Gesellschaft.</i>

الفصل الاول

* الخلافة والدول العربية *

كانت قبائل البدو العربية التي انتظمت في جيوش الإسلام قد اجتاحت ، في ظلّ حكم الخلفاء الراشدين أو الذين « خلفوا » النبي محمد بالمدينة ، بلاد الشام والعراق وغربي فارس ومصر بسرعة فائقة ، فتوطدت أقدامها في مدن للحاميات أو الأجناد داخل الأقاليم المفتوحة . ثم أدّت الخلافات بين رجال

• - الفصل الثالث من « تاريخ الحرب الصليبية » ، الجزء الأول ، تحرير لشم. ، ستون ، مطبعة جامعة إنسلفانيا ، فيلادلفيا ١٩٥٨ ، وتعود حقوق الطبع إلى أوصياء جامعة ديسكولن ، ص ٨١-٨٩

ملاحظة : بالنسبة لتاريخ العرب العام انظر هذين المصدرين :

Sir William Muir, **The Caliphate, its Rise, Decline, and Fall** (Edinburgh, 1915 ; reprinted 1924)

P. K. Hitti, **History of the Arabs** (5th ed., New York, 1951)

فيما يتعلق بمصر الفاطميين ، راجع ما يلي :

G. Wiet. *L'Egypte arabe, de la conquête arabe à la conquête Ottomane* (Paris, 1937 ; Vol IV (مصر العربية من الفتح العربي إلى الغزو العثماني) of *Histoire de la nation égyptienne*, ed. G. Hanotaux)

❦

القبائل وحكامهم إلى مقتل الخليفة الثالث عثمان في سنة ٦٥٦ م ، وإلى فتنة أهلية انتهت بتشكيل خلافة جديدة في دمشق (٦٦١ م) تقوم على الوراثة في بيت آل أمية المكي وتعتمد في سلطانها إلى حد كبير على رجال القبائل العربية في بلاد الشام . وتابعت الامبراطورية العربية توسعها في ظل الخلفاء الأمويين إلى شرقي فارس وتركستان وشمال غربي افريقيا وإسبانيا ، على الرغم من انتفاضات العصيان المتكررة بين رجال القبائل في العراق ومن السخط المتزايد بين قطاعات عديدة من عامة السكان . وكان عبء الدفاع عن مثل هذه الامبراطورية الشاسعة قد أنهك في نهاية الأمر قوى العرب الشاميين ، فتمزقت

وانظر أسماء المصادر الملائمة التي أدرجها المؤلف في القائمة الجيولوجرافية الملحقه بالفصل الرابع من كتابه .

إن « موسوعة الإسلام » Encyclopedia of Islam (التي صدر منها أربعة مجلدات و ملحق ، ليدن - لندن ١٩٠٨ - ١٩٣٨ ، وهي الآن قيد التنقيح) تحوي مقالات مفيدة عن السلالات والحكام والطوائف الدينية . وفيما يتعلق بسورية خلال القرن العاشر ، انظر

M. Canard, Histoire de la dynastie des Hamdanides de Jezira et de la Syrie, Vol I (Algiers, 1951).

أما المصادر الرئيسية عن القرن الحادي عشر فهي التالية :

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق (تحرير H.F. Amedroz ، طبعة ليدن ١٩٠٨)
كمال الدين ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ، المجلد الأول ، (حرره سامي الدهان دمشق ١٩٥١)

عيسى الانطاكي - تكملة تاريخ اوطنيوخوس (حرره وترجمه المستشرقان إ. كراتشوفسكي وأ.أ. فاسيليف ، ونشراه في

Patrologia Orientalis, Vols. XVIII & XXIII. Paris, 1924, 1932.)

والمعلومات العائدة للمصادر الأخيرة ، إلى جانب المواد الاغريقية والأرمنية المعاصرة والمتصلة بشمال سورية، يلخصها E. Honig mann في دراسته عن الحدود الشرقية للامبراطورية البيزنطية :

Die Ostgrenze des byzantinischen Reiches (Vol. III of A.A. Vasiliev, Byzance et les Arabes, Brussels, 1935).

بالإضافة إلى ذلك وحدة هؤلاء على غرار ما حدث لوحدة المستوطنات العربية في كل إقليم يمتد من إسبانيا إلى خراسان ، وذلك بسبب النزاعات العنيفة التي نشبت بين الأحزاب والفئات المتنافسة والمنقسمة إلى مضربة وبنائية ، أو إلى عرب « شماليين » وعرب « جنوبيين » . واستسلمت الخلافة الأموية في ٧٥٠ إلى ثورة عامة شنها الجناح اليمني بموازرة عناصر أخرى ساخطة ، تضم العرب والموالي ، فحلّت محلّها سلالة ثالثة من الخلفاء المتحدّرين من العبّاس ، عم النبي ، وشيّد العبّاسيون لأنفسهم عاصمة جديدة في بغداد .

استندت قوة الخلافة العبّاسية من الناحية السياسية إلى سكان العراق من عرب و « متأسلمين » (مع استثناء هام سوف ترد الإشارة لم إليه فيما بعد) وإلى المعمرين العرب والاستقرائية الايرانية في خراسان . واعتمدت من الناحية العسكرية على جيش دائم تمّ تجنيده من خراسان وكان يضمّ العناصر المختلطة إنما طغى عليها العنصر العربي . فتمركز هذا الجيش في العراق وكان قادراً على تلقّي التعزيزات من موطنه الأصلي فيما لو دعت الحاجة . أما عناصر المعارضة التي كانت موجودة في سورية ومصر فقد أضعفها استمرار النزاع المضرّي - اليمني وجرى قمعها في الشمال الغربي من إفريقيا بتوطيّن حامية خراسانية في القيروان . ثم تحوّل الفاتحون العرب في مدن الحاميات السابقة بالعراق مع نمو المدينة الحضرية وتطور التجارة إلى سكان ما ن وتوقّفوا عن تشكيل وحدات عسكرية ذات فعالية . أما عرب الشام وأعالي ما بين النهرين فقد تابعوا السير تحت أمرة العبّاسيين على وتبرّتهم الراسخة في شن الحروب الحدودية ضد الروم في الأناضول . ومن جهة ثانية ، فقد أخذ رجال القبائل في أواسط الجزيرة العربية وشمالها وفي البادية الشامية ، حين لم تعد تصدّهم الجيوش الامبراطورية المنتمية إلى نسبهم ، أو حين عجزوا عن إيجاد متنفس لروحهم العسكرية بالانخراط في القوات المأجورة للامبراطورية : في الارتداد

الى تمردهم السابق ضد السلطات المدنية في العراق وإلى حرفتهم التقليدية في الغزو .

وتفجّر النزاع الكامن بين العراق وخراسان ، من جهة ، وبين سكان العراق الحضريين والبدو (إن لفظة « بدوي » العربية تعني ساكن الصحراء) ، من جهة ثانية ، على الصعيد العملي بمناسبة نشوب فتنة أهلية أخرى بين عامي ٨١٢ - ٨١٣ ونتيجة للمحاولة غير الحكيمة من جانب هارون الرشيد لإعطاء ابنه المأمون مركزاً مستقلاً في خراسان ، خارج سيطرة اخيه الأكبر ، الخليفة الأمين . وكان انتصار المأمون هو بفضل جيش خراساني جديد ، أشد وضوحاً في تركيبه الفارسي وقيادته ، فاستولى بواسطته من جديد على العراق وما بين النهرين والشام ومصر ، واستعاد شيئاً من شبه السيطرة على رجال القبائل . أما الثمن الذي دفعه لقاء ذلك فكان التخلّي الفعلي عن حكم الخلافة المباشر على فارس والأقاليم الشرقية . وعُهد بحكم خراسان إلى القائد الأعلى للجيش ، طاهر ، فأصبح هذا الأمر مع منصب القيادة العسكرية العليا في بغداد متوارثاً في أسرته .

ولكي يعادلو قوة الطاهريين جزئياً ، عمد الخلفاء الآن إلى تشكيل حرس خاص من العبيد الأتراك الذين وقعوا في الأسر خلال القتال الحدودي الناشب في السهوب ، وسرعان ما غلب عنصرهم . فأقيم معسكر جديد لهذه القوات في سامراء عام ٨٣٥ على مسافة ستين ميلاً شمالي بغداد وحلت سامراء مكان بغداد مقراً للإدارة طيلة ما يقارب ستين عاماً . ثم أخذ الخليفة ، في عزله بين حراسه الأتراك ، يخضع لسيطرتهم على نحو متزايد ، حتى أنه قُضي على ما لا يقل عن أربعة من الخلفاء بين عامي ٨٦١ - ٨٧٠ إما بواسطة الاغتيال أو في نزاع مسلح مع الأتراك . ولم تستطع مكانة العباسيين وسلطتهم ، وهي التي كانت قد زعزعتها الحرب الأهلية في سنة ٨١٢ وهزّتها مقتل الأمين على يد الخراسانيين ، أن تصمد في وجه هذه الكوارث إلا بشقّ النفس .

فقامت الأمثلة القاتلة بأن حيازة السلطة تجتذب الأقوياء والمحتكين وهي من نصيبهم ، في إطلاق العنان داخل كل صقع من أصقاع امبراطوريتهم السابقة للأطماع التي وجدت تأييداً بين ضحايا سوء الحكم والظلم المالي وهمسا ناجمان عن الفوضى السائدة في مركز الخلافة . وأطاحت بالطاهرين ثورات محلية في بلاد فارس ، بينما كان المستفيدون في الولايات العربية هم الولاة الأتراك وقبائل البدو .

وجاء التنافس بين الأتراك والبدو في الصراع الذي أعقب ذلك مصحوباً أو مشوباً ، كما هو شأن القوى السياسية في الشرق الأدنى ، بفوارق الولاء الديني . فقد كانت ثورات البدو ، خلال الخلافة الأموية ، في شمالي الجزيرة العربية وفي بلاد ما بين النهرين تنضوي كقاعدة تحت راية « البدعة » الخوارجية ، واعتنق الخوارج عقيدة متشددة في التزمّت والدعوة إلى المساواة مثلما أنهم وجدوا صدًى متعاطفاً مع عقيدتهم في الديمقراطية العشائرية وفي مقاومة السيطرة الأجنبية . وفي الطرف الآخر ، قام رجال قبائل الكوفة في أسفل العراق بتنصيب أنفسهم مدافعين عن الحق المتوارث لبني عليّ في الخلافة ، وعليّ هو صهر النبي وأبو المتحدّرين الوحيدين منه والذين بقوا بعد وفاته ، وهو الخليفة الرابع الذي نقل عاصمة الخلافة من المدينة إلى الكوفة إبان الفتنة الأهلية الأولى .

لم تحظ الدعوة الشيعة أو « حزب » علي طيلة قرن من الزمن أو ما يقارب ذلك سوى بالقبول الضئيل خارج الكوفة والمناطق التابعة لها ، باستثناء اليمن ، وكثيرة تسرت وراءها الشلل الثورية . ثم بدأت في ظلّ الخلفاء العباسيين تحلّ محلّ الخوارجية ؟ للاختصار الديني أو بمثابة رمز للثورة . وبعد الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون حظيت ثورة شيعة في الكوفة سنة ٨١٥ بتأييد عام بين البدو في شمالي الجزيرة العربية وأطراف العراق الصحراوية . فأصبحت

تحركات البدو من شدة الحرب فصاعداً على ارتباط متزايد بالدعوة السيعية في صيغة أو أخرى . من صيغ شيعها المتنوعة ، وبدوع خاص مع الجناح النشط المعروف بالاسماعيليه (١) - ويعتبر هذا الجناح بأنه صاحب بدعة من وجهة نظر الشيعة المعتدلين . كاذب، اكتسبت الشيعية اناعساً لها بين العبيد السود وانضم العديد من البدو إلى الرنج في ثورة الزنج الكبرى التي زلزلت المنطقة السفلى من العراق بين عامي ٨٦٤ و ٨٨٣ . فلم تكد هذه الثورة ان تحمد حتى هب رجال القبائل الاسماعية في الشمال الشرقي من الجزيرة العربية والبادية الشامية تحت راية « الترامطة » ناشرين النار والدمار من البصرة إلى انطاكية ، ولم يتسن إخمادهم إلى السكنة بصورة مؤقتة إلا في سنة ٩٠٧ .

أما الولايات التركية في الأناطليم العربية ، من جهة ثانية ، فقد أسسها قادة جمعوا بين الاستغلال المطواخ والارثوذكسية السنية الصارمة . ومنذ حكم المعتصم ، خلف المأمون . تمت العادة في تعيين أقاليم بكاملها كإقطاعيات للقادة الاتراك في العاصمة . فالقطع كان يجبي الخراج من ممتلكات الخلافة في الأناطليم ويمثله نائب له في حكمها الفعلي . فاستحصل المملوك التركي (والمملوك عسكري أصله عبد) أحمد ابن طولون ، الذي جرى تعيينه والياً على مصر في العام ٨٦٨ ، بهذه الطريقة على القوة التي استطاع بواسطتها ان يقيم هناك دولة مستقلة في الواقع ، مع انه بقي رسمياً حتى نهاية حياته في منصب الوالي . وليس هذا فحسب ، بل انه أضاف بلاد الشام إلى ممتلكاته وأسس سلالة دامت حتى ٩٠٥ . غير ان الحفاظ على هذه السلطة المستقلة لم يتم بواسطة انتزاع التأييد

١ - سمي الاسماعيليون بهذا الاسم من اعتقادهم بأمامة اسماعيل ، الابن الأكبر للإمام السادس جعفر الصادق . وشملت التسمية في هذا الوقت خليطاً من الجماعات المحلية ، كان « الترامطة » يؤلفون إحدىها ، وعليه فلا ينبغي معادلتها كلياً مع الاسماعيلية المنهجية لدى الفاطميين . انظر الفصل الرابع في المصدر الذي ورد ذكره عن تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ .

من السكان المحليين ، بل تمّ في خلق جيش خاص من المماليك الاثراك له من القوة ما يكفي لإيقاف قوات الخلافة عند حدّها .

وحتى عندما استولى القادة الاثراك لأنفسهم على مقاطعات ، كما فعلوا في ما بين النهرين وارمينيا وغيرها من الأماكن ، فإنهم لم يتخلّوا بذلك عن ولائهم للخليفة . بل على العكس من ذلك ، تقدّموا بالتماس رسمي للحصول على براءات الإقطاع وتسلموها في حينه ، فجاءت أحياناً مرفقة بمنح الحقوق الوراثية إلى جانب ذلك . فقد خلعت تلك البراءات ، رغم كونها زائفة بمعنى ما ، غرضين حقيقيين . أحدهما غرض النظام الداخلي : لإضفاء الشرعية على دعاوى المحاكم القضائية واحكام القضاة وغيرهم من المسؤولين الدينيين الذين يعيّنهم الحكام المحليون ، وعلى الزيجات والموارث ووصايا الإرث وكان الغرض الثاني سياسياً : من أجل وقف انتشار الشيعة والحدّ من تمرد البدو في تلك المناطق حيث كانت قوات الخليفة عاجزة عن التدخل .

لكن مثل هذا النظام القائم على التحالفات المتقلقة والمريبة ضدّ عدو مشترك لم يكن بمقدوره إيقاف جميع الصدوع في النسيج المهترئ . وقبل نهاية القرن التاسع كانت الشيعة قد اكتسبت قاعدة قويّة ودائمة في بلاد فارس وفي التلال الواقعة إلى الجنوب الغربي من بحر قزوين والمعروفة بالديلم ، كما أحرزت قاعدة دائمة أخرى في مرتفعات اليمن . بيد ان الشيعة لم تتابع تقدّمها في تلك المناطق النائية نسبياً فحسب ، ولا بين البدو فقط . فالسخط من جرّاء سوء الحكم السائد وانتشار الفوضى ، والتطلّعات الألفيّة التي انفجرت في ثورات القرامطة لاقت كلّها صدى حسناً بين أهل العلم والاتباء مسنّ المواطنين والفلاسفة والادباء ، وحتى عندما كان هؤلاء يشمئزون من العنف الفظّ والإفراطات لدى الفلاحين ورجال القبائل . وقام زعماء الدعوة الإسماعيلية باغتنام الفرصة التي اتاحها هذا الاستياء الواسع الانتشار من الحالة السائدة

للأمر بعد أن أعيد تنظيم الدعوة وتنسيقها لصالح « إمام خفي » ، وكان مقرها الرئيسي في السلمية ، شرقي حمص ، وعلى أطراف الرقعة الطولونية . هنا جرى رسم الخطة البحرية التي كرّرت الطريقة التي استولى بها العباسيون على الخلافة ، لكنّها سارت في الاتجاه المعاكس واستهدفت الإطاحة بهم . وتمكّن اسماعيلي نشيط قدم من اليمن من اكتساب موطىء قدم بين قبائل البربر الجبليين في تونس . ومن هذه القاعدة ، وعن طريق استخدام احتياطي الطاقة البشرية لدى البربر واعتبار مصر نقطة للوثوب منها ، وبمساعدة فعلية أو سلبية من الأنصار في كافة الأقاليم ، كانت امبراطورية شيعية جامعة ستدشن مملكة العدالة في ظل آل البيت .

لقد تمّ إنجاز الخطوات الأولى بنجاح . فالإمام الخفي فرّ من السلمية قبل وصول القرامطة المخربين وتملّص من عملاء الحكم العباسي المستعاض بمصر ، فشقّ طريقه إلى الشمال الغربي من أفريقيا . وقام هناك ، في سنة ٩٠٩ ، وبعد انتصار جيش داعيته البربري ، بتدشين الخلافة الفاطمية في تونس ثم اتخذ لنفسه اللقب الألفي « المهدي » . لكن الخطوة التالية اجهضت . فالجيش العباسي طردت الغزاة الفاطميين من مصر مرتين ، في سنة ٩١٥ وسنة ٩٢١ ، في انتفاضة أخيرة للسلطة الامبراطورية ، وقبل ان يتسنى تجديد المحاولة كان الفاطميون منهمكين في إخماد تمرد طويل وشديد الخطورة قام به البربر داخل البلاد . ولم يتحقّق احتلال مصر في نهاية المطاف إلا في سنة ٩٦٩ ، دون معارضة تقريباً ، وعلى يد قائد فاطمي ، لكي تصبح على مدى المائتي سنة القادمة مقراً لخلافتهم المنافسة .

جرت أحداث كثيرة في تلك الاثناء ، بالطبع ، فلم يكن توزيع القوى الذي واجه الفاطميين الآن في آسيا مشابهاً أبداً للوضع في سنة ٩٠٩ . فالخلافة العباسية لم تعد قائمة كقوة سياسية . لقد أنهكها المجهود العسكري المبدول لـ « صند »

القرامطة واستعادة مصر والإبقاء عليها ، وأضعفتها الاضطرابات الحالية وتناحر الفئات داخل القوات الامبراطورية ، مما جعلها عاجزة عن الحيلولة دون إعادة ظهور السلالات الحاكمة المحلية وإحياء الاطماع العسكرية . وأضحى مصر من جديد مقراً لسلالة تركية تتمتع باستقلال واقعي ، أسسها أحد القادة في القوات الطولونية السابقة ، محمد بن طُغج ، الملقب بالخشيدى فامتد حكمه إلى دمشق والحجاز . وانضوت القبائل العربية في شمالي سورية وما بين النهرين تحت راية أمراء آل حمدان الذين أنشأوا دولتين قاعدتهما الموصل وحلب ، وارتبطت هاتان الدولتان بروابط أخوية . وفي الشمال الشرقي من الجزيرة العربية كانت الدولة القرمطية في البحرين (شاطئ الحسا) لا تزال تقيم علاقات مع قبائل بادية الشام . وفي غربي فارس كان الديلم ، الذين انطلقوا من جبالهم ونهبوا الولايات المأهولة ، قد أخضعوا أخيراً للسيطرة المنظمة من جانب إخوة ثلاثة ينتمون إلى آل بويه . فقد تمركز البويهيون ، وهم الذين تميزت علاقاتهم ببعضهم بعضاً في الجبل الأول والثاني بروح نادرة من التوافق ، في مجموعة من الدويلات (الإمارات) الممتدة على طول الحدود الشرقية للعراق من بحر قزوين إلى الخليج الفارسي ، وبذلك قطعوا الخلافة عن الاتصال بالقوة السنية الرئيسية الوحيدة في آسيا : السامانيون في خراسان وما وراء نهر جيحون (٢) .

تميز هذا التفكك الثاني للامبراطورية العباسية في القرن العاشر عن تمزقها الأسبق في النصف الثاني من القرن التاسع بخاصيتين . الخاصة الأولى كانت في القوة الأكبر نسبياً والطابع الأكثر تنظيمًا للدويلات الجديدة . فتركت هذه الحقيقة ، إلى جانب الانقسامات في جيوش الخليفة ، أثرها على مواقف

٢ - انظر عن البويهيين والسامانيين الفصل الخامس من

A History of the Crusades, Vol. I.

الدويلات من الخلافة بالذات ، وأدت إلى نشوب صراع بين الإمارات المتنافسة لبسط سيطرتها على الخلفاء . وكسب الديلم الجولة عندما دخل أمير خوزستان معز الدولة إلى بغداد فضمّ العراق إلى إمارته في سنة ٩٤٦ . وفي المقام الثاني ، فقد كانت جميع السلالات الحاكمة الجديدة شيعية — باستثناء الاخشيديين في مصر والأكراد في ديار بكر وشمال غربي فارس ، فامتناع البويهيين عن الإطاحة بعرش الخلفاء العباسيين كان مردّه على الأرجح إلى حسابات سياسية .

ولقد تعدّر عليهم ان يدفعوا لقاء ذلك ثمناً مرتفعاً للغاية ، وكان ممكناً أن يأتي هذا الثمن على صعيد التمرد السنّي والقوضى الإدارية ، بما ان الطبقات الرسمية كانت سنية في غالبيتها الساحقة . فلم تكن لديهم الرغبة في إقامة سلطة روحية جديدة عليهم ان يقاسموها سلطانهم ، رغم انه لم يكن أي احترام للسلطة العباسية رادعاً لهم عن ذلك .

لذا لم يجد الفاطميون انفسهم : عقب فتحهم لمصر ، وجهاً لوجه في آسيا أمام حكم ضعيف الثقة للخلفاء السنيين وبأنه في استطاعتهم ان يحشدوا قوى الشيعة ضدّ هذا الحكم ، بل وجدوا صفوفاً متلاحقة من الإمارات الشيعية الممتدة دون انقطاع حتى حدود خراسان . ومع ان الحمدانيين في حلب والقرامطة في البحرين لم يكونوا معارضين من حيث المبدأ للاعتراف بالسلطة الروحية للخلفاء الفاطميين ، فإنهم لم يكونوا ايضاً على استعداد البتة للخضوع إلى سيطرتهم الزمنية ، بينما وجد البويهيون الآن ، وهم الذين ينتمون إلى طائفة شيعية منافسة أنكرت على الفاطميين مزاعمهم الروحية حتى ان الشكوك قد ساورتها بشأن ادعائهم للنسب ، بان رعايتهم المتساهلة للخلافة العباسية تعود عليهم بفائدة سياسية وتتخذ هذه الفائدة شكل التأييد ضد التقدم المتوقع للجيش الفاطمي .

لكن الفاطميين لم يبادروا إطلاقاً في الواقع إلى توجيه التحدي للسيطرة البويهيّة في العراق . فأنهمكوا طيلة القرن كلّهُ الذي أعقب فتحهم لمصر في بذل مجهود متواصل لم يكتل بالنجاح في آخر الأمر لبسط سيطرتهم على سورية . وبما أن هذا الصراع — مع التعقيدات التي أضيفت إليه في الهجرات التركمانيّة والإمارات السلجوقيّة ، وهذا ما سيأتي وصفه في فصل لاحق(٣) — هو الذي حدّد الملامح العامّة للحياة السياسيّة الداخليّة في بلاد الشام خلال القرن السابق للحملات الصليبيّة وإبان فترتها ، يصبح من الضروري أن نصف هنا بشيء من التفصيل مجرى الصراع ونتائجه .

كان العامل الرئيسي الكامن وراء التاريخ السياسي المشوّش لبلاد الشام خلال هذه الفترة هو إبلال القبائل العربيّة من السيطرة الصارمة التي مارسها عليها الحكام العبّاسيون وعملاؤهم بعد سقوط الخلافة الأمويّة . لكن التحالفات العشائريّة الكبرى بقيت سليمة . وهي الآن : الجماعات اليمانيّة أو العربيّة « الجنوبيّة » من بني طيء في فلسطين ومن بني كلب في سورية الوسطى ، والقيسيّون أو الجماعات « الشماليّة » من بني كلاب في شمالي سورية ومن بني نُمير وعُقيل في بلاد ما بين النهرين . كانت هذه الجماعات كلّها على صلات مع القرامطة ، مثلما اشترك بنو طيء وبنو كلب في الثورات القرمطيّة عند بداية القرن العاشر . استولى سيف الدولة الحمداني ، وهو المتحدّر من قبيلة تغلب الراسخة في بلاد ما بين النهرين ، على حلب من الاخشيديين في سنة ٩٤٤ وأقام دولة (إمارة) مستقلّة تضمّ الشام والعراق . فنال بعد صراع طويل مع القبائل القيسيّة تأييد بني كلب وبني عُقيل ، واستطاع ايضاً الاعتماد على رجال القبائل الأخرى لكي يشارك بدوره ضد الحكم التركي في مصر ، هذا الحكم الذي لم يحتفظ بقبضته على الشام إلا بتصالحه مع القبائل المحليّة .

لكن سيف الدولة كرس معظم طاقاته للتحارب مع الروم ، وأحرز لفترة ما قدرأ من النجاح الذي لم يؤدّ إلى تعزيز شهرته فحسب بل ذهب إلى حدّ تقوية الثقة بالنفس والشعور بالاستقلال لدى العرب . ومن جهة ثانية ، فقد استفزّ نجاحه البيزنطيين في نهاية الأمر وقاموا بشنّ هجوم مضاد بدأ في سنة ٩٦٢ وأخذ يخرق خطوط الدفاع الإسلامية أكثر فأكثر في العمق حتى اجتاح شمالي سورية كلّها في العام ٩٦٨ . أما الفاطميون فقد جاءتهم هجمات الروم في الوقت المناسب تماماً ، إذ جاءت في أعقاب خروجهم من انتصارهم على الروم في صقلية وبينما كانوا في تلك اللحظة يعدّون العدة للانقضاض على مصر . فهي لم تؤدّ إلى إضعاف الحمدانيين في حلب فحسب ، بل زوّدت الدعاية الفاطمية بالموضوع الذي بدا ان له ما يبرّره في بداهة متناهية ، ومؤداه ان الفاطميين يشكلون القوة المسلمة الوحيدة القادرة على إيقاف تقدّم الروم ودحرهم . كما ان الخليفة الفاطمي المعزّ كان قد تفاوض مع قرامطة البحرين لكي يحيط تدخلاً محتملاً تشنه قوات معادية من الشرق ، ودخل في العام نفسه جيش " قرمطي إلى سورية فاستطاع بمساعدة حلفائه العرب المحليين ان يأخذ الجزيرة من حاكم دمشق الأخشيدي .

وهكذا تبدّى كل شيء وكأنه منتظم في سلسلة تنذر باحتلال فاطمي سريع لبلاد الشام حالما يتم افتتاح مصر . وفجأة ، بينما أخذت طليعة القوات الفاطمية بالتقدّم صوب سورية ، بادر القائد القرمطي ، لأسباب لم تتضح تماماً على الإطلاق ، إلى التفاهم مع القائد الإخشيدي . غير ان الجيوش الفاطمية دخلت دمشق عند نهاية سنة ٩٦٩ وحاصرت الروم طيلة خمسة اشهر في معقلهم بانطاكية التي عاودوا الاستيلاء عليها من جديد ، لكي تواجه تحالفاً من القرامطة والقوات الإخشيدية ورجال القبائل فقام هؤلاء بطردها من بلاد الشام وتعقبوها حتى مصر (عام ٩١٧) . فلم يتمكنّ الفاطميون من معاودة الكرة في حملتهم الشامية إلا بعد اندحار المهجوم القرمطي الثاني على القاهرة في سنة ٩٧٤ م .

وتجددت في تلك الاثناء غارات الروم فأخضعوا حلب الى مقلعية لهم . لكن الحملة النهائية التي قادها الامبراطور يوحنا تريميسكس (Tzimiskes) (الملقب بابن الشمسقيق) الى اواسط الشام في سنة ٩٧٥ تصدت لها الجيوش الفاطمية عند طرابلس . فلم تُضم دمشق ولم ينسحب القرامطة نهائياً من جولة السباق إلا بعد مضي ثلاث سنوات اخرى من القتال الذي أدى الى هزيمة القائد التركي المستقل في دمشق ، افتكين ، وهزيمة حلفائه القرمطيين على يد الخليفة الفاطمي العزيز .

لم يكن أثر هذا الغزو في توطيد الحكم الفاطمي في سورية الجنوبية بقدر ما كان في تقسيم بلاد الشام الى محميتين : محمية بيزنطية في الشمال تشمل حلب والمناطق التابعة لها ، وقاعدتها المحصنة بقوة هي انطاكية ، ومحمية مصرية تضم دمشق والجنوب وقاعدتها الرئيسية في طرابلس الشام . ولقد تركزت القوات البربرية التابعة للجيش الفاطمي في دمشق ، على كره شديد من أهاليها ، وأقيمت لها حاميات في المدن الساحلية ، بينما كانت المناطق الريفية خارجة عن سيطرتها إلى حد بعيد . ويرجع هذا الضعف دون ريب ، إلى حد ما ، لمزايا قوات البربر التي لا تضاهي الفرسان الاتراك المنضبطين وتنحصر مقدرتها بالصمود في مواقعها أمام رجال القبائل العربية . لكنه يبدو محتملاً ان الخلفاء الفاطميين على العموم كانوا قد أناطوا ثقة مفرطة بتأثير الدعاية . فكان التنظيم الدقيق لـ « الدعوة » هو السمة التي تميز بها نظامهم الاداري بنوع خاص ، واحتلّ الداعي الأكبر منصباً من أعلى مناصب المسؤولية في البلاط . وجرى تأسيس الجامع الأزهر كمدرسة كلية لأجل تعليم الدعوة ، وهو الأثر الأشد بقاءً لحكمهم . فالافتراض القائل بأن تسهيل الغزو يكون عن طريق حملة تمهيدية من الدعاية جاء وافياً لغرضهم على خير وجه في تونس وكذلك في مصر ، لكنه لم يزد في بلاد الشام ابداً عن كونه قصبة مكسورة . ولم يرجع السبب إلى أن السوريين رفضوا مزاعمهم الدينية . بل على العكس من ذلك ،

وباستثناء دمشق التي لم يتصالح سكانها السنيون المتصلّيون مع الحكم الفاطمي أبداً ، فإن المواطنين ورجال القبائل ، « الشماليين » منهم و« الجنوبيين » كانوا من حيث المبدأ أكثر تعلقاً بالخلافة الفاطمية من تعلقهم بالخلافة العباسية ، وكان بعضهم في الشمال بنوع خاص من أنصارها المتحمسين . ولقد اعتمد الحكم الفاطمي في أية عملية له كانت على نطاق أوسع من العمليات المحلية ، إلى درجة كبيرة على تعاون قبيلتي طي وكلب ، مثلما اعتمد الحمدانيون على قبيلة بني كلاب . غير أن تقسيم البلاد ، وانعدام السيطرة الفعالة على رجال القبائل ، أدت إلى تعزيز الشهية الطبيعية للاستقلال بين صفوف القبائل ، وشجعا غيرهما أيضاً على التطلع صوب الاستقلال ، أو الحكم الذاتي على الأقل .

لذا يتبدى تاريخ بلاد الشام منذ هذا الحزن في اتخاذ التعقيد المحير الذي ميّزه حتى أواسط القرن الثاني عشر . ولم ينهمك - الولاة الفاطميون والحمدانيون والروم في انطاكية في سلسلة متعاقبة التنقل بين العداوات والتحالفات فحسب ، بل إن الولاة الذين يصغروهم شأناً في أنحاء مختلفة من البلاد زجّوا بأنفسهم في خضم هذه التناحرات وسعوا لإثارتها ضد بعضهم بعضاً في سبيل مصلحتهم الخاصة . وكان ولاية دمشق يتعرضون لإغراء متواصل في أن يستغلوا المنفعتهم عداء المواطنين تجاه البربر والفاطميّين . ومن جهة ثانية ، فقد آمن الحمدانيون لأنفسهم في حلب التغطية ضد أسيادهم البيزنطيين بواسطة الانفتاح على الفاطميّين . غير أنهم كانوا كلّمًا زحفت الجيوش الفاطمية على حلب ، يتوسلون العون من انطاكية . فقد قام الامبراطور باسيلوس الثاني في حملتين متعاقبتين (٩٩٢ و ٩٩٤) ومحاصرة حاكم دمشق للمدينة بالذات ، بتسليمها شخصياً في سنة ٩٩٥ . غير أن حملات باسيلوس اللاحقة في سورية فشلت في إضعاف دفاعات الفاطميّين ، وتمّ في سنة ١٠٠١ ترتيب السلسلة الأولى من سلاسل المدة التي قامت لمدة عشر سنوات بين الامبراطوريتين . وقام في سنة ١٠٠٩

جيش "فاطمي" من طرابلس بتأييد ولاية حاكم جديد على حلب ضد الحاكم المحمي من قبل باسيلوس . وبعد سنوات قليلة كان العرب الكلايون الذين ازدادوا تمللاً كلما ازدادت سلطة الحمدانيين ضعفاً ، قد هبوا في تمرد صريح تحت أمرة رئيسهم صالح بن مirdاس . ولكي يصل صالح إلى أهدافه قام بضم جهوده إلى مؤيدي الفاطميين ، فخضعت حلب في سنة ١٠١٦ للمرة الأولى إلى حكم وال فاطمي .

مما تجدر ملاحظته هو ان هذه النجاحات في سورية قد جاءت مطابقة لولاية الحاكم بأمر الله ، الخليفة الفاطمي الغريب الأطوار (٩٩٦ - ١٠٢١) . فقد بدأ الحاكم بأمر الله في سنة ١٠٠٨ ، إلى جانب العديد من الإجراءات المغيظة لرعاياه المسلمين ، حملة اضطهاد دامت سبع سنوات ضد اليهود والمسيحيين ، وصادر ممتلكات الكنائس وأمر بهدمها . ومن بين الكنائس التي جرى تخريبها كنيسة القبر المقدس (القيامة) في القدس التي جرى هدمها عام ١٠٠٩ . أما في سورية ، على الأقل ، حيث قاسى الأهالي من الهجمات الرومية طيلة خمسين عاماً ، فإن هذا الاجراء كان أكثر الإجراءات حظوة بالشعبية في إدارة الحاكم ، رغم انه قد تبعه أمر من باسيلوس يحظر التعامل التجاري بين الأراضي المصرية والبيزنطية .

وسرعان ما تبدت هشاشة الفتوحات الجديدة . فالحكومة الفاطمية كان عليها منذ البداية ان تعالج ثورات عشائرية مستمرة . وكان أشد رعاياها العرب هيجاناً هم بالذات تلك القبيلة التي زوّدت الفاطميين بالقسم الأعظم من قواتهم الإضافية : قبيلة بني طيء في فلسطين وشرقي الاردن . فقد ثار هؤلاء الحلفاء السابقون للفرامطة في الأعوام التالية : ٩٨٠ و ٩٩٨ و ١٠١١ . وتنصّب شيوخها المنتمون لآل جراح في كل مناسبة كأمرء مستقلّين على فلسطين ، ثم تخلّوا في المرة الثالثة عن الفاطميين لصالح خلافة شريف مكة . وعمدوا في الوقت نفسه ، أو بعد ذلك ، ايضاً إلى فتح المفاوضات مع الروم

في انطاكية ، حتى ان ابن الجراح بدأ في سنة ١٠١١ م في إعادة بناء كنيسة القبر المقدس (القيامة) .

واستاء الكلايون ، من جهتهم ، من الاحتلال الفاطمي لحلب التي اعتبروها مكافأته العادلة . فقام زعيم الكلابيين صالح بن مرداس في سنة ١٠١٤ ، وبعد موت الحاكم بأمر الله ، بتكوين رابطة من القبائل العربية على أساس اتفاق لاقتسام سورية بين الكلابيين في الشمال وبين كلب في الوسط وبني طي في الجنوب ، بينما احتلّ هو حلب . وهزّت الثورة العامة الحكم الفاطمي من خموله . فأرسل الفاطميون جيشاً قوياً من مصر بقيادة قائد تركي هو انوشكين الدزبري ، لكي يزم صالح بن مرداس وحلفاءه العرب في الأقحوانة على شاطئ بحيرة طبريا (١٠٢٩) ، وعكفوا على إعادة تنظيم إدارة مستقرة في الجنوب . وفي تلك الاثناء أعاد الامبراطور البيزنطي فرض الجزية الرومية على ابن صالح وخلفه في حلب (١٠٣٠) ، وانهمكت القوات الرومية الخارجة من انطاكية ، يراففها الطائي الحارب ابن الجراح ، في مناقشات مع رجال القبائل في الشمال . فاستولى جورج ماناسس ، قائد جبهة الفرات ، على مدينة الرها (أورفا) عام ١٠٣٢ من الأكراد المقيمين في أعالي ما بين النهرين ، ثم اخضع رجال قبائل نُسَير الذين استولوا على حرّان وسروج . وأعاد انوشكين في العام ذاته فتح المفاوضات مع انطاكية والقسطنطينية ، فتَمَّ تعليق الاشتباكات ، لكن توقيع الصلح لم يتمّ إلاّ عام ١٠٣٨ ، وحصل الامبراطور بموجبه على السماح بإعادة بناء كنيسة القيامة لقاء مبادرته إلى اطلاق سراح الاسرى المسلمين لديه . أما انوشكين ، من طرفه ، فقد وافق على الاستمرار في دفع الجزية للروم ، وطرد بني كلب من حلب واعاد احتلال القسم المتبقي من الدولة الحمدانية السابقة .

كان هذا بمثابة الذروة التي بلغتها السلطة الفاطمية ، وقد أيقظ آمالاً متهوِّرة في القاهرة . فالبويهيون في العراق كانت قد أضعفتهم الآن النزاعات الداخلية

وأوقعت الاختلال في صفوفهم . وأعيد تنظيم « الدعوة » من جديد واستحدثت لبذل جهود جديدة . وكانت بلاد فارس تعجّ بالعملاء (الدعاة) الفاطميين الذين كانوا يكسبون المهتدين للدعوة بين كافة الطبقات في الممالك الشرقية . أما التحالفات والأحلاف فلم تنشأ مع الامبراطور البيزنطي فقط ، بل مع امراء جورجيا (الكرج) والأتراك في آسيا الوسطى ، وحتى مسع راجا الهندوس في دلهي ، لكن عرب الشام تدخلوا من جديد . وعندما توفي انوشكين استرجع المردياسيون حلب بدعم من الروم (١٠٤٢) ، وتمردت قبيلة بني طي مرة أخرى في فلسطين فلم يتسن إخضاعها للنظام إلا بعد ان تمّ ترحيل العناصر الأشد هيجاناً بينها عقب سنوات قليلة إلى منطقة الدلتا . ولقد تجلّت انعدام التكافؤ بين أهداف الفاطميين الدعائية ومواردهم الحقيقية في هذه اللحظة من خلال حادثة البساسيري العجيبة في بغداد . والبساسيري ضابط تركي لدى آخر امراء بويه ، طرده السلاجقة من بغداد عام ١٠٥٥ ، فتوسّل الدعم من القاهرة . وبعد ان تلقى هدية كبيرة من المال والسلاح ، دخل بغداد مسن جديد في كانون الأول سنة ١٠٥٨ وأرغم الخليفة العباسي على الاعتراف بمنافسه الفاطمي . لكن الظروف السائدة حينذاك لم تسمح بإرسال الدعم العسكري له من مصر أو الشام ، فأعيد الخليفة العباسي إلى منصبه على يد السلاجقة . وكانت النتيجة الوحيدة التي أسفرت عنها هذه الحادثة هي تشجيع السلاجقة على عدائهم للفاطميين لكي يستغلّوا فرصة اندلاع الفوضى بعنف في مصر خلال هذه السنة ذاتها (١٠٦٠) ، ممّا وضع حداً للحكم الفاطمي في بلاد الشام وتركها مشرعة الأبواب أمام هجمات التركمان والسلاجقة (١) .

لم يبق سوى معقل واحد للسيطرة الفاطمية في بلاد الشام ، إلى جانب المدن الساحلية بين عسقلان وطرابلس . وكان هذا المعقل هو الطائفة الإسماعيلية

٤ - انظر عن السلاجقة : الفصل الخامس من :

A History of the Crusades Vol. I.

المنشقة التي تعرف بالدروز نسبة إلى الداعية الفارسي الدرزي الذي أتم هدايتهم للمعتقد الجديد بألوهية الخليفة الفاطمي الحاكم (بأمر الله) (٥). إن أصول الطقوس وأسباب انتشاره ما زال يكتنفها الغموض ، لكن الدعوة الدرزية تجذرت بين الحليط السكاني في المرتفعات الواقعة جنوبي لبنان وانتشرت من هناك إلى المناطق الجبلية الواقعة بين العاصي وحلب (والمعروفة بجبل السماق) ، على الرغم من المحاولات التي بذلها الحكام البيزنطيون واتباع الشيعة الفاطمية « المستقيمة الرأي » لاستئصال شأفتها . فقد سبق للغلو الشيعي ان وطّد دعائمه بأشكال متعددة في شمالي سورية خلال القرن السابق . وكانت الطائفة الرئيسية بين هذه الطوائف الشيعية هي النصيرية التي اكتسب دعائها ، بحظوة من الحمدانيين ، قاعدة قوية بين القبائل اليمينية المقيمة في جبل براء (الذي يعرف الآن ، تبعاً للكتابة ، بجبل انصارية) الواقع إلى الجنوب من انطاكية . وربما كان القصد من وراء الطائفة الدرزية ان تخدم غرضاً سياسياً عن طريق الارتباط مع هذه الجماعات الشيعية المتطرفة في الشمال . غير انه باستثناء الخلاف اللاهوتي فلا يُعرف سوى النزر اليسير أو لا شيء عن العلاقات فيما بينهم خلال هذه الفترة . وعلى أية حال ، فإن الدرزية تراجعت إلى موطنها الأصلي في لبنان ، ولم تلعب سوى دور ضئيل في تاريخ القرون التالية ، باستثناء كونها قد أضافت نوعاً آخر إلى انواع المعتقدات الدينية الممثلة في سورية ، وجناحاً مستقلاً آخر إلى تركيبها السياسي .

وكان السبب الرئيسي للأزمة الداخلية العصبية التي لم تدم طويلاً في مصر هو اندلاع التنافس المسلح بين الأقسام الثلاثة للجيش الفاطمي : البربر والمشاة السودانيون وكتائب الفرسان الاثراك الذين جنّدهم الخلفاء تدريجياً في خدمتهم ، وأصبح تعدادهم الآن حوالي ١٠,٠٠٠ . ولما كان الخلفاء في بغداد

٥ - انظر عن الاسماعيلية : الفصل الرابع من تاريخ الحملات الصليبية ج ١ ، المصدر نفسه .

قد بادروا في القرن التاسع إلى الأنخذ بعادة تشكيل كتائب الحرس من أتراك آسيا الوسطى الذين جرى اقتناؤهم بالشره أو كأسرى حرب ، فقد جعلت الصفات العسكرية المتفوقة لهؤلاء الأتراك المماليك بمثابة امر ضروري لكلّ الذين أمسكوا بزمام الحكم المستقلّ أو تطلّعوا إليه في غربي آسيا ان يحلّوا حلوهم ، على الرغم من الأخطار السياسية التي غالباً ما أسفرت عنها هذه الممارسة . فقد توجّب على كل أمير أن يكون له « عسكريه » أو فرقته الدائمة من الحراس الأتراك ، يختلف عددها تبعاً لموارده ، فيتراوح بين بضعة آلاف وبضع مئات . لكن « روح التضامن » التي كانت متطورة للغاية عندهم والتي جعلت منهم أداةً عسكرية قيّمة ، تحوّلت ايضاً في ظلّ الحكم الضعفاء إلى مصدر للخطر ، ممّا أدّى إلى نزاعات مع كتائب من جنسيات أخرى ، وإلى عصيانات وثورات علنية تحت أمرة القادة الطامعين . وأحدثت السلالات الحاكمة والإمارات في غربي آسيا ، الواحدة منها بعد الأخرى ، تعاني خلال القرن العاشر والحادي عشر من هذا العنف لدى قواتها التركية وقد رضخت له في نهاية المطاف .

ولقد أصبحت الخلافة الفاطمية الآن متورّطة في نزاع من هذا القبيل ، فقام الأتراك ، عقب سبع سنوات من القتال تحت أمرة ناصر الدولة الحمداني ، وتحالفوا مع كتائب البربر لكي يطردوا السودانيين إلى صعيد مصر . وتلت ذلك ست سنوات أخرى تعرّض خلالها الريف للخراب على يد الأتراك ، والسودانيين في الجنوب ، وقبائل البربر القادمة من ليبيا في الشمال ، فحوصرت القاهرة ونُهبّت . وبلأ الحليفة المستنصر في حالة من اليأس بعد اغتيال ناصر الدولة على يد قواده الأتراك (١٠٧٣) إلى طلب المساعدة من قائده الأرمني بدر الجمالي ، حاكم عكا . فوصل هذا بطريق البحر مع حراسه الأرمن ليفاجئ الأتراك ، واستطاع ان يدخل القاهرة في شهر كانون الثاني سنة ١٠٧٤ وان يقمع القادة الطامحين وجنودهم بحدّ السيف وغير ذلك من الإجراءات العنيفة.

وتمّ على مدى ثلاث سنوات أخرى من الحملات المتواصلة إخضاع السودانيّين والبدو والبربر الليبيين للسيطرة ، فتمكّن بدر مع حلول سنة ١٠٧٧ من إنجاز مهمته في إعادة السلام والاستقرار داخل مصر^(٦) .

كانت بلاد الشام خلال هذه الأعوام السبعة عشر متروكة بحكم الظروف لنزعاتها . وتصارفت في دمشق قوات الأتراك والبربر ، أو قاتلت ضد الجنود المحليين أو عرب بني كلب ، ولم يستطع أي حاكم من الإبقاء على نفسه وسط الفتن المتنافسة . لقد حاول بدر أن يقوم بالمهمة مرتين ، في سنة ١٠٦٤ وسنة ١٠٦٨ ، فطرّد في المرّتين ، ثم انسحب إلى عكا حيث عكف على بناء الحرس الأرمني الذي كان سيحتل القاهرة بواسطته فيما بعد . وقطع كل من والي طرابلس وصور صلاتهما مع الحاكم الفاطمي عام ١٠٧٠ وأعلنّا استقلالهما عنه - وذلك يعود من المرجّح إلى أسباب تجارية وسياسية على حدّ سواء - وطفّت على هذه الأحداث المحليّة نذائر أشدّ خطورة . فقد دخلت أول عصابة من التركمان إلى شمالي سورية في سنة ١٠٦٤ لكي تسهم بالنزاع بين الأمراء المرداسيين المتنافسين على امتلاك حلب . وتلتها عصابات أخرى تحت أمرّة زعماء آخرين . فلما قام بدر بالحملات بمحاصرة صور في سنة ١٠٧٠ ، بادر الوالي الجديد إلى طلب النجدة من أحد أولئك الزعماء التركمان ، لكي يرغم المهاجمين على التراجع . وحذا حذوه بدر بالذات عقب زمن قصير . إذ عندما حاول ناصر الدولة أن يحرض عرب بني طيّ ضدّه ، استدعى عصابة يقودها واحد اسمه أنسيز للوقوف بوجه نشاطاتهم . فكانت النتيجة أن احتلّ أنسيز فلسطين ونهب القدس ، وبعد أن جرى إبعاد بدر إلى مصر ، قام أنسيز بمحاصرة دمشق والاستيلاء عليها (١٠٧٥) . وفي العام التالي حاول متابعة نجاحه بالهجوم على مصر ، لكن بدر الجمالي تصدّى له وهزمه في شهر شباط سنة ١٠٧٧ ؛

٦ - فيما يتعلق بالحكام اللاحقين لمصر انظر الفصل الرابع من

A History of the Crusades Vol. I, pp. 105 ff.

ثم زحف بدر الجمالي بدوره على دمشق لكنه انخفق في استرجاع المدينة خلال حملتين متعاقبتين . وبعد الحملة الثانية سلمها اتيسز إلى الأمير السلجوقي (تنش) ، لكي تصبح عاصمة الدولة السلجوقية في سورية (١٠٧٨) .

وتجنّب بدر منذ ذلك الحين الدخول في أي نزاع مع السلطة السلجوقية ، وكرّس نفسه لإعادة تنظيم مصر واسترجاع ازدهارها . فقد قامت الخلافة الفاطمية طيلة قرن آخر . وذلك بفضل حكومته الحازمة والمنظمة وحكم ابنه الأفضل شاهنشاه الذي جاء بعده . والحقّ يقال إن إنجازاه كان أكثر جدارة بالملاحظة . فالمبادئ العامة التي أعاد تنظيم الإدارة على أساسها كانت متصوّرة على نحو سليم إلى درجة أنها بقيت سارية المفعول على امتداد قرون ، رغم الحروب والثورات والتغيرات في السلالات الحاكمة . وكانت السمة الأكثر لفتاً للنظر في نظامه هي الجمع بين الحكومة العسكرية والإدارة المدنية . فلم يعد الخلفاء الفاطميون منذ هذا الوقت فصاعداً أو أنهم لم يكونوا إلاّ لفترات نادرة وقصيرة ، بمثابة الحكام الفعليين للبلاد . فقد بقيت مقاليد السلطة الحاكمة بيد الدكتاتور العسكري المدعو بـ الوزير ، أو السلطان في أوقات لاحقة ، يدعمه جيش يتقاضى قاداته أجورهم من الإقطاعات العسكرية . غير أنه بالرغم من بقاء الحكومة العسكرية على رأس الحكم فقد انشئت إدارة مدنية قوية ، وبسطت هذه الإدارة سيطرتها على التنظيم المالي برمته ، ومن الحملة على دفع أجور العساكر ، كما ضببطت توزيع الإقطاعات .

وقلما تقلّ عن ذلك جدارة بالملاحظة تلك الثورة التي أحدثها بدر الجمالي وابنه في سياسة مصر الخارجية . فسواء تقبّلاً للحقيقة القائلة بأن الدولة السلجوقية قضت على كافة أحلام التوسع الاقليمي أم لا ، فإن العمل العسكري الوحيد الذي قاما به خارج مصر كان استرجاع قواعدهما البحرية في عكا وصور وغيرهما من الموانئ (١٠٨٩) ، وإقامة رأس جسر دفاعي في فلسطين . ولدى

اقتراب الصليبيين أعيد تحصين صور وصيدا مثلما تمّ الاستيلاء على القدس مجدداً في سنة ١٠٩٨ من الزعماء التركمان الأرثوذكس الذين تولّوها كإقطاعية سلجوقية . أما الافتراض القائل بأن الأفضل حاول التفاوض مع الصليبيين على تقسيم سورية فتدحضه الحقيقة القائلة إن مبعوثي الفرنجة الذين ذهبوا إلى القاهرة في تلك السنة قد أُلقي بهم في السجن . والاحتمال الأكثر ترجيحاً هو أنه رأى في إقامتهم بشمال سورية فعلاً موازياً ونافعاً للوقوف بوجهه أطماع السلاجقة (٧) .

ولقد أعيد تشكيل مصر في الواقع ، فأصبحت مملكة شديدة التماسك تتمتع باكتفاء ذاتي ، بعد أن كانت منصّة الوثوب المشدودة لإقامة امبراطورية شيعية جامعة . ومع أن الأحزاب المعارضة للسلاجقة في بلاد الشام قد استمرت على اعترافها بالخلافة الفاطمية ، فلم تقم أي محاولة جادة للاستفادة من ولائها الديني من أجل غايات سياسية . والحقّ يقال إن بدر الجمالي والأفضل حاشا لهما هذا الأمر حتى أنه ليلبس عليهما تقريباً انهما قد نعمتا نفس تنظيم الدعوة الفاطمية بكامله ، باستثناء اليمن . وكان مبدأ أساسياً من مبادئ العقيدة الاسماعيلية في أن ينتقل المنصب الروحي الذي توارثه المتحدرون من علي في خطّة مباشر ، من الآباء إلى الأبناء بواسطة التعيين الصريح . فهو قد انتقل حتى الآن وعلى الدوام إلى الابن الأكبر أو إلى أكبر الأبناء الذين على قيد الحياة . وهكذا فإن نزار ، الابن الأكبر للخليفة المستنصر ، جرى اعتباره في الدعوة بمثابة خليفته المُقرَّر ، وربما تكون مبايعته قد تمت بهذه الطريقة . كما سبق لدعاوة عنيفة في النضالية وبهذا المفهوم أن أحرزت نجاحاتها الأولى في بلاد فارس بتأسيس حركة « الحشاشين » الجديدة . غير أن الأفضل اعترف ، لدى وفاة

٧ - لكن راجع بشأن هذا الموضوع الفصل العاشر من

A History of the Crusades Vol. I, pp. 315 - 316

المستنصر سنة ١٠٩٤ ، بأصغر ابنائه خلفاً له ، وأعطى هذا لقب المستعلي ، بينما سُحقت ثورة نزار في الاسكندرية .

ويكاد يتعذر الافتراض بأن حاكماً كان على هذا الجانب من الذكاء كالأفضل ولم يكن مدركاً بأن نتيجة هذا العمل سوف تؤدي إلى شق الدعوة الفاطمية إلى قطاعين متنافسين ، وبأن القطاع الشرقي المتطرف في غلوّه سوف يؤيد دعوى نزار . لذا لا يسعنا سوى الظنّ بأنه من بين الاسباب الكامنة وراء عمله كانت هناك رغبة في تنصيل الخلافة الفاطمية بمصر من النشاطات الإرهابية التي سبق للحشاشين ان بدأوا بمارسونها ، وبالتالي تجنب الدخول في نزاع مع السلطة السلجوقية ، التي لم يكن بمقدوره طبعاً التنبؤ مسبقاً بانهاياها الوشيك(٨) . وسواء كان هو بالذات سنياً حنيفاً ، كما يؤكد المؤرخ الدمشقي المعاصر ، فمن الجلي ان العناصر الأكثر غلوّاً بين الاسماعيليين نظرت إليه بعناء مرير ، وهي التي دبّرت مكيدة موته في نهاية الأمر . لكن يبدو ، من جهة ثانية ، انه أولى اهتمامه لتعزيز الجناح المستعلي والدعوة المستعلية في اليمن .

ويستطيع هذا التناقض الظاهر أن يقوم بإلقاء مزيد من الضوء على سياسة بدر الحمالي والأفضل . فالعلاقات بين الفاطميين واليمن ترجع ، كما سبقت الإشارة ، إلى ما قبل إنشاء الخلافة الفاطمية . لكنّها اكتسبت منذ اواسط القرن الحادي عشر أهمية جديدة . فقد بدأت حوالي هذا الوقت التجارة البحرية في المحيط الهندي — وهي التي سارت قبل الآن عموماً بطريق الخليج الفارسي — في أن تتخذ لنفسها على نحوٍ متزايد الطريق المارّة بعدن والبحر الأحمر ، حيث كان تفريغ البضائع يتم في مرفأ عيذاب على الشاطئ الافريقي ثم تُنقل الى النيل .

٨ — نجد الملاحظة هنا بأنه حتى في ظل الخلافة الفاطمية كان الإسلام السني لا يزال متمتعاً بتبعية قوية في مصر ، ولا سيما في الاسكندرية ، على ما يبدو .

ولقد حدث ذلك بفضل الوضع المضطرب في فارس والعراق ، والاستقرار النسبي في مصر (٩) . ثم يبدأ في هذه الفترة نفسها ، أي في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، التوثيق للعلاقات التجارية بين الاسكندرية وبين امالقي وجنوى . إن الصلة بين هذه الحقائق جلية ، ومن المؤكد أن ملاحظتها لم تفت على حكام مصر . فالشيء الأكيد أنهم نشطوا في تشجيع التجارة مع المدن التجارية الإيطالية بمنح براءات الحماية لتجار تلك المدن ، وهذا الأمر لا تؤيده الأدلة المجتزأة التي ما زالت باقية عن السنوات الممتدة من ١٠٧٠ إلى ١١٢٠ فحسب ، بل تدعمه الوثائق العائدة للعقود التالية وهي وثائق لا تقبل الجدل . وهكذا فقد أسهم وجود تلك العلاقات التجارية كما أسهمت تنميتها في ازدهار مصر الاقتصادي واكتفائها الذاتي من جهة وأثبتت عزبة حكامها عن القيام بنشاطات حربية من شأنها تعكير صفو العلاقات من جهة ثانية . ولم يحصل ذلك إلا في فترة متأخرة ، وعندما كانت التجارة المصرية قد أصبحت مؤسسة ثابتة الأركان ، إذ استطاع صلاح الدين — كما سنرى لاحقاً — ان يستغل تلك العلاقات كأداة في صراعه مع الفرنجة في بلاد الشام .

يجب ان يتضح من هذا العرض بأن هناك تبريراً ضئيلاً للنظرة التي تصور النزاع بين الاسلام السني ، أو أنصار الخلافة العباسية ، وبين الشيعة الذين أبدوا الخلافة الفاطمية ، فتعتبر هذا النزاع بمثابة السبب الرئيسي أو الأولي للضعف أو الشقاق الذي ساد العالم الإسلامي زمن الحملة الصليبية الأولى. فمن الصحيح ان الانقسام كان موجوداً، وإن السلاجقة، كما سنبين في فصل لاحق، جعلوا هدفهم المعلن في إعادة توحيد الإسلام كله تحت راية الولاء للعباسيين (١٠) لكن الاختلاف الطائفي لم يكن ، حتى بعد استتباب الأمر للسلاجقة ، في

٩ - ما يسترعي الانتباه في هذا الصدد ان الفاطميين كانوا يسيطرون على اتباع لهم على شواطئ كرمان وبلوستان ، كما في السند وشجرات .

١٠ - انظر الفصل الخامس من المصدر السابق ، ج ١ .

الصميم من النزاعات السياسية والعسكرية التي استمرت في تمزيق آسيا الغربية الى شبكة من الدويلات المستقلة، وأقلّ من ذلك كله في بلاد الشام. لقد كان السبب الأساسي هو الروح الاقليمية والتحاسد الشخصي والمحلي ، وهذا مما اتاح الفرصة أمام الامراء والحكام والقادة الطامحين لتحقيق التعميق الشخصي ، وأدّى بالتالي إلى انعدام الاستقرار في كل بنيان سياسي وجعله محتوماً بالانتهاء إلى التمزق ، بعد زوال العوامل الزمنية التي أخرجه إلى حيّز الوجود .

وعلاوة على ذلك ، لم تُعتبر مسألة الولاء السنّي أو الشيعي في هذا الجو من السياسة الواقعية (realpolitik) أكثر من مجرد صيغة دبلوماسية فحسب، بل حتى ان التمييز بين الدين الإسلامي والمسيحي — في شمالي سورية ، على الأقلّ — كان قد افتقد الكثير من حدّته السابقة . ويبدو على العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في أعقاب الانفجار العساير للمشاعر على زمن الحاكم بأمر الله أنها قد أصبحت ليّنة بشكل ملحوظ ، وقد جرى في ظلّ حماية المعاهدات البيزنطية اقبال نشيط على التجارة والاختلاط بين الروم والسوريين . ثم أخذت الإمارات المسيحية مع إنشاء الحكومات البيزنطية في انطاكية والرها تحتلّ مكانها في الإطار السياسي العاديّ لكلّ من سورية وما بين النهرين ، ولم يقم التساهل حيال المحميّات المسيحية على حلب واجزاء من سورية الداخلية فحسب ، بل جرت المطالبة بها فعلاً بين الفينة والفينة للوقوف ضدّ الأخصام المسلمين . لقد تخالط المسلمون والمسيحيون بعضهم مع بعض ، ولا سيّما بعد الهجرة الارمنية الكبرى إلى شمالي سورية . وبسط المسيحيون حكمهم على المسلمين ، كما بسط المسلمون حكمهم على المسيحيين ، دون حصول احتكاك جدّي من أي جانب . وخدم الروم والأرمن في الجيوش الإسلامية ، مثلما حارب المسلمون ضد المسلمين تحت أمرة قادة من الروم . كانت هذه هي الحقائق التي قرّرت اللامبالاة النسبية من جانب الأمراء المسلمين تجاه الصليبيين اللاتين لدى وصولهم الأول إلى سورية . فاحتلالهم لكلّ مسن

انطاكية والرها لم يفعل أكثر من مجرد إرجاع الوضع إلى سابق عهده ، حتى ان فتح القدس وتنظيم المملكة اللاتينية لم يثر سوى مخاوف قليلة ، إذ جاء ليقيم - كما أقام بالفعل - فاصلاً بين مصر وسورية الداخلية .

لذا فقد كان القصد من الهجوم المصري المضاد هو في الدرجة الأولى الدفاع عن المدن الساحلية (الثغور) . مع ان الأفضل ربّما كان يأمل للوهلة الأولى في الحيلولة دون سقوط القدس بأيدي الفرنجة . ومما تجدر ملاحظته ان يافا قد استولى عليها الجنويون حتى قبل حصار القدس وان الهدف الرئيسي لسياسة « بالدوين » خلال السنوات الخمس الأولى من حكمه كان يقضي بالاستيلاء على الموانئ البحرية ، ولا سيما على مرفأ عكا أكثر من سواه . وكون هذا الأمر قد حدّد الهدف العسكري للمصريين يبدو واضحاً من استراتيجيّة حملاتهم ، كما كانت عليه تلك الاستراتيجية ، في الاعوام التالية : ١١٠١ و ١١٠٢ و ١١٠٣ و ١١٠٥ . لكن هنا ايضاً ، ينبغي لنا على الأرجح ألا نرى في هذا الهدف الرغبة في الدفاع عن ممتلكاتهم الاقليمية بقدر ما هي الرغبة في الحفاظ على مزاياهم التجارية ، وقبل كل شيء في الحيلولة دون حصول الفرنجة على مدخل مباشر إلى تجارة البحر الأحمر المربحة (١١) .

لم يحسب الأفضل حساباً لتدخل اساطيل جنوى والبندقية ، فجاء سقوط الموانئ البحرية واحداً تلو الآخر ليرغمه بعد مدة قصيرة على اتخاذ نظرة أكثر جدية للوضع . وكان من الضروري الاحتفاظ بعسقلان ، على الأقل ، لأسباب استراتيجية وتجارية . فقد برزت أهميتها كقاعدة تجارية للفرنجة من خلال الحقيقة القائلة ، فيما لو صدّقنا اكهارد ، بأن غودفري سبق لسه وعقد معها معاهدة تجارية : كما فعل مع دمشق ايضاً . وبناء على ذلك ، فقد

١١ - فيما يتعلق بسياسة الفرنجة عند هذا الوقت ، انظر الفصلين العاشر والثاني عشر من المصدر نفسه ، ج ١ .

عمد الأفضل ، عقب فشل الحملات السابقة ، إلى فتح باب المفاوضات مع طغتكين صاحب دمشق من أجل القيام بعمليات مشتركة عام ١١٠٥ . كما يبدو ان فشل هذه المحاولة قد أقنعه بعدم جدوى السير في سياسة هجومية تجاه الفرنجة ، فاكفى منذ هذا الحين فصاعداً بتأمين الدفاع عن عسقلان برآ وبجراً ، باستثناء الغارات التي شنتها عساكر الحاميات بين الحين والحين . وحتى لأجل هذا الغرض ، فإنه كانت للتحالف مع دمشق أكثر من مجرد قيمة دبلوماسية . ولذا فقد أذعن الأفضل لاحتلال صور على يد طغتكين ، وذلك عقب نجاحه بمشقة في عسقلان سنة ١١١١ وعندما راح أحد الولاة المتمردين يفوض على تسليمها إلى بالدوين (بغدوين) . مثلما أذعن مرة ثانية لإثر الغارة الصليبية على مصر وهي الغارة التي توفي بغدوين خلالها (شهر نيسان ١١١٨) ، وذلك عندما اشترك الجيشان المصري والدمشقي في تظاهرة عسكرية بالحرب خارج عسقلان . غير انه لا هذه العمليات المتقطعة ولا المحاولة الأكثر اندفاعاً من جانب حكومة مصر لتنظيم حملة مشتركة ضد الفرنجة بعد اغتيال الأفضل في سنة ١١٢١ ، لا هذه ولا تلك قد انطوت على أي تحطيم للحواجز الحائلة دون قيام التعاون . وكان على الهجوم المضاد للحملات الصليبية ان ينتظر ويعتمد على الخدمة التي يسديها إليه نموّ وحدة نفسية او روحية لها من القوة ما يكفي للتغلب على عقبات الإقليمية والمصلحة الفردية ، وللإبلال من الآثار المتبقية عن الانشقاق الديني .

الفصل الثاني

تَارِيخ دِمَشْق

لقد لاحظ المؤرخون عموماً غياب السجلات العربية المعاصرة للحملة الصليبية الأولى ونتيجتها المباشرة ، مع ان هناك إقراراً من جانبهم بأن ابن الأثير والمصنفين العرب اللاحقين لا بدّ وأنهم قد استخدموا في أعمالهم مواداً معاصرة . غير انه تبين لبضع سنوات خلت ان إحدى المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة بودليان (Hunt. 125) تحتوي على مؤلف ابن القلانسي الذي افترض ضياعه : « ذيل تاريخ دمشق » ، وهو أثر يقتبس منه كتاب متأخرون مراراً ، لكنه قد جرى اعتباره كتاباً يتناول فترة لاحقة للحملة الصليبية الثانية وأظهرت دراسة المخطوطة بأن ما يزيد على ثلثي الكتاب مكرّس لتاريخ السنوات الستين الأولى من الحروب الصليبية . فقام المستشرق الراحل ه.ف. امدروز - إدراكاً منه لأهميته ، بتحرير النص ونشره في سنة ١٩٠٨ ، مع تلخيص لمحتوياته ، وإضافة لحواشيه ، ومنتخبات مستخرجة من مصادر أخرى غير

* انظر المنتخبات التي استخرجها وترجمها كاتب هذه المقالات بالاستناد إلى كتاب المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق

Gibb, *The Damascus Chronicle of the Crusades*, (Luzac: London, 1932).

منشورة . ويبدو . بسبب انعدام الترجمة ، ان استعادة هذا التاريخ مرت دون الثقات من جانب المؤرخين الأوروبيين ، فالمنتخبات التي يضمها المجلد الحالي تولف المحاولة الأولى لوضع الكتاب في متناول الباحثين الغربيين .

يتعذر استخلاص أي شيء عن مؤلف « ذيل تاريخ دمشق » من الأثر نفسه . غير انه لحسن الحظ يمكن العثور على نبذات قصيرة ولكنها كافية عن حياته في كل من معجم السيرة الذي صنفه معاصره الأصغر سنّاً ابن عساكر وأورد فيه تراجم أعيان دمشق (والمقصود هنا : تاريخ دمشق لابن عساكر الدمشقي) وفي الصفحات التي خطتها العديد من المؤرخين اللاحقين ، بفضل عادتهم الورعة في اختتام حوليات كل سنة بترجمات موجزة للأعيان المتوفين خلال مجراها .

هو حمزة بن أسد ، يُعرف به أي يعلى ، وقد انتهى إلى أسرة دمشقية عريقة ومحترمة ، كانت تفاخر بنسبها المتحدّر من قبيلة تميم العربية وحملت كنية « القلانسي » (من القلنسوة) . تلقى ، على غرار معظم أبناء الطبقة العليا ، ثقافة واسعة في الأدب والفقه وعلوم الدين والشريعة ، ودخل في سلك الخدمة العامة كاتباً في ديوان الرسائل ، ثم ارتفع على ما يبدو إلى منصب عميد في الديوان . وبالإضافة إلى ذلك ، تولّى أعلى منصب مدني في دمشق (رئاسة المدينة فكان رئيساً للمدينة أو محافظاً ، علماً بأن الوظائف الدقيقة المنوطة بهذا المنصب ليست واضحة تماماً في نظرنا . كذلك تولّى المنصب نفسه ابن أخيه في سنوات لاحقة (عام ٥٤٨ هـ . وفي النص العربي ص ٣٢٥) . توفي ابن القلانسي يوم الجمعة في ٧ ربيع الأول ٥٥٥ هـ . (١٨ آذار ، ١١٦٠ م) ، وكان عمره يناهز السبعين ، بينما توفي أخوه الأكبر محمد قبله في كانون الثاني سنة ١١٤٥ وله من العمر أربعة وثمانون عاماً (هذه الأعمار هي بالطبع محسوبة وفقاً للسنة القمرية) لذا فإنه كان قد بلغ سنّاً ناضجة عندما نزلت الحملة الصليبية الأولى على بلاد

الشام . ومع انه لا تبدو عليه المشاركة بأي دور في القتال الفعلي ، فإن كتابه « ذيل تاريخ دمشق » يستأثر باهتمام استثنائي لكونه يقدم رواية معاصرة لمصائر الصليبيين ، بقدر ما وصلت أخبارهم إلى مسامع دمشق ، منذ بداية الحملات الصليبية حتى سنة وفاته .

ويبدو ان « تاريخ دمشق » هو الأثر الأدبي الوحيد الذي قام بتأليفه ابن القلانسي ، إلى جانب أشعاره التي يستشهد بكثير منها . كما يدلّ تأليف الكتاب وعنوانه - ذيل أو مُدَيِّل تاريخ دمشق - على ان المقصود به هو ان يكون تممة لتاريخ أسبق ، أي لكتاب المؤرخ الشهير هلال بن المحسن الصابي . بحيث يبدأ من النقطة التي انقطع عندها كتاب الصابي بوفاة مؤلفه عام ٤٤٨ للهجرة (١٠٥٦ م) . ومن جهة ثانية ، فقد جاء تاريخ هلال الصابي جامعاً في نطاقه ، بينما تركز تممة ابن القلانسي (بالإضافة إلى المنتخبات التي استخرجها من عمل أسبق وقدم بها للذيل) على مدينة دمشق ولا تتناول الأحداث الجارية في مناطق أخرى إلا بصورة عرضية .

وعلى الأرجح ، فإن التسهيلات التي قدّمتها له صلاته الرسمية هي التي قادت إلى هذا العمل ، علماً بأن الفترة الكاملة التي يتناولها تغطيتها حياة أبيه وحياته هو . فالمعلومات التي يعطيها مستقاة من أخبار شفوية ومكتوبة ، ومأخوذة أحياناً عن ألسنة المشتركين الفعليين . وربما يحذر بالملاحظة انه قلما يستشهد بالوثائق . رغم ان العديد من رواياته يعطي دون شك زبدة المواد الوثائقية . لقد جرى تدوين معظمها على ما يبدو ساعة تلقّيها ثم أخضعت للتنقيح فيما بعد ، كما يتضح ذلك من إشارات عديدة في النص ، مثل الاستعمال المتكرر لصيغة المضارع ولا سيما في الأقسام الأخيرة . ثمّة حسنة جلية بنطوي عليها كتابه بالتالي وهي الدقة في تسلسله الزمني للأحداث . وفيما عسدا ذلك ، فهو نفسه يشرح طريقته في التصنيف في ذيل يحمل تاريخ عام ٥٤٠ هجري (صفحة ٢٨٣ من النص العربي) ، بقوله :

« لقد أتممت رواية الأحداث المبيّنة في هذا التاريخ ، وقمت بترتيبها في تسلسل واحترزت ضد الخطأ والتسرّع في الحكم والنفقات الطائشة في المواد التي دونتها عن ألسنة اشخاص موثوقين ، ونقلتها بعد تكبيد النفس مشقة القيام بتحرّيات واسعة لكي تتحقّق صحتها ، نزولاً حتى هذه السنة المباركة ٥٤٠ . ومنذ سنة ٥٣٥ وحتى هذا التاريخ كنت منهماكاً بمسائل شرّدت ذهني عن القيام بإجراء تحقيقات شاملة في تلك الأحداث الراهنة التي تطلّب تدوينها في هذا الكتاب ، وعن البحث عن الحقيقة المتصلة بها وكافة الظروف الملازمة لها . وعليه ، فقد تركت فراغاً بعد حوادث كل سنة ، لكي أضيف فيه تلك الروايات والأحداث التي ثبتت صحتها .

وتبدّى أهمية « تاريخ دمشق » بالنسبة لتاريخ الحملات الصليبية الباكورة في جلاء من حقيقة كونه قد شكّل مصدراً من المصادر الأولية لكافة المؤرخين العرب اللاحقين . فاستشهد به على نحو واسع كلٌّ من سبط ابن الجوزي وابن الأثير في تواريخهما العامة ، وأبو شامة في كتاب سيرته عن نور الدين ، إلى جانب العديد من الكتاب المتأخرين . وبما أن أعمال جميع هؤلاء المصنّفين تُرجمت واستخدمت من قبل المؤرخين المحدثين للحروب الصليبية ، فهناك القليل من محتوياتها ممّا هو جديد كل الجدة . ويقدم هذا الكتاب في حدّ ذاته أيضاً نظرةً من طرف واحد للحملات الصليبية ، لأن اهتمام الكاتب تركّز على دمشق ، ولذا فهو يكرّس اهتماماً للمملكة القدس المجاورة أكثر بكثير من اهتمامه بالصراع الدائر بين الدويلات الصليبية الشمالية وبين إمارات حلب والموصل . فمن الضروري لهذه الناحية من الحروب الصليبية أن يصار إلى إلحاق تاريخه بـ « تاريخ حلب » لكامل الدين^(١) ، الذي يستشهد حرفياً

١ - أن الترجمات الفرنسية لذلك القسم من هذا الكتاب الذي يتناول الحملات الصليبية الأولى يمكن العثور عليها فيما يلي :

(a) **Receuil**, Hist. Or., III

(b) de Sacy in Röhrichts **Beiträge zur Geschichte der Kreuzzüge**, Vol. I (1874) ;

(c) Defrémery in **Mélanges d'histoire Orientale**, Paris, 1854

بابن القلانسي في بعض الأحيان ، لكنه استند في روايته إلى مصادر محلية مستقلة (٢).

ومع ذلك فإن العمل الأصلي لابن القلانسي ما زال يحوي الكثير من المادة التي لم يستعن بها المصنفون المتأخرون ، كما ينطوي على العديد من المزايا الذاتية ، مما سيجعله مصدراً لا غنى عنه لجميع دارسي الحملات الصليبية الباكرة في المستقبل . فهو يجعل من الممكن ، مثلاً ، ان يجري للمرة الأولى تتبع للتصلب الذي اعتري الشعور الإسلامي ضد الصليبيين ، والمراحل التي تم بها قهر التحاسد المتبادل لدى أمراء المسلمين بواسطة الانفعال المتصاعد بين الشعب ، هذا الانفعال الذي وجد تعبيره في ظلّ حكم نور الدين وبلغ ذروته في الانتقام العظيم تحت راية صلاح الدين . ففي كتابات الجليل المعاصر لصلاح الدين ، وحتى لدى واحد مثل اسامة بن منقذ ، الذي عاش خلال الفترة الأسبق لكتبه دون « مذكراته » في مرحلة متأخرة من حياته ، نجد هذا التطور معيماً . وهذه الحقيقة هي التي تبرّر الإدراج في هذه المختارات لما يبدو بطريقة أخرى الحيّز المفرط الذي يجري تخصيصه لسجلّ التاريخ الداخلي لمدينة دمشق وعلاقاتها مع الدول الإسلامية الأخرى . وعلاوة على ذلك ، فهناك أحداث كثيرة بقدّم « تاريخ دمشق » بالنسبة لها مادة جديدة . وسوف يمكن العثور على أمثلة بارزة في الروايات الحية لحصار صور خلال شتاء (١١١١-١١١٢) (انظر الفصل الخامس) لنشاطات « الحشاشين » الباكرة (ص ١٨٧ وما بعدها) . فالعلاقات الوثيقة التي ما زالت قائمة ، كما يبيّن ابن القلانسي ، بين دمشق والبلاط الفاطمي في مصر أتاحت له أيضاً إعطاء روايات كاملة

٢ - ان الثقة المعاصرة لكمال الدين بالنسبة لتاريخ الحملات الصليبية الباكرة كانت في الأرجح كتاب حمدان بن عبد الرحيم الأثاري (توفي ١١٥٩ م) : « سيرة الأفرنج الخارجين إلى بلاد الإسلام » .

وقد ذكره ابن ميسر . انظر :

Annales d'Egypte, ed. H. Massé (Cairo, 1919), p. 70, 6 - 7.

تقريباً للنشاطات المصرية المتقطعة ضد الصليبيين ، وفضلاً عن ذلك ، فإن الرواة المتأخرين عادة ما اختصروا رواياته إلى درجة كبيرة ، فحذفوا بعملهم هذا العديد من التفاصيل التي تحظى بالقيمة لدى المؤرخ الحديث . كانت التفاصيل التي حُذفت بتلك الطريقة هي ذكر اليوم المحدد من الأسبوع ، وهو وهو ما يحرص ابن القلانسي عموماً على إدراجه إلى جانب تواريخه ، وله أهمية خاصة في تعيين التسلسل الزمني الدقيق إذ يزودنا بضابطٍ للتحقق من أخطاء الناسخين .

ومن الجهة الثانية ، فإن « تاريخ دمشق » ينطوي على صعوبات بمحدّ ذاته ، لا سيما بالنسبة لكل من اللغة والأسلوب . وفي النهج الدبلوماسي الصحيح غالباً ما يورث ابن القلانسي معانيه خلف مجموعة من الألفاظ والعبارات الغامضة ، مما يجعل من الصعب استخلاص المغزى الدقيق لكلماته . تتعرّض هذه الصعوبة بالنسبة للدارس الحديث عن طريق الغرائب في ذخيرته اللغوية . فاستعمالات الكثير من الألفاظ هي على ما يبدو مميزة للأسلوب الشامي في زمانه ، إذ بينما تُلقَى « مذكرات » أسامة بن منقذ ، وهو المؤلف السوري الوحيد غيره عن هذه الفترة والذي ما زال عمله موجوداً فعلاً ، شيئاً من الضوء عليهما بين الحين والحسين ، ففي معظم الحالات لا يمكن استخلاص معناها إلا بطريق استنتاجه من القرينة . ثمة عدد من هذه الألفاظ والعبارات العربية يؤتى على ذكره في الحواشي ، على أمل بأن يتمكن آخرون من تصحيح التفسير الوارد في النصّ فيما لو تبين أنه مغلوط . وفضلاً عن ذلك ، تنطوي إعادة بناء نص استناداً إلى مخطوطة مفردة ، كما هو معروف جيداً ، على أخطار في جميع اللغات ، وفي اللغة العربية أكثر من أية لغة أخرى . هناك قراءات عديدة محرّفة على ما يبدو بجلاء ، والمتخبرات المستخرجة من « التاريخ » في الآثار اللاحقة لا تقدّم مساعدة ذات بال في تصحيحها ، لأن معظم الفقرات المعنية قد حذفها المصنّفون . فلو ظهرت تصرّفات غسير

ملائمة بالنصّ ، لما تستلّى الدفاع عنها إلا بالقول إنّ النصّ يسون مثل هذه التنقيحات إمّا انه لا ينطوي على أي معنى أو انه انطوى على معنى خاطيء بصورة جلية ، وحيثما أمكن إخضاع التنقيحات لامتحان في مقارنتها بالمنتخبات التي يوردها الكتاب المتأخرون ، فقد تبيّن على العموم ان لها ما يبررها .

وبما ان هذه الصيغة يُقصد بها في المقام الأول ان تكون كتاباً للدارسين ، فقد جعل المترجم هدفه ان ينقل النصّ العربي بحرفيته على قدر الإمكان ، دون ان يضيف إلى كلمات المؤلّف وترتيبه أو ينقص منها . وللسبب نفسه ، فقد جرى الاقتصار على الحدّ الأدنى من تعليق الحواشي ، ولم تجر محاولة للربط بين روايات القلائسي وروايات التواريخ العربيّة الأخرى أو المصادر الغربيّة . فالذين يألّفون أكثر من غيرهم العُرات التي تكتنف طريق ترجمة أولى لنصّ عربي سوف يكونون على الأرجح هم الأكثر استعداداً للنظر إلى نواقصها بعين التساهل ، وأيّة تصحيحات أو ملاحظات قد يفضّلون بنقلها وإبلاغها سوف تلقى الترحيب .

بلاد الشام على زمن الحملة الصليبيّة الأولى :

ثمّة حقيقة يتقبّلها جميع المؤرخين المحدثين وهي ان الفضل في نجاح الحملة الصليبيّة الأولى يرجع بمقدار كبير إلى ضعف المعارضة التي واجهتها . فالتعقيد الذي اكتنف الوضع السياسي في بلاد الشام عند نهاية القرن الحادي عشر وخلال العقود الأولى من القرن الثاني عشر ، وهو تعقيد كاد يصل إلى شفير الفوضى تقريباً ، يؤلّف عنصراً ذا أهميّة رئيسيّة في تاريخ الحملات الصليبيّة . وهو لم يجعل مهمة الغزاة أقلّ هولاً بكثير مما كان مقدراً لها قبل بضعة سنوات سابقاً فحسب ، بل اسهم ايضاً ، إلى حدّ بعيد في إذعان الامراء الشاميين لقيام الدويلات الصليبيّة ، بما ان الانقسامات السياسيّة الناتجة عن ذلك سارت

على العموم في خطوط تقليدية . إن التقدير التام لهذه الظروف يضع الدارس الحديث أمام صعوبات بالطبع ، لا سيما متى كان هذا الدارس غير ملم بخلفية التاريخ الشرقي التي عرّضت إزاءها دراما الحروب الصليبية . ويؤلف التحليل المفصل للأوضاع في بلاد الشام عند هذه الفترة تمهيداً ضرورياً لدراسة المصادر العربية .

كانت هناك حيث ست قوى مميزة ومشتبكة في نزاع الواحدة منها مع الأخرى في بلاد الشام . هذه القوى هي التالية : ١ - الامبراطورية الفاطمية ، ٢ - القبائل العربية المحلية والأمراء العرب المحليون ، ٣ - الأمراء التركمان السلاجقة ، ٤ - الأمراء أو القادة العسكريون الأتراك ، ٥ - القبائل التركمانية المستقلة أو غير السلجوقية ، و ٦ - الهيئة العامة من السكان . وسوف يكون في الأرجح أكثر عوناً أن يجري تناول كل من هذه العناصر على حدة ، ثم اتباع تسلسل زمني صارم للأحداث .

(١) - كانت الخلافة الفاطمية ، التي أقامت نفسها في شمال أفريقيا وغربها عام ٩٠٩ ثم نقلت مقرها إلى مصر عام ٩٧٢ ، تؤاخذ تحدياً متعمداً للرئاسة الدينية في العالم الإسلامي والتي ادّعاها الخلفاء العباسيون في بغداد . ولكي يؤكد الفاطميون على ادّعائهم في بغداد بالذات ، لزمهم ان يحتفظوا بسورية ، فعمدوا منذ استيلائهم على مصر إلى جعل هذا الأمر بمثابة هدفهم الرئيسي ، وحاولوا تحقيقه بمساعدة قوات البربر من اقليمهم الافريقية أولاً ، وفي وقت لاحق بواسطة جيوش الأتراك المماليك . غير أنهم واجهوا مقاومة مريرة في بلاد الشام ، لأسباب لا تعود إلى العقيدة الدينية (٢) بقدر عودتها إلى طموح

٣ - كانت عقيدة الفاطميين الشيعة الباطنية للاستهلاك الخاص . فالممارسة الرسمية لدى أمير الطورينهم لم تختلف كثيراً عن ممارسة السنيين الحنيفين ، وفي المسائل الدينية كانوا كقاعدة شديدي التساهل . إن النقطة الرئيسية المتنازع حولها كانت سياسية ، أي أنها تناولت حق بيت علي في الخلافة ضد حق آل العباس .

الامراء العرب الشاميين في المحافظة على استقلالهم . وبين عامي ١٠٣٨ و ١٠٥٨ أصبح سلطانهم نافذ المفعول اخيراً في كافة انحاء بلاد الشام (ما عدا انطاكية التي تولّاها الروم) وجرى الاعتراف به ايضاً في غربي ما بين النهرين . حتى انه في السنة الثانية (١٠٥٨) حظي سلطانهم بالاعتراف من جانب بغداد ، وذلك بفضل النجاح المؤقت الذي أحرزه تابع متمرّد من اتباع الحكومة العباسية . لكن نفوذهم منذ هذه اللحظة أخذ ينهار باستمرار ، ولا سيما عقب أزمة اقتصادية وعسكرية طويلة الأمد في مصر (١٠٦٢-١٠٧٣) إذ جرّدتهم هذه الأزمة من وسائل الحفاظ على سلطتهم . فضاعت حلب أخيراً عام ١٠٦٠ ، وسقطت كل من طرابلس وصور بأيدي حكام عيليين ، ولم يتمكن حكام دمشق من الحفاظ على انفسهم بوجه اللانضباط العسكري ، كما أدّى ظهور الجيوش التركمانية في بلاد الشام سنة ١٠٧٠ ليس فقط إلى ضياع دمشق نهائياً ، بل وإلى ضياع القسم الأكبر من فلسطين (ومن جملتها القدس) ايضاً .

وتسبّب سوء حكم القائد التركماني الأول في إحداث تحوّل عام مفاجيء في الشعور الشعبي لصالح الفاطميين ، لكن الفرصة السانحة لم يتبناها عميل عسكري فعال . جرى شنّ حملات متقطعة ضد الداخل ، لكنها لم تسفر عن أية نتائج . ومن جهة ثانية ، كان المصريون لا يزالون أقوياء في البحر ، لسدّا نجحوا في استرجاع المسدّن الساحليّة (١٠٨٩) حتى جبيل شمالاً ، وفي الاحتفاظ بها إلى حين مقدم الصليبيين . وسوف نرى في صفحات ابن القلانسي بأن نصيب الدولة الفاطمية في العمليات الحربية داخل بلاد الشام قد انحصر برمتّه تقريباً ، بالإضافة إلى إعادة الاستيلاء على القدس عام ١٠٩٨ وبضع حملات إلى جنوبي فلسطين خلال حكم الوزير الأرميني العظيم ، الأفضل ، في النشاطات البحرية . وتلهّت الجيوش الفاطمية في السنوات اللاحقة بمنازعات داخلية مريرة ، مثلما أنها شكلت خطراً على حكامها أشدّ منه على أعدائها .

إلا انه من الخطأ القادح ان نفترض بأن نفوذ الفاطميين في بلاد الشام تبدد
كأياً بواسطة محنتهم وضعفهم المتزايد . فالروايات التي بين أيدينا تبين
بوضوح انهم كانوا حينذاك يتمتعون ببنية قوية في كل من المدن الرئيسية
والمناطق الواقعة خارجها . وانه حتى الامراء السلاجقة وخلفائهم كانوا قد
وجدوا أن من النافع اكتساب عظمهم . فلم يقع الصراع الحاسم بين الفاطميين
والامراء المسلمين في بلاد الشام كما يبدو إلا على زمن نور الدين وبطريق
من جانبه .

(٢) — صدرت المعارضة الرئيسية للفاطميين في محاولاتهم الرامية إلى إقامة
حكمهم في بلاد الشام عن شيوخ القبائل العربية شبه البدوية ، إذ أوجد هؤلاء
الشيوخ لأنفسهم دويلات صغيرة في أنحاء مختلفة من البلاد أو استولوا على تلك
الأنحاء . فكانت شرقي الاردن والأطراف الغربية لبادية الشام خاضعة لسلطة
قبيلة بني طي ، وهي القبيلة التي كانت شوكة دائمة في جنبهم بفلسطين وبقيت
تلعب دوراً صغيراً في تاريخ الحروب الصليبية . بينما حظيت قبائل ما بين
النهرين بأهمية سياسية أكبر ، ولا سيما التحالفات التي قامت بين قبيلتي عقيل
وكلاب . فقد نجح بنو كلاب أخيراً ، تحت زعامة آل مرداس وبعد نصف
قرن من الصراع في شمالي سورية ، في الاستيلاء على حلب عام ١٠٦٠ ، لكي
يخسروها عام ١٠٧٩ لصالح منافسهم العقيليين ، الذين كانوا في ذلك الوقت
يؤيدون دعوى السلاجقة . غير ان التوسع الحافظ للممتلكات العقيلية من
حلب إلى الموصل جرّهم بدوره إلى نزاع مع الأمير السلجوقي على سورية .
وتمّ في النتيجة إهلاك القسم الأعظم منهم وجرى طردهم من حلب
وممتلكاتهم في ما بين النهرين ، لكن فرعين من أصولهم نجحوا في الحفاظ على
مواقعهم بقلعة جعّبر وعسك أواسط نهر الفرات حتى عهد آل زنكي
ونور الدين .

بيد ان رؤساء الجماعات العشائرية الكبيرة لم يكونوا وحدهم من الناجحين في خلق إمارات لمنفعتهم داخل الأراضي الشامية . فقد كان العديد من المدن والقلاع الهامة على زمن الحملة الصليبية الأولى بأيدي الحكام العرب المحليين . واستطاع هؤلاء أن يحافظوا على استقلالهم بفضل الديبلوماسية اللينة والشقاكات بين جيرانهم الأشد قوة منهم . ولدى انهيار الحكومة الفاطمية عام ١٠٧٠ استقل قاضي صور ، ابن أبي عقيل ، واحتفظ بسيطرته على المدينة إلى أن استرجعها المصريون عام ١٠٨٩ . أما قاضي طرابلس ، حسن بن عمار ، الذي ثار في السنة نفسها ، فقد كان أوفر حظاً وبقيت طرابلس بأيدي أعضاء متعاقبين من الأسرة ذاتها ، حتى استيلاء الصليبيين عليها (٤) حتى أن واحداً من بني عمار قام سنة ١٠٨٠ بتوسيع حكمه إلى جبلة على حساب الروم . ومما تجدر ملاحظته ان السلطان الروحي للخليفة الفاطمي لم يلقَ الرفض لا في صور ولا طرابلس ، مع ان حاكمي هاتين المدينتين قد سعيًا للحصول على مساعدة الغزاة التركمان ضد المحاولات الفاطمية الرامية إلى معاودة الاستيلاء عسلي مدينتهم ، وزعم ابن عمار في طرابلس انه يمتلك براءة تنصيب نظامية من السلطان السلجوقي في بغداد .

وثمة إمارة عربية أكثر لفتاً للنظر تأسست في شيزر عام ١٠٨١ على يد شخص اسمه علي بن منقذ ، وهو الذي اشترى البلدة وحصنها في تلك السنة من مطرانها المسيحي . فالسياسة المتساهلة التي انتهجها نحو رعاياه المسيحيين عادت على أسرته بالفائدة الجمة في أوقات الحاجة ، وغالباً ما يظهر أمراء شيزر في حوليات شمالي سورية حتى اضمحلت الأسرة بكاملها في حطام القلعة خلال الهزات الأرضية عام ١١٥٧ . وكان أسامة بن منقذ ، مؤلف

٤ - انظر حول تاريخ هذه الأسرة : « Inscription d'un Prince de Tripoli de la dynastie des Banû Ammâr », by G. Wiet, in *Mémorial Henri Basset* (Paris, 1928), 279 - 284

تلك اليوميات (٥) المقعمة بالحويّة والتي تسلّط ذلك الفيض من الضوء على التاريخ الاجتماعي للفترة الصليبيّة ، هو أحد أبناء أحفاد علي .

وهناك مغامر يقلّ عنه كثيراً في الصيت الحسن ، هو ختلف بسن ملاعب ، الذي نجح في اقتطاع إمارة مستقلة . لقد ولّاه أمير حلب العقيلي على حمص أصلاً في سنة ١٠٨٢ ، لكي يشكّل فاصلاً بينه وبين الأمير السلجوقي بدمشق ، لكنه طُرد من هناك عام ١٠٩١ ، ومن أقاميا التي كان قد استولى عليها بنفسه ، في العام ١٠٩١ . وبعد بضع سنوات من السجن فسي اصفهان ، قعد في مصر وأرجعه الخليفة الفاطمي في العام ١٠٩٦ او ١٠٩٧ إلى حكم أقاميا التي قام سكانها ، في ثورتهم ضدّ السلاجقة ، بإرسال وفده منهم للمطالبة بحاكم . أما مصير ختلف لاحقاً فسوف يكون العثور عليه في المنتخبات المترجمة عن ابن القلانسي .

(٣) — شهد القرن الحادي عشر هجرة واسعة النطاق لقبائل التركمان ، المموجة عامة بـ « الغزّ » ، من حدود السهوب الآسيويّة عبر غربي آسيا ، فالسلاجقة كانوا رؤساء لواءة من هذه القبائل ، ونجحوا في بناء قوة عسكرية كبرى ، لكي يسيطروا بها سلطانهم على التوالي في كل من خراسان وفارس والعراق وارمينيا والاناصول . وباعتبارهم من السنيّين الحنفيّين المتشدّدين فقد نصّبوا انفسهم كدافعين عن الخلافة العباسيّة في بغداد ، وجرى إعلانهم بالتالي كأعداء للخلفاء الفاطميين في القاهرة . ظهرت أولى عصابات الغزّ في سورية قبل عام ١٠٧٠ بزمان قصير . ففي تلك السنة استولى أحد زعمائهم ، آتسيّز ، على فلسطين لصالح السلطان السلجوقي ألب ارسلان الذي جعل أمير حلب العقيلي

٥ — انظر الكتاب الذي ترجمه نيليب لك. حتى ونشره عام ١٩٢٩ في مطبعة جامعة كولومبيا :

An Arab-Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades.

تابعاً له في العام نفسه. وفي ١٠٧٥ استولى اتسيز على دمشق من قائد حامية البربر ، لكنه سُني بالهزيمة في السنة التالية خلال هجوم شنه على مواقع مصر الأمامية -- ففرح الدمشقيون فرحاً عظيماً لأنهم كانوا يمتنون طغيانه .

ربما كان فشل اتسيز مسؤولاً إلى حدّ جزئي عن القرار الذي اتخذه ملكشاه ، خليفة الب أرسلان ، بإيفاد اخيه تُتش إلى سورية على رأس جيش سلجوقي عام ١٠٧٧ ، وتحويله في الوقت نفسه بامتلاك « كل ما استطاع الاستيلاء عليه في سورية » . فلم يواجه تُتش صعوبة ذات بال في الاستيلاء على دمشق واسترجاع فلسطين من الفاطميين ، لكن حلب قاومت هجماته . والحقّ ان ملكشاه تدخل مرتين شخصياً لكي يحمي حلب ، على ما يبدو تقريباً ، ضدّ اخيه . ففي المناسبة الأولى حاول الامير العقيلي ان يعقد تحالفاً مع الفاطميين ضدّ تُتش . ممّا حدا بملكشاه لأن يحتلّ المدينة عند نهاية ١٠٨٢ ، لكنّه أرجعها إلى العقيلي كتأجيل له . وعقب انقضاء عامين ، قام السلطان السلجوقي فسي الاناضول ، سليمان بن قتلмыш ، باجتياح شمالي سورية . فاستعاد حلب ، وقتل العقيلي في وقت لاحق خلال المعركة ، لكنّه اخفق في الاستيلاء على حلب . ثم نشب عند ذاك نزاع بين سليمان وتتش (١٠٨٦) ، فقُتل سليمان خلاله واستولى تُتش على حلب . وهنا تدخل ملكشاه مرّة أخرى ، فاحتلّ حلب وانطاكية والرها ، وسلمها كإقطاعيات إلى القادة الاتراك ، لكي تأتي حلب من نصيب آق سُنقر ، وهو ابو زنكي .

خلال السنوات القليلة التالية عمد هؤلاء القادة إلى موازنة جهود تُتش في إخلاص لتوسيع الممتلكات السلجوقية في بلاد الشام والإطاحة بسلطة العقيليين في ما بين النهرين وديار بكر . وفي تلك الاثناء توفي ملكشاه (تشرين الثاني ١٠٩٢) وخلفه في السلطنة ابنه بركياروق . لكن تُتش كان يطمع لنفسه في اللقب السلطاني ، فزحف على خاسان . غير ان محاولته الأولى أحبطها قرار آق - سُنقر في حلب والعديد من قاداته بتأييد بركياروق ، فاضطرّ على

الرجوع إلى بلاد الشام لكي يعالج أمرهم . وفي شهر أيار سنة ١٠٩٤ هـ هزم القوات المجتمعة لكل من حلب والرها والموصل . وأعدم آق—سُنُقَر وحلفاءه ثم استولى على مدنهم وشن حملة ثانية ضد خراسان . ولقد جرى إعلانه كسلطان رسمياً لبضع شهور . حتى استأنف بركياروق الهجوم وهزم قواته يوم ٢٦ شباط ١٠٩٥ بالقرب من الرّي (طهران) . أما تُنُش نفسه فقد قُضي عليه في ميدان القتال . ويقال ان ذلك تمّ على أيدي قوّات آق—سُنُقَر . وكانت هذه المعركة هي التي قرّرت مصير الحملة الصليبية الأولى . فلو ان الصليبيين قوبلوا بالموارد المشتركة للمملكة الواحدة التي أقامها تُنُش ، لكان من المؤكّد ان التاريخ ستُعاد كتابته . وكما كانت الحال ، فإن ممتلكاته السورّيّة التي نالها بصعوبة قد تحطّمت من جديد على مديح التناحر بين ولديه : رضوان ودقاق ، والتحاسد والانانيّة لدى قادته السابقين .

٤ — كانت الإدارة البيروقراطية القديمة للخلافة والدويلات التي قامت على انقاضها قد افسحت المجال تدريجياً أمام قيام نظام عسكري للحكم ، وذلك في مجرى القرن العاشر . فالحكام على المدن والأقاليم قد جرى اختيارهم من بين القادة العسكريين أو الامراء ، الذين كانوا في معظم الأحيان من العبيد الاتراك السابقين . ولم يتمتع هؤلاء الحكام بسيطرة غير مقيّدة تقريباً على إقطاعاتهم فحسب ، بل أقاموا لأنفسهم جيوشاً دائمة تضمّ عبيدهم الاتراك . وتعزّز الإغراء بالتوكيد على استقلالهم من خلال الطريقة التعسفيّة التي اعتاد اسيادهم بها على إلغاء اوامرهم وتجريدتهم من ممتلكاتهم ، وحتى القيام باعدامهم لمجرّد الشبهة . فمجيء حاكم ضعيف لتولّي الحكم أو نشوب خلاف بصدد الولاية كان بالتالي إيذاناً بتقطيع مملكة إلى عدد من الإمارات الصغيرة ، حيث ينهك حكامها — الذين كانوا مجرد «بارونات لصوص» — بالافتتال المتواصل واحدهم مع الآخر حتى يستتب النظام بحدّ سيف الأقوى بينهم . ولم يكن نادراً انتقال أحد الأمراء بصحبة قواته الخاصّة إلى إحدى المناطق النائيّة والاستيلاء عليها وامتلاكها بالقوّة ، والبقاء فيها إلى ان يُطاح به أو يُمنح براءة إقطاع رسمية .

ولم يُدخل السلاجقة أي تغيير مادي على هذا النظام ، لوجاز لنا إطلاق مثل هذه اللفظة عليه . فقد تألفت تنظيمهم الامبراطوري من تجمّع مفكك من الممالك تحت سيطرة أعضاء مختلفين من البيت السلجوقي (« ملوك ») ، يمنح كل واحد منهم ولاءه لرأس الأسره أو « السلجوق الأكبر » في فارس وبغداد وكان هذا يحمل لقب « السلطان » . حتّى ان الحكام الاتراك المرؤوسين كانوا مطالبين بالإبقاء على جيوش دائمة كشرط للاحتفاظ بامتيازاتهم . لقد عمّل هذا التنظيم بنجاح كافٍ في ظل السلاطين الثلاثة الأوائل ، لكن الضعف القديم أخذ يبرز من جديد منذ وفاة ملكشاه عام ١٠٩٢ وأدت أطماع القادة والامراء المتناحرة إلى قيام حالة من الاقتتال الدائم في أنحاء مختلفة من الامبراطورية (وفي سورية أكثر من أي مكان آخر) ورأينا فيما سبق ان تُشش كان قد واجه ثورة من جانب الحكام في شمالي سورية ، ومع انه نجح في إخمادها لساعتها ، فقد عادت روح الثورة إلى الظهور لدى وفاته . كان أقوى الحكّام عقب إعدام آق - سُنقر هو ياغي - سيان ، الذي جرى تعيينه على الطاكية حوالي ١٠٩٠ وامتدت مملكاته في زمن لاحق (على يد تُشش في الظاهر) الى منبج وتل بشير . ومنذ اللحظة التي جرى فيها احتلال حلب على يد رضوان ابن تُشش ، انهمك ياغي - سيان في اشتباكات مكشوفة معه ، وسرعان ما عثرت مبادرته هذه على المقلّدين لها .

ثمّة عامل آخر أسهم في نشوء الإمارات التركيّة المستقلّة ، ألا وهو الاتابكة كؤسسة مختصّة بالسلاجقة . لقد رأينا بانه في النظرية السلجوقية للإدارة يوجد لكل إقليم من يحكمه من أعضاء الأسرة الحاكمة . ثم جرى إلحاق قائد تركي بكل واحد من هؤلاء الأمراء ، كان يحمل لقب « اتابك » ، أو « الأب » و « المرشد » ، ويحتسّل مسؤولية تربيته العسكرية وحكم اقاليمهم . وبما ان الاتابك كان على علاقة أبويّة بـ « الملك » السلجوقي ، فقد تمتّع بسلطة تفوق سلطة القادة العاديين إلى حدّ كبير . فمن البادي ايضاً انه كان مسن

عادة الاتابك التزوج من أمّ عهده وتزويج إحدى بناته منه . وتمشيّاً مع العادة المألوفة قام تُشش بتعيين الأمير جناح الدولة الحسين بمثابة اتابك لابنه رضوان والأمير ظهير الدين طغتكين بمثابة اتابك لابنه دقاق . فعقب هزيمة تُشش وموته ، وعندما احتلّ رضوان حلب وادّعى امتلاك سورية ، قسام جناح الدولة باستلام السيطرة على أراضيه دون جدال . أما دقاق ، الابن الثاني لِتُشش ، فاقنع حلب ايضاً . لكنّه هرب الى دمشق بنساء على دعسوة سرّية تلقّاها من واليها لكي يقيم حكمه هناك .

وكان طغتكين في تلك الاثناء قيد الأسر في فارس ، بعد ان تمّ أسره في معركة الرّي ، لكنّه انتقل في الحال إلى دمشق عقب إطلاق سراحه بوقت قصير ، واستعاد منصبه كأتابك بمساعدة زوجته ، أمّ دقاق ، وهي الأميرة صفوة المُلْك التي اشتهرت بحيويتها ودسائسها .

كان محتمّاً للأتابكة في الوقت المناسب مع انهيار التضامن السلجوقي ان يحلّوا سلاطاتهم الحاكمة محلّ سلاطات محمّيتهم . غير ان هذا الأمر لم ينطوّر ، كما قد يكون متوقعاً ، على قطيعة محدّدة مع اسيادهم ، السلاجقة الكبار . بل على العكس من ذلك ، استمرّوا في الحفاظ على موقف من الخضوع سليماً للغاية تجاه السلاطين ، وتقبّل هؤلاء من جانبهم مجرى الأحداث دونما اي احتجاج يثير الدهشة . وأصبحت الاتابكة مجرد شكل . وعندما تقرّر في سنة ١١٢٧ مثلاً تعيين اتابك لابني السلطان الأصغرين ، فإن أحداً منهما لم يشارك بأي دور على الإطلاق ، ولم يكن متوقعاً له ان يشارك ، في حكم الإقليم . وعليه ، فإن قيام طغتكين بالتخلّص من « ملوك » السلاجقة في دمشق بعد وفاة دقاق كان يتمشّي كلياً مع ممارسة العصر .

٥ - ودخل عنصر جديد من عناصر التلاستقرار السياسي ، إلى جانب الأمراء العرب المحليين ، والسلاجقة وatabكتهم ، والأمراء الأتراك ، على يد الغزّ في بلاد ما بين النهرين وديار بكر . فقد كان توفّق هؤلاء التركان الرّحل ،

الذين عاشوا على تربية الخيل والنهب ، في حدّ ذاته مصدراً دائماً للاضطرابات والقتل ، ثم جاء نفاذ صبر التحفّظ والاطماع السياسية لزعمائهم لكي تزيد من حدّة ذلك . كان اتسيز مثل هذا الشخص ، وهو سلف السلاجقة في بلاد الشام ، لكن سلطة ملكشاه وتُشش أبقتهم خاضعين للمراقبة مدّة من الزمن ، وخدم كثيرون من الزعماء ، على الأقلّ ، في الجيوش السلجوقية . فالتحلال المملكة التي أوجدها تُشش أعاد لهم حرّيتهم ، وفي غضون عامين أو ثلاثة أعوام نجح العديد منهم في تأسيس إمارات مستقلة .

وكان الغازي وسُقمان من أوسع هؤلاء الزعماء التركان شهرةً في الشؤون السورية ، وهما من أبناء أرثق ، وهو ضابط تركماني عيّنه تُشش حاكماً للقدس . فالغازي خلف أباه في منصبه ، بينما تفرّق إخوته للبحث عن حظوظهم في أمكنة أخرى . وتحالف سقمان في البدء مع رضوان أثناء الصراع ضد دقاق ، فكوفيء بتمليك معرّة النعمان ، لكنّه حاول توطيد نفسه في الرها عقب استيلاء الجيوش الفاطمية على القدس عام ١٠٩٨ . وأسس فيما بعد إمارة أشدّ ثباتاً في حصن كيفا ، كما استولى على ماردين ، ثم انتقلت ماردين إلى الغازي حوالي ١١٠٨ ، وأقيمت هناك سلالة ارتقية ثانية . أما سليمان ابن الغازي فقد سبق له ان استقلّ على سُميساط قبل مقدم الصليبيين ، وأسس أعضاء آخرون من الاسرة إمارات سريعة الزوال خلال هذه الفترة . وثار زعيم تركماني آخر ، هو إينال ، ضد دقاق حوالي ١٠٩٦ ، فاستولى على أميد وإنشأ سلالة هناك ما لبثت فيما بعد ان تحالفت عن طريق الزواج مع الارتقيين في ماردين .

٦ - يبلو ان المجال المتروك لمبادرة الأهالي أنفسهم كان ضئيلاً للغاية وسط هذه الصراعات كلها بين الامراء المتنافسين والزعماء والقادة . وبينما بطل ان يكون لهم شأن في المسائل السياسية في أنحاء عديدة من العالم الإسلامي ، وأبرزها مصر والعراق ، نجد أنهم قد احتفظوا في بلاد الشام من جهة ثانية بشيء من صفاتهم العسكرية وما فتئوا يمارسون نفوذاً هاماً على سير الأحداث . من

الصحيح ان سلطان الفاطميين والسلاجقة والقادة الاتراك استند إلى جيوشهم من العبيد ، لكن وجود إمارات أهلية مثل إمارة بني منقذ في شيزر لم يكن ممكناً إلا بفضل التأييد الذي نالوه من السكان المحليين . وحتى في المدن الرئيسية ، ولا سيما في حلب ودمشق ، فإن القوة العسكرية للمواطنين كانت كافية لكبح جماح النزعات التعسفية لدى حكامها . فقد تخوفت الولاة الأتراك على وجه العموم من ميلهم إلى توجيهها صوب مسالك معافاة . فكانت النتيجة ان الأحداث أو عصابات المواطنين المسلحين نزعت نحو الحصول إلى غوغاء غير منضبطة بدلاً من كونها قوة انضباطية ، واشتهر سكان دمشق في ظل الفاطميين بعصيانهم لحكام المدينة . برهن السكان المدنيون في الدفاع عن منازلهم ضد الصليبيين على امتلاكهم صفات عسكرية كان من شأنها لو نالت تأييداً أفضل أن تكون دون ريب أكثر فعالية في صد موجة الغزو ، ويجب ألا نغفل بأن التقلبات السياسية وويلات الحرب قد أثرت على السكان المواطنين بدرجة لا تقل عن تأثيرها على المزارعين البائسين . فهذا سبط بن الجوزي يخبرنا بأن الاضطرابات العنيفة التي رافقت انحلال الإدارة الفاطمية وسوء حكم اتسيز قد أسفرت عن قدر من الضيق الاقتصادي حتى ان سكان دمشق في العام ١٠٧٥ تقلصوا من نصف مليون إلى ثلاثة آلاف نسمة . ومن جهة ثانية ، فإن الإدارة المستنيرة والسياسة التجارية التي اتبعتها آق - سنقر جلبت انتعاشاً مفاجئاً للازدهار في حلب ، وكذلك في ظل طغتكين فإن دمشق قد تعافت بسرعة مذهلة من آثار الحكم السيء الأسبق .

غير انه يمكن استكشاف قوة الحركات الشعبية في ذلك العمود الفقري من المناطق الجبلية التي تفصل الداخل عن الساحل أكثر منه في المدن وفي الأراضي الزراعية الغنية من بلاد الشام . فلم تكن سلاسل جبال لبنان وامتدادها الشمالي ، في جبل السماق التابع للعرب ، موطن الموارنة المسيحيين فحسب ، بل كانت

ايضاً ملجأ المتمردين والمنشقين ، حيث استطاعوا فيها إقامة تنظيمات قويّة تحدّت كافة قوى الامراء المسلمين . وخلال القرنين اللذين سبقا الحملات الصليبيّة نجح فرعان من فروع الشيعة ، التي كانت في بعض نواحيها السابقة تحمل طابع الحركة الشعبيّة الثورية ، في توطيد انفسهما بهذه المعازل المنعزلة : كان النصيريون قد توطدوا في جبل السماق إلى الشمال وفي الجنوب حول جبل حرمون كانت مستوطنات اخصامهم الأتداء ، الدروز أو الدرزيون . وقبع بينهما تجمّع الموارد المسيحيين . ولقد أضاف تداخل هذه الجماعات المستقلّة ، والمعادية في غالب الأحيان ، إلى صعوبات الاتصال بين الساحل والداخل ، وأسهم كثيراً في الحيلولة دون إمكانية العمل المشترك . فضلاً عن ذلك ، فإن تنظيماتهم العسكريّة جرت تقويتها مؤخراً لصدّ هجمات السلاجقة الذين باعتبار كونهم مسلمين حثيفين وبناء امبراطوريّة تضايقوا بصورة مماثلة من بدعهم واستقلالهم . ولدى ظهور الصليبيين تبسّوا سياسات مختلفة . فلا نعرف عن النصيريين سوى النزر اليسير ، باستثناء الحقيقة القائلة بأن أعداداً كبيرة منهم ذُبِحت على أيدي الفرنجة . أما الدروز فقد ألقوا بقدّرههم مسع المسلمين بإخلاص وصدق . ووقف الموارد إلى جانب الصليبيين بالطبع ، كما حارب الكثيرون منهم في صفوفهم .

وكانت هناك بالإضافة إلى النصيريين والدروز ، حركة شيعيّة ثالثة ، ثوريّة في طابعها ايضاً ، قيد التنظيم في شمالي سورية عند زمن الحملة الصليبيّة الأولى . هذه هي الحركة الباطنيّة الشهيرة التي كانت بمثابة فرع منشقّ عن الفاطميين ، حيث عرّف اتباعها بتسميتهم الشائعة : الحشاشون . فلم تبدأ نشاطاتهم العلنية إلاّ عقب مضي بضع سنوات ، لكن هناك ما يبرّر الإتيان على ذكرهم عند هذه النقطة نظراً للدليل الذي تقدّمه حركتهم على استمرار وجسود النشاط السياسي بين عامّة السكان ، ولا سيما على وجود شعور قوي بالعداء ضدّ الحكام الاتراك وغيرهم من الأمراء المحليين .

واخيراً ، فإن سكان سورية لم يكونوا كلهم على تركيب مطّرد ، او حتى على لغة مطّردة . فقد تألف السواد الاعظم من السكان المستقرّين والرُحّل دون ريب من العرب والعناصر المستعربة ، وكان يتكلّم العربية . وينبغي ان يدرج بين صفوف هؤلاء أعداد كبيرة من السكان المسيحيين الأصليين في الشمال ، والمنتقلين إلى الكنائس اليونانية والنسطورية واليعقوبية. فقد شكّل الموارنة الذين يبدو انهم ما زالوا يستخدمون اللغة السريانية إلى حد بعيد ، الأكثرية الكبرى على الأرجح . وإلى جانب هؤلاء والمهاجرين التركمان الناطقين بالتركية ، كانت هناك أيضاً طوائف كبيرة من الأكراد ولا سيما الأرمن ، تقيم في الشمال بصورة رئيسية . ففسي المرتفعات القساعة عند أقدام جبال طوروس وعلى ضفاف الفرات نجح كل من الأكراد والأرمن في تأسيس عدّة « بارونيات » وحتى إمارات أوسع نطاقاً ، لكن هذه كانت آخذة في الزوال قبل انقضاء التركمان . وفي عدد من المدن الشمالية ، إن لم يكن في معظمها ، شكّل الأرمن أكثرية السكان ، ولا يبدو ان المعاملة التي لاقوها كانت بأية حال أسوأ من المعاملة التي نالها الرعايا الآخرون .

إن التحليل السابق للوضع في سورية يلقي ضوءاً أسطع على الأحداث التي سبقت وصول طلائع الصليبيين مباشرة . فالحقيقة المحورية للوضع كانت العداء بين ابني تَنْشُ ، رضوان ودقاق . لقد عمل رضوان كنائب لوالده في بلاد الشام خلال حملات تَنْشُ في ما بين النهرين وخراسان ، بينما يبدو ان دقاق تسلّم ديار بكر كاقطاعة له . وحين وصلت أخبار معركة الريّ كان رضوان في طريقه للانتحاق بتَنْشُ مع تعزيزات من بلاد الشام ، فراجع على الفور إلى حلب بهدف الحصول على ميراثه كملك على بلاد الشام . وقبل ان يتمكن من إتمام إجراءاته ، كان دقاق قد وصل إلى حلب أيضاً ، فهرب بناء على دعوة سرية من حاكم دمشق من مراقبة اخيه واستولى على دمشق ، بينما احتفظ باقطاعاته السابقة في ديار بكر وما بين النهرين . فأخذ رضوان

بالطبع يعدّ العدة لإثبات حقوقه بالقوّة ، وفي بحثهما عن حلفاء في الصراع الوشيك التفت كلٌّ من الأميرين إلى القادة الأتراك والزعماء التركمان . وكان الأقوى بين هؤلاء ياغي — سيان في انطاكية ، الذي كان سيؤيّد رضوان على الأرجح لولا شعوره بنفور شخصي قوي من جناح الدولة ، أتاكك رضوان . لذا فقد أصبح حاكم القدس هو الخليف الطبيعي لدقاق ، الذي انضم إليه الغازي كذلك ، . فالتفت رضوان الآن صوب سقمان بحثاً عن المساعدة ، وسقمان هو أخو الغازي (الموجود آنذاك في سروج) مع تركمانه ، وإلى قبيلة بني كلاب العربية .

بدأت الاشتباكات في سنة ١٠٩٦ بهجوم ناجح شنّه رضوان وحلفاؤه على الممتلكات الشرقية لياغي — سيان . ويبدو أن دقاق والغازي ذهبا لمساعدة ياغي — سيان ، وفي أثناء غيابهما قام رضوان بمحاصرة دمشق . لقد أحبطت المحاولة على يد السكان ، لكن رضوان نشر الدمار والحرب في جزء كبير من الإقليم قبل انسحابه إلى انطاكية . في تلك الأثناء كان النفور المؤقت بين دقاق والغازي وسمجن هذا الأخير قد اتاحا لسقمان فرصة الاستيلاء على القدس . وفي العام التالي (١٠٩٧) بلحاً دقاق وياغي — سيان إلى شن الهجوم فاسترجعا بعض المدن في شمالي سورية . وحوالي الوقت نفسه رجع الغازي إلى القدس وانضم سقمان إلى رضوان من جديد ، لكي يطردهما الثاني بمساعدة من الأول وابن الغازي الذي جعل نفسه سيّداً على سُمّيساط . عقب ذلك بزمن قصير تشاجر رضوان مع أتاكك ، جناح الدولة الذي غادر حلب على رأس قواته كلها واستولى على حمص . فبادر ياغي — سيان على الفور إلى عرض خدماته على رضوان ، وجعل نفسه بمثابة أتاكك له ، ثم زوجه من ابنته . واتخذت استعدادات فورية لشن حملة ضد حمص ودمشق . وفي الوقت نفسه ، وصلت إلى حلب سفارة من مصر ، واغتمّ رضوان الفرصة لاقتراح القيام بهجوم مشترك على دمشق لقاء تعهده في الاعتراف بالسيادة الروحية للخليفة الفاطمي . غير أن

هذا المشروع جرى العدول عنه بناء على اعتراضات من جانب ياغي-سيان وسقمان ، فتقدم الحلفاء الثلاثة بقواتهم على شيزر . عند هذه النقطة وردتهم الانباء عن وصول الفرنجة الى حدود سورية الشمالية . فألقاهم التقرير في حالة من التخبُّط وتخلَّوا عن الحملة . وبدلاً من البقاء سوية بوجه العدو الجديد . فإن الجيش تفرق . وتراجع رضوان على جناح السرعة إلى حلب ، بينما توجه ياغي - سيان إلى انطاكية لكي يدافع عنها ضد الفرنجة . وحتى عند هذه هذه المرحلة فإن سقمان لا يبدو عليه بأنه أولى أي تفكير للدفاع عن بلاد الشام ضد الصليبيين . فقد كان طموحه موجَّهاً كلّهُ إلى غزو ديار بكر التي استقل حكامها عن دقاق ، حتّى انه حاول إقناع ياغي-سيان ورضوان بالسير معه عليها وعدم الاكتراث لأمر الغزاة الفرنجة . وعندما فشلت توسلاته ، خرج بصحبة ياغي-سيان ، لكنّه انضم إلى رضوان لاحقاً . وهكذا بقي ياغي -سيان متروكاً ليواجه الهجمة الأولى للجيوش الصليبيين بقواته وحدها فحسب ، وبما استطاع الحصول عليه من مساعدة متقطّعة عن طريق توسلاته للامسراء الآخرين .

جيوش الدول الإسلامية

يحتاج القليلون من دارسي الحروب الصليبية إلى تذكيرهم بأن الأمة الإسلامية — تحت السلاح لم تعد قائمة منذ زمن بعيد . فتنظيم الميليشيا القديم ، عندما كان كل رجل في السجّلات العشائرية يتلقّى معاشاً من الخزّانة العامة ويُطلب منه ان يكون على اهبة استعداد دائم للحملة العسكرية ، جرى تعديله تدريجياً بخلق الجيوش الدائمة ، وخلال القرن التاسع تبدّلت القاعدة العسكرية للدول الإسلامية الشرقية بدلاً عميقاً . وعليه ، فقد تألّفت نواة قوّاتها من سلك الحُرّاس المكافئين بمعاش ، وتألّف السواد الأعظم لهذا السلك من العبيد الذين

تم شراؤهم أو تمت جبايتهم كجزية ، أو توارثهم الامير الحاكم . لقد شكل هؤلاء الحراس جيشاً دائماً وكانت تكاليف هذا الجيش عبئاً على واردات الدولة في المقام الأول . وتألفت أكثريتهم من الاتراك القادمين من آسيا الوسطى ، لكن اعدادهم تزايدت بواسطة السلافيين المنقولين من اوروبا الشرقية ، والروم وسواهم من الأسرى المجلوبين من بلاد الأناضول وارمينيا وجورجيا(الكرج) لقد كانوا منتظمين في أفواج ، قام أحدها بتشكيل الحرس الخاص وتزويد المراسم الاحتفالية بالرجال . كانوا جميعاً من الراكبين ، ومن الماهرين بنوع خاص في إطلاق القوس من على صهوات الخيل . وقد تسلّحوا بالرمح والسيوف من أجل القتال عن كعب . دعي هذا الجيش الدائم من الحراس الراكبين بـ « العسكر » ، وسُمّي الجندي الفرد بـ « العسكري » أو « غلام » ومن هذه التسمية الأخيرة جاءت على الأرجح لفظة «Angulani» في المجموعة المعروفة بـ «أعمال الفرنجة» Gesta Francorum . ويبدو أنه وُجد هناك نظام مطّرد للتربية تبعاً لطول مدّة الخدمة ، حيث تميّزت كل رتبة من الرتب بسمّة ما في الزي . فقائد الفوج كان يلقّب بـ « الأمير » (وهي لفظة تجري ترجمتها غالباً بكلمة Prince ، لكنها ليست بالترجمة الصحيحة) ، وكبير الضباط أو القائد الأعلى كان يدعى بـ « الحاجب » . وجرى اختيار القادة عادة من الحرس الخاص للحاكم ، كما شغلوا في كثير من الأحيان مناصب هامّة في البلاط بالإضافة إلى قيادتهم العسكرية . فالضباط الذين ارتفعوا إلى تلك المراكز العليا كان يُسمح لهم ، ويتوقع منهم ، ان يشترّوا ويقيموا لأنفسهم جيشاً خاصاً من عبيدهم ، حيث انخرط هؤلاء العبيد لدى وفاة سيدهم في السلك العام للعسكر ، عادةً كفوج مستقلّ دُعي باسم مالكة الأسبق .

تطلّبت الامراء الرئيسيون بالطبع مبالغ ضخمة لصيانة قواتهم الخاصة ، ولهذا الغرض فقد خُصّصت لكل منهم كفاية الموارد العائدة لمنطقة معيّنة أو جزء من مواردها ، فأصبح الأمير حاكماً لتلك المنطقة وأُنيطت به في المقام الأول

مسؤولية الدفاع عنها . هذا هو « الإقطاع » بالمعنى الإسلامي . والاصطلاح ملائم للغاية حتى انه يتعدّر تحاشيه ، لكن يجب ان نتذكّر التمييز الحادّ بين تلك « الإقطاعات » والنظام الإقطاعي . فقد أعطى الإضعاف التدريجي للبيروقراطية ، التي كانت تسيطر في البداية على الإدارة الماليّة للأقاليم الأمبراطورية وشكلت ضابطاً لكبح الحكام العسكريين ، لهؤلاء الحكام حرية التصرف عملياً في إدارة « إقطاعاتهم » . وكانت النتائج الطبيعيّة التي أسفر عنها هذا النظام هي سوء حكم مزمن وتنافس لا حدها بين الأمراء للحصول على امتياز استنزاف المناطق ذات الانتاجيّة القصوى ، بالإضافة إلى التشجيع الدائر الذي قدّمه ، كما رأينا سابقاً ، للتمرّد ولتأسيس الإمارات المستقلة . فقلما كان هناك حكام لم تضايقهم باستمرار ، رغم شهرتهم ، محاولات متكرّرة من ذلك النوع ومن جانب أمرائهم . وما يفسر ضعف السلطنة السلجوقيّة بنوع خاص ، وإخفاقها في دعم الأمراء السوريين ضد الصليبيين ، سواء أكان ذلك في البداية أم في السنوات اللاحقة ، هو خوفها الدائم من تلك الثورات وانهماكها بها في كافة أنحاء ممتلكاتها .

تدرّعت القوّة العدديّة للعسكر بالطبع حسب تنوّع قوّة الحاكم وموارده ، ولا تزودنا المصادر العربيّة بأية أرقام عن قوى الامراء السوريين ومواردهم ومن الحملة الصليبيّة الأولى . غير انه من المؤكّد بأن قوات رضوان ودقاق ، زهما الاميران الرئيسيان في سورية ، لا يمكنها ان تكون قد تجاوزت بضعة آلاف لكل واحد منهما ، وان قوات الحكام الذين يقتلونهم شأنًا كانت أصغر من ذلك بالتالي . والالغان من «صفوة الجنند» (optimi milites) الذين ينسبهم مصدر غربي(٦) إلى ياغي-سيان هم عسكره على الأرجح . وما يؤيد ضلالة

٦- ذكر رجوتد الأجيلي في 598 D (Migne, Vol. GLV) ما يلي : « ٢٠٠٠ من صفوة المشيا (optimi milites) ، و ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ من عاسة الجنند (milites grezarû) و ١٠٠٠٠ من المشاة (pedites) » . انظر أدناه بالنسبة للفتن الأعرتين .

هذه الأرقام هو الوجود المستمر لتلك الإمارات الصغيرة مثل إمارة شيزر ، والتي كان أسيادها يتصرفون بوضع مئات من الرجال فحسب ، كما تؤيدكما العبارات المفرطة التي يستخدمها ابن القلانسي بصدد القوات التي كان تعدادها في أقصى حدة حوالي أربعة أو خمسة آلاف . غير ان اتابكة ما بين النهرين ، من الجهة الثانية ، كانوا يملكون جيوشاً دائمة أقوى بكثير ، وبما لا ريب فيه ان الدور البارز الذي لعبوه في التاريخ اللائق للحروب الصليبية كان مرده إلى هذه الحقيقة بمقدار كبير .

ومع ان نواة العسكرية تشكلت من قوات العبيد ، فغالباً ما تعززت أعدادها بمجموعات من المرتزقة بالمعنى الأشد حصراً . وكانت توجد في خدمة معظم الأمراء افواج من الديلم ، سكان المناطق الجبلية إلى الجنوب الغربي من بحر قزوين ، كما ان الأرمن خدموا على الأقل في عسكر دمشق ومصر . كذلك نسمع في سورية عن أحرار انخرطوا في سلك العسكر وتلقوا ، على غرار الجنود النظاميين ، ديواناً أو معاشاً معيناً من رئيس يتعهد الإيراد (٧) . وفي مناسبات عديدة جرى تعزيز عساكر الأمراء الدائمين برجال قبائل التركمان ، وهؤلاء كانوا أيضاً من رماة السهم الراكبين ، ويرد ذكرهم على العموم كمسكر . فعندما يُقال لنا بأن الجيش الدائم للسلطان السلجوقي ملكشاه بلغ تعداداه ٤٠٠,٠٠٠ رجل ، يجب علينا اعتبار هذا الرقم شاملاً للتركمان الخاضعين لأمرته بالإضافة إلى الحرس الكبير جداً من العبيد الأتراك (حوالي ٤٦,٠٠٠ رجل) والسلمي احتفظ به . إلا ان التركمان ، رغم شعاعتهم الفردية ومزاياهم الحربية ، أعوزهم استقرار القوات النظامية وانضباطيتها ، وغالباً ما برهنوا عن كونهم

٧ - مثال ذلك ، اسامة بن منقذ ، الذي خدم بالتتابع في عسكر كل من زنكي ودمشق ومصر ونور الدين . انظر أيضاً قصته عن المفاوضات بين رضوان بن اللولاعي ومين الدين أوفور (تحرير حي ، ٣٠-٣١)

حلفاء خطرین . كذلك قدّم رجال القبائل الأكراد قواتاً إضافية من الفرسان . وانخرطت علاوة على ذلك أعداد كبيرة من الأكراد في العساكر النظامية .

كان القسم الأكبر من القتال العادي بين الأمراء السوريين وبينهم والصليبيين يشته العساكر وحدهم . مع عدد معين من الاتباع الملحقين . وجرى في مناسبات أكثر أهمية استدعاء خطّة ثانٍ من القوات (٨) . فالتسمية المعطاة لهذه القوات ، جنّد وجمعها أجناد ، هي التسمية ذاتها التي أطلقت في السابق على الميليشيا العربية القديمة . ولقد استمرّ نظام الميليشيا هذا بالواقع قائماً في سورية وما بين النهرين حتى تاريخ متأخر جداً أكثر من أي مكان سواه في الشرق ، بفضل استمرار التنظيمات العشائرية العربية وبسبب النزاع المتواصل مع البيزنطيين . لكنه من الخطأ على الأرجح إجراء مطابقة كلية بين أجناد القرن الحادي عشر والميليشيا السابقة . كذلك من الواضح تماماً من المصادر السوروية أنه كانت لا تزال هناك قوات اقليمية من نوع الميليشيا ، مقابل العساكر . فالقوات العسكرية للإمارات العربية الصغرى ، كالدرّوز ، وغيرها من التنظيمات المحلية كانت تتألف كلياً من مثل تلك القوات الاقليمية . وأمراء شيزر مثلاً ، كان لهم عسكر صغير فقط . فنحن نعلم من روايات أسامة بن منقذ بأن أجنادهم قد تألفت في معظمها من مختلف القبائل المحلية ، بالإضافة إلى الوافدين عليهم من المغرب (الشمال الغربي من افريقيا) وإلى عدد معين من الأكراد (٩) . ولذا يمكن الافتراض بأن أجناد دمشق والمدن السورية الأخرى كانت مؤلفة من عناصر مماثلة ، بصورة جزئية على الأقل . لأن نظام العسكر

٨ - انظر على سبيل المثال والمقارنة النص العربي لابن القلانسي ١٣٢ ، ٦-٧ : « اندفع إليهم (العسكرية) جماعة من الأجناد » . وربما كان هؤلاء ما عناء ريموند الأجيلي : « عامة الجند » milites grezarú

٩ - انظر طبعة حتي : ٣٨ ، ١٣ ، ٤٦ ، II . ٣٨ ، ٣ من الحاشية ، ٤٩ ، ١٢ ، ٧٠ ، ٢ الخ .

أدّى أيضاً بدوره إلى تشكيل قوة من رجال الاحتياط الاقليمي ، دعيت كذلك بالأجناد ، وتألفت من اولئك الجنود الذين لم يُستنفروا بشكل دائم وأُعيِلوا بمنحهم الأراضي . وبما ان هذه القوات الاحتياطية الإقليمية تشهد عليها المصادر بالنسبة لوجودها في مصر خلال القرن الثاني عشر (١٠) ، فقد تكون قائمة في سورية على زمن الحملات الصليبية الباكرة . فإسواء كان رجال القبائل الرُحْل من العرب يُحسبون عادة من بين الأجناد أم لا ، هذا ما يبقى عرضة للشك . ومن المحتمل أنهم شكّلوا جنداً مستقلاً . يماثل عسكر التركمان .

وكان الجنود الذين تألفت منهم الأجناد ، على غرار العساكر من الراكبين ، وقد ميّزهم هذا الشيء أكثر من أي فارق في التنظيم عن الخطّ الثالث من القوات ، أي جنود المشاة . ومن جهة أخرى ، فإن الأجناد لم يكونوا كقاعدة من رماة السهام ، بل حاربوا بالرمح والسيف . وتألفت الراجلون من عناصر مختلفة : القوات المجنّدة من المدن ، ورجال الأرياف المُكرهين على الخدمة ، والمتطوعون الساعون وراء المكافآت الزمنية والروحية للمشاركة في الحرب المقدسة (الجهاد) والتابعون الملاحقون من كافة الأجناس والأديان . وكان تدريبهم العسكري وانضباطهم ، على غرار تجهيزاتهم ، تحت رحمة الحظّ ، ورغم أنه لا حاجة إلى التشكيك بشجاعتهم ، فإن قيمتهم العسكرية كانت ضئيلة عموماً . أمّا دورهم في سير العمليات ، فيبدو أنه انحصر بوظائف فرعية مثل إقامة المنشآت والدفاعات العسكرية وعمليات زرع الألغام أثناء الحصار ، وحماية المعسكرات والمرابطة كحاميات في القلاع والحصون .

تألفت الدروع التي لبسها الفرسان المسلمون في العادة من سترة زردية تتدلى منها « تنورة » على العموم ، وخوذة مستديرة لها قنصاع من

١٠ - قارن بالسطر الأخير ، ص ٣٣١ من ابن القلانسي .

لكنها بدون جزء أمامي متحرك لتغطية الوجه ، كما تمنطقوا معها ترساً دائرياً خفيفاً . أما رجال الخيالة ذو الأسلحة الخفيفة فقد ارتدوا جركينات جلدية (والجركينة هي السرة الطويلة الضيقة لاكمين لها) أو سترات مضرّبة ومحشوة (الكزاغند) بدلاً من السترات الزردية . وخلال سير الحروب الصليبية تبنى المسلمون خصائص متنوعة من سلاح الفرنجة ، مثل الأجزاء الأمامية المتحركة في الخوذات واللفائف الواقية للسواعد الخ . فالحيلول تبدو على العموم أنها كانت بلا حماية . والأسلحة الرئيسية لراكبي الخيل المسلمين كانت القوس والرمح والسيف . إن رماحهم الخفيفة والقصيرة نسبياً قد وضعتهم في البداية بوضع غير موثّق أثناء مقاتلة الفرنجة ، لكن هذا النقص جرى تلافيه بواسطة ربط قصبتين للرمح سوياً (١١) ، وبالتالي في تبنيهم للرمح الفرنجي الثقيل . واحتفظ بمعظم الدروع والأسلحة ، حين لم تكن قيد الاستعمال ، في مستودع الحاكم (دار الصناعة) القائم داخل قلعته وتحت أمرة واحد من ضباط عسكره الموثوق بهم إلى أقصى درجة . فعندما كانت الأوامر تصدر للعسكر بأن يستعدوا لحملة ما ، يتم توزيع المعدات اللازمة على القوات ، وقد أعيدت الأسلحة إلى مخزنها لدى عودتهم . أما الأجناد فقد زودوا بالسلاح أحياناً من المستودع أيضاً ، لكن المتوقع منهم على ما يبدو هو ان يقوموا على تزويد أنفسهم بـأسلحتهم وخبولهم . والمخزون الإضافي من الأسلحة والدروع جرى حمله في قوافل التموين . كما قام المشاة على تزويد أنفسهم بأسلحتهم ، مثل الاقواس والسيوف والخنجر ، أو على الأقل بتلك السنايك الحادة التي تقسّيها النار وتستعمل كجرائد (ج جريد) أو رماح .

أثناء الحملات كانت ترافق العسكر قافلة كبيرة للتموين ، محمولة عموماً

١١ - انظر اسامة بن منقذ ، طبعة حيّ ، ١٠١ ، ١١ - ١٢ .

(An Arab-Syrian Gentleman, 131).

على ظهور الجمال والبغال ، مما أُنْزِمَ بتحركات بطيئة كقاعدة . إلا انه تعوزنا التنبؤيات عن نظام تزويد الجيش بالطعام (« الميرة ») ، ومن الجليّ أن نوعاً من التنظيم كان موجوداً لنقل المؤن والعلف ، وان جمع العلف دون تمييز ، وعلى الأقل في الأراضي الصديقة ، كان أمراً غير مستحسن . لقد كانت صعوبة الحصول على مؤن محلية كافية ، من جهة أخرى ، هي أحد الاسباب التي جعلت من النادر القيام بحملات خلال الشتاء ، وحتى في الأوقات الأخرى من السنة كانت الحملات تنحصر عادة بالهجمات السريعة التي لا تستغرق أكثر من شهرين أو ثلاثة أشهر في كل مرة . ويبدو ان الصليبيين قد اعطوا القدوة في إنشاء معسكرات خاصة لتنفيذ حملات الشتاء .

كانت الصيغة العادية للهجوم تقضي باتخاذ موقع مقابل للعدو والدخول أولاً في مبارزة برمي السهام . فاذا ما أظهر العدو بؤادر ضعف ، كان الفرسان يتقدمون برماحهم ويشتبكون في قتال بالسيف على نحو ملتحم . ويبدو ان الهجوم على خطّ غير منقطع كان متجنباً على العموم ، بالإضافة إلى التهور غير الملائم في منازلة العدو . لقد حافظ الفرسان العرب على تكتيكهم التقليدي في التقدم والانعطاف (الكرّ والفرّ) بحركة تحفزية قبل وصولهم إلى الخطّ المعادي ، ثم حين تحرك العدو في تعقبهم كانوا ينعطفون من جديد عند نقطة متفق عليها مسبقاً ويكرّون عليه . إن النقد يوجّه غالباً للصليبيين على حظرهم المفرط ، لكن « هجمتهم الشهيرة » كانت تُقابل بخوف جامع . فالمشاة لم يلعبوا دوراً يذكر في المعركة الفعلية ، ومصائر اليوم كانت تقرّها هجمة الفرسان ، بينما جرى تقطيع مشاة القوة المهزومة إرباً إرباً دون رحمة ، وأخذهم كأسرى بواسطة الحبال المنتصرين .

كان فنّ التحصين وعمليات الحصار قبل مقدم الصليبيين بسيطاً نسبياً . وعلى سبيل القاعدة ، كانت تجري في البدء محاولة للاستيلاء على المدينة أو

القلعة بواسطة الهجوم المباشر ، ومن الأفضل ان يكون الهجوم مفاجئاً . فلو أنفق هذا الأمر ، كان الجيش المهاجم غالباً ما يتراجع إلى الوراء بدون مزيد من الضجة الصاخبة ، أو أنه يكفي بمجرد محاصرة المكان على أمل تجويعه حتى الاستسلام . وكان السلاح الرئيسي للحصار هو المنجنيق ، يضاف اليه أحياناً ويؤازره الكتش ، إذ يرجع استخدام هاتين الآلتين إلى الرومان في نهاية المطاف . أما الطريقة الأشد فعالية لإحداث الثغرات فكانت تقضي بحفر خندق عميق ضيق تحت برج من الأبراج أو قسم من الجدار ، وإشعال نار تحته لكي تتسبب في انهيار الأرض وتقويض دعائم البنيان . لكن هذه الطرق كانت بدون جدوى ضد حصن مشيد على الصخر ، خصوصاً متى كانت أسسه ، كما هي الحال في بلاد الشام غالباً ، من المعمار القديم الصلب ، وقد استطاع الحاكم المصمم ان يصمد على العموم ضد الهجمات لفترة غير محدّدة من الزمن . إن قسماً لا يستهان به من نجاح الصليبيين كان يرجع حقاً إلى طرقتهم الأكثر شمولاً في الحصار وإلى متانة تحصيناتهم .

الفصل الثالث

المصادر العربية عن حياة صلاح الدين*

لقد أحلّ جميع المؤرخين الذين قاموا بدراسة حياة صلاح الدين مصدرين عربيين في المنزلة الأولى : المصدر الأول هو سيرة حياة صلاح الدين في كتاب بهاء الدين يوسف ابن شدّاد («النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيّة») وقد نشرت ترجمة لها في المجلد الثالث من *Recueil des Historiens des Croisades : Historiens Orientaux* ، والثاني هو كتاب التاريخ العمام «الكامل» لعزّ الدين ابن الأثير (وتوجد ترجمة جزئية منه في المجلدين الأول والثاني من السلسلة المذكورة آنفاً) . أما بالنسبة لموثوقيّة المصادر الأول وامكان التعويل عليه فلا يمكننا الآن ان نضيف شيئاً يُذكر إلى شهادة ستانلي لين - بول في مقدّمته (ص vi) لكتاب صلاح الدين ، الصادر في سلسلة « أبطال الأمم » (لندن ونيويورك ، ١٨٩٨) . ويكتب بهاء الدين (١١٤٥ - ١٢٣٤) في حسّ سليم وصدق هما على غاية الرزاقنة ، وانا لا أستطيع العثور في كتابه على شيء حتى من ذلك « التحيز الشخصي والإغراق في الغلو الشرقي » اللذين

* راجع مقالة هـ.أ.جب عن « المصادر العربية لحياة صلاح الدين » في مجلة *Speculum* ، (XXV) ، ص ٥٨ ، ٧٢ .

وجد لين — بول انه من الضروري الاعتذار عنهما . لكنه لم يتصل مع صلاح الدين مباشرة الا في سنة ١١٨٤ ، كواحد من سفراء الموصل ، ولم يلتحق به أخيراً كقاضي للجيش حتى كانت سنة ١١٨٨ . ومنذ ذلك الحين فصاعداً . أي خلال فترة الحملة الصليبية الثالثة بأكملها ، فهو لا يقدم سجلاً أميناً للأحداث كما رآها فحسب ، بل يعطينا كذلك ، عبر مركزه كوثمن على أسرار صلاح الدين وصديق حميم له ، تبصراً ثاقباً (كما ليس بوسع أي تاريخ عادي ان يفعل) في الدوافع التي حركت صلاح الدين على اتخاذ العديد من القرارات الحاسمة . أما بالنسبة للتسعة عشر عاماً الممتدة بين عامي ١١٦٩ — ١١٨٨ ، فإن بهاء الدين لا يستطيع الرواية ، من جهة أخرى ، إلا بطريقة غير مباشرة ، وغالباً ما يكون على خطأ بالنسبة للتفاصيل الواقعية والتسلسل الزمني . ولقد تمتع ابن الأثير (١١٦٠ — ١٢٣٤) ، وهو زميل بهاء الدين في الانتماء إلى الموصل ، طيلة قرون عديدة بشهرة كونه واحداً من أعظم مؤرخي الاسلام ، حتى انه يبدو من ناقل القول تقريباً أن يصر إلى البحث في مؤهلاته وجدارته بالاعتماد والقبول ، لا سيما وانه قد عاصر صلاح الدين وكان على اتصال شخصي بإدارة الموصل وبالتالي في وضع يسمح على الأقل بمعرفة الوقائع الخارجية . ومع انه قد شاهد صلاح الدين دون ريب ، في كل من الموصل وبلاط الشام على السواء ، فلا يوجد أي دليل هناك على انه اتصل بصلاح الدين اتصالاً شخصياً البتة . إن تحامله على صلاح الدين ذائع الشهرة ، لكن رواياته للأخبار قد حظيت بالقبول عموماً ، مع التماس الاعتذار لواقعة التحامل ، فجرى اعتبارها صادرة عن مؤرخ معاصر للأحداث وحسن الإطلاع عليها . والنتيجة الرئيسية التي سوف تتوصل اليها مقالتنا هذه ، مؤداها ان هذه النظرة لا يمكن الاحتفاظ بها بعد الآن .

من المعلوم انه كان يوجد ايضاً مصدران معاصران هامان ، وقد جرى وضعهما جزئياً في متناول دارسي الحروب الصليبية من خلال المنتخبات أو

التلخيصات التي قام بها أبو شامة (١٢٠٣-١٢٦٧) في عمله المعروف بـ كتاب الروضتين (والمترجم جزئياً في الجزئين الرابع والخامس من R. H. C. Or.). كان أحد أولئك الكتاب مؤرخاً في حلب ، هو ابن أبي طيء (حوالي ١١٦٠ - ١٢٣٥) لذا فقد كان معاصراً تماماً لابن الأثير () الذي يمتاز وحده بسسبين المؤرخين اللاحقين بكونه شيعياً (١) ، ولربما أسهمت هذه الحقيقة في اختفاء النص الأصلي لمؤلفاته . فالمنتخبات الباقية تظهره بأنه كان كاتباً أصيلاً ، على اهتمام خاص بالتفاصيل الاجتماعية والطوبوغرافية ، لكنه يضمّر شيئاً من التحامل على نور الدين الذي نفى أباه من حلب . كما توجد أقسام لا يستهان بها من تاريخه في تاريخ عربي عام ومتأخر ، هو تاريخ ابن الفرات (توفي ١٤٠٥) ، لكن الجزء الذي يتناول السنوات الممتدة من ١١٧٢ إلى ١١٩٠ هو مفقود .

أما الكاتب الثاني والأشد أهمية الذي استعان أبو شامة بمؤلفاته فهو عماد الدين الاصفهاني « الكاتب » (١١٢٥-١٢٠٠) ، والحق يقال إن القسم الأعظم من كتاب الروضتين يمكن وصفه بأنه تلخيص للأثرين اللذين كرستهما عماد الدين لحياة صلاح الدين ، مع مواد إضافية مستقاة من مصادر أخرى . إن الأثر الأوسع شهرة بين هذين الأثرين ، وعنوانه الفتح القسي في الفتح القدسي ، يبتدىء بالاستعدادات لمعركة حطين عام ١١٨٧ وينتهي بوفاة صلاح الدين واقتسام امبراطوريته عام ١١٩٣ ، فهو يغطي إلى حد بعيد الفترة ذاتها على غرار القسم الأول والمباشر من سيرة صلاح الدين لبهاء الدين ابن شدّاد. وتوجد هناك عدّة مخطوطات لهذا الأثر وصلت إلينا ، ولقد نُشر النص عام ١٨٨٨ على يد الكونت كارلو لاندبرغ . وبما أن العماد الاصفهاني كان كاتباً شخصياً

١ - انظر مقالة كلود كاهن :

« Une Chronique Chiite au temps des Croisades » :

C.R. de l'Acad. des Inscriptions et Belles Lettres المنشورة في
(Paris 1935). pp. 258 - 269

لدى صلاح الدين منذ ١١٧٥ . فإن جدارة كتابه بالقبول والاعتماد لا تقلّ عن مؤلف بهاء الدين ، غير أن القلّة من المؤرخين الذين استعانوا مباشرة بالنصّ تذرّوا بصوت واحد مما دعاه لين — بول بـ « خطابيته التي لا تحتمل » . ذلك أن العماد « الكاتب » ، كما يسمّى عموماً ، كان واحداً من أشهر المؤيدين الكلاسيكيين لذلك الأسلوب الثري في الانشاء المتميّز بشدة الزخرفة والسجع البلاغي ، وهو الأسلوب المستخدم في ديوان الرسائل في الممالك الإسلامية القروسطية ، وليس له في زمانه من يجاريه في ذلك سوى رئيسه الرسمي القاضي الفاضل الذي كان وزيراً للدولة عند صلاح الدين وتولّى عنه إدارة الدواوين .

يتكشف كتاب « الفتح » عن كل ميزات هذا الأسلوب الدواويني ، باثتماله على فقرات خطابية منشأة حول الفصول وغيرها من الموضوعات ، وبمقدّماته الطنّانة لروايات الأحداث ، والمنتخبات المتكرّرة من مكاتبات المؤلف ورسائله . ويعتّل هذا التنميق في اللغة — وهو الذي يوازي عموماً لدى القراء الغربيين فراغاً في المحتوى وإطراءً مقيماً — إلى حدّ كبير الإهمال النسبي لعمله ، مع العلم بأن خصائصه الأسلوبية لا تفرّ في حدّ ذاتها على ما يبدو جلياً نوعيته كمصدر تاريخي . كذلك فإن قراءته صعبة (حتى بالنسبة للقراء العرب ، كما يشير أبو شامة بنفسه) . وليس هناك ما يدعو إلى الدهشة بأن القليلين هم الذين ردّوا أصداء حكم محرّره :

« وكنت كلّما تقدّمت في عملي ، ازدادت وقوعاً تحت سحر كلام الكاتب الشهير . فلم أقرأ البتة شيئاً نظيره ، كذلك لم يقع نظري على ما هو أصعب منه من وجهة النظر المعجميّة ... لقد رجعت ... مليئاً بالحماسة المؤتلفي » .

غير أن « الفتح القدسي » لم يكن العمل الرئيسي الذي كرّسه عماد الدين لتاريخ صلاح الدين . فهذا العمل الرئيسي كان تاريخاً لاحقاً وشاملاً في سبع مجلّدات بعنوان « البرق الشامي » ، يشمل الفترة كلّها من ملازمة المؤلف لصلاح الدين ، ومن جملتها السنوات الباكّرة عندما كان الإثنين ما زال يعملان

في خدمة نور الدين . وعلى غرار معظم التواريخ العربية الضخمة للقسرون الوسطى ، فإن « البرق الشامي » سرعان ما سقط من التداول لصالح التلخيص الذي قام به ابو شامة . فلا تعدو الأقسام التي يُعرف عن وجودها ، إلى جانب إشارة غامضة لوجود مخطوطة له أو مخطوطات في ليننغراد ، سوى مجلدين في مكتبة بودليان بكسفورد : المجلد الثالث وهو يتناول السنوات المجرية الممتدة من ٥٧٣ إلى ٥٧٥ (تموز ١١٧٧ - أيار ١١٨٠) ، والمجلد الخامس ، وهذا يتناول سنة ٥٧٨ هجرية حتى بداية ٥٨٠ (أيار ١١٨٢ - تموز ١١٨٤) . فالحديث المفصل عن هذين المجلدين ومحتوياتهما سوف يأتي في مكان آخر من هذه الدراسة . والشيء الأكثر أهمية هنا يتعلق بتبيان نوعية الضوء الذي يلقيه هذان المجلدان على قيمة « البرق الشامي » كمصدر تاريخي وعلى علاقته بالمصادر الأخرى المعروفة .

يوضح النص الأصلي لكتاب « البرق الشامي » (كما قد يمكن استنتاجه من منتخبات ابي شامة ومن « الفتح القسّي ») بأن تاريخ عماد الدين ليس في أي معنى تاريخاً عادياً لرواية الأحداث . بل هو أكثر منه في طبيعة المفكرة المهنية أو السجل لنشاطات المؤلف الكتابية ، وقد جرى تزويده بوفرة من نسخ رسائله أو مقتطفات منها ، وبمراسلاته شبه الخاصة مع القاضي الفاضل ، وشهادات التعيين لمختلف المناصب ، والتي كانت من إنشائه ، بالإضافة إلى مناسباته الادبية والشعرية ، و(أقل تكراراً) لفصيلات شؤونه الخاصة . لكن بما ان عماد الدين لازم صلاح الدين بدون انقطاع تقريباً منذ صيف سنة ١١٧٥ وحتى وفاته ، فالكتاب هو ايضاً عرض "زمني" للأحداث ، يتسم بميزة تسرعى الانتباه وهي ان سرد الأحداث وروايتها يتمان عادة بصيغة جمع المتكلم ، وهذه ممارسة يتحتم لها ان تعطي انطباعاً (ولكن عن خطأ في غالب الأحيان ، على ما اعتقد) بالخيلاء والاعتداد بالنفس من جانب المؤلف . بيد انه يشمل روايات الأحداث القليلة التي لم يشهدها ، ويعمد

في بعض الأحيان إلى رواية الأحداث بإيراد رسالة أو أكثر من رسائله أو رسائل القاضي الفاضل بدلاً من اعتماد السرد المباشر .

إن الخصائص الأسلوبية للكتاب ليست مطردة ، بل تتنوع أیما تنوع من قسم إلى قسم . ففي بعض الفقرات يأتي التركيب البلاغي موسعاً للغاية ، وفي البعض الآخر لا يتجاوز كونه عادةً في التعبير عن كل شيء بالنثر المسجع ، وهو نثر مباشر وغير متكلف على نحو بارز في أحيان عديدة ، فصلاح الدين ، مثلاً ، يتمثل كمن يتحدث بالسجع ، لكن الانطباع السائد ، باستثناء خطبة قصيرة موضوعة أو خطبتين ، هو أن الكلام طبيعي ونخال من التكلف . وعلى يدي سيد بارع كهذا من أسیاد اللغة والمفردات ، فإن حقيقة كون رواياته مصوغة كلها بقالب هذا الوسيط لا تسلبها من وضوحها ودقتها أي شيء على الإطلاق . فالذيول والمقدمات الوافرة لها وظيفة أدبية مختلفة تمام الاختلاف ولا تتدخل البتة في الفقرات السردية ، حيث يسترسل أسلوب النثر المسجع إلى أقصى حد من الإغراق في تهمة الحشو أو الإطناب .

ولدى إمعان النظر فيها تبدو عبارات عماد الدين رزينة بشكل ملحوظ . فلو تركنا جانباً جميع مسائل الأسلوب الأدبي ، لتبين لنا إنها ليست بعيدة الشبه عن الوقائع أو التقارير التي يدونها موظف حيّ الضمير من موظفي سلك الخدمة المدنية (كما كان حقاً من هذا الطراز) . هناك شيء من الصراحة في الكلام ، وانعدام التعليق إمّا « مع » أو « ضد » ، وحتى أنه يوجد نوع من التجرد المقابل عرضياً لتوحيده الرسمي ذاتياً مع الأحداث من خلال الاستخدام المتواصل لضمير المتكلم : « نحن » . وأنها لفارقة تقريباً أن يكتسي مثل ذلك التاريخ الحصيف والوقاعي برداء من طراز تلك الغزارة الأدبية والجمالية . إن مسألة التعويل عليه سوف يأتي بحثها فيما بعد . لكن الكاتب الذي يتحدث عن انسحابه من الحملة على الرملة بسبب برودة القدمين سنة ١١٧٧ ويستشهد بتعليقات أصحابه حول هذا العمل ، يوحي لنا منذ البداية ببعض الثقة في كونه صادقاً .

ومع أن اسهاب عماد الدين الأدبي انقص في السياق الطويل من تداول

كتاباتة ، فإنها لحقيقة شائعة بأن جيل المؤرخين بعده قد أدرك قيمتها تماماً واستند إليها بشكل واسع . كان من الصعب قبل ذلك تقرير الحجة الذي ذهب إليه اقتباساتهم . وفي الصفحات التالية سوف يتم تحليل الروايات العائدة لأشهر هذه التواريخ ، تاريخ الكامل لابن الأثير ، عن السنوات التي تناولها المجلدات الموجودة لدينا من كتاب البرق الشامي ، وستجري محاولة لتبيان العلاقة الدقيقة بينهما .

في السنة ٥٧٣ هجرية : يبدأ ابن الأثير بروايته عن هزيمة صلاح الدين في الرملة (628 - 627 I, 292 - 293 Xi) (٢). ويتضح من التفاصيل المتضمنة في الرواية بأنها مأخوذة كلياً عن « البرق الشامي » ، مثل بسالة بن نقي الدين (باعتبارها نسخاً لفحوى إحدى الفقرات « الملحمية » لدى عماد الدين : البرق الشامي (III, 13v - 14r) ووقوع عيسى الهكاري في الأسر وافتدائه فيما بعد (IV, 187) (I, 973, 11.22-25) ، أبو شامسة (= 15 r) تلي هذا روايته للهجوم على حمص من قبل إفلندس أو فيليب أوف فلاندرز ((I, 630 (XI, 294) ، والسبب في الهجوم هو أن أحد أعظم كونتات الفرنجة كان وصل إلى فلسطين بطريق البحر ، ولدى رؤيته بأن صلاح الدين رجع إلى مصر مهزوماً ، اغتتم فرصة وجود البلاد في حالة عديمة الدفاع . لأن شمس الدولة (توران شاه) كان في دمشق مقدماً عند صلاح الدين وبصحبه بعض القوات ، إلى جانب انغماسه في ملذاته وكونه راغباً عن العمل .

هنا أيضاً نجد أن اعتماد ابن الأثير على كتاب البرق يبدو واضحاً ليس فقط من حقيقة كون ترتيبه للجمل يقتضي بالضبط ترتيبها في البرق III, 25 ، بل إن

٢ الفقرات المأخوذة من ابن الأثير يستشهد بها أولاً في طبعة تورنبرغ المقياسية ، والمأخوذة من أبي شامة في طبعة القاهرة عام ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) . والإشارات إلى النص الـ **Recueil** عن المؤرخين الشرقيين تعطى بين قوسين ذي زوايا قائمة . أما المتجمة عقب الإسناد فتدل على كون الفقرة قد حذفت من الـ **Recueil**

تركيب الأحداث هو ذاته من الناحية العملية (راجع ابا شامة (2 - 191, IV, 275 (I)). وبأن ذلك لا يرجع إلى الاستشهاد برسالة رسمية ، هذا ما يتضح من وصف سلوك توران شاه الذي ما كان ليجد محلاً له بالتأكيد في رواية رسمية . لكن ابن الأثير يضيف شيئاً إلى مصدره ، في العبارة القائلة بأن الهجوم على حماه دعت إليه مناسبة هي هزيمة صلاح الدين في الرملة . وهذا يمكن نسبته إلى أمرين فحسب : إما إلى اللامبالاة بحيث يكون ابن الأثير قد ضلّته حقيقة كون الهجوم على حماه في كتاب البرق يلي الرواية عن حملة الرملة ، أو إلى الخطأ المتعمّد يدعّمه إخفاء تواريخ الحادّين . فالبرق يذكر بوضوح تاريخ الهجوم على حماه يوم ٢٠ من جمادى الأول (١٤ تشرين الثاني ١١٧٧) وهزيمة صلاح الدين في الرملة يوم الأول من جمادى الثاني (٢٥ تشرين الثاني) ، بينما لا يأتي ابن الأثير إلّا على ذكر جمادى الأول فقط في كل من المدخلين ، ولا يذكر تاريخاً دقيقاً للحادثة الأولى .

كذلك الرواية اللاحقة للأحداث في حلب (663 - 631 (I, 294 - 295 (XI) فإنّها تتابع البرق في الترتيب والتفاصيل (r 25 - r 23) ، حتى إلى درجة وصف التعذيب الذي ذاقه كشتكين في حارم بعبارات عامّة بدلاً من التفصيلات الدقيقة التي حوتها روايته السابقة في تاريخ الاتابكة (325, 2, II) . وجدير بالملاحظة انه يحتم فقرته بالكلمات التالية : « عندما رأى الفرنجة هذا ، تركوا حماه ومشوا إلى حارم في جمادى الأول ، كما سوف نرويه » . لكنّه في الواقع كان قد أورد هذه العلاقة في الصفحة السابقة من الكامل ، بينما هي في البرق تلي ذلك مباشرة .

أما الحادث الآخر ذو الصلة ببلاد الشام الذي يذكره ابن الأثير في هذه السنة فهو رواية بلا إسناد عن هجمة غير ناجحة شنتها مجموع غير محدّد من الفرنجة ضد اراضي حمص (632 (I, 297 (XI). والفقرة مأخوذة برمتها من

رسالة إلى بغداد ، حيث ان البرق (ص 43V وما بعدها) يورد متخبات منها ، يرد ذكر الحادثة في الورقة 44V وهي مغلقة بعبارات مماثلة . لكن ابن الأثير ، إذ عثر عليها في هذه الصيغة المفردة ، قصّر عن الملاحظة بأنها تنصل بالمتناسبة ذاتها مثل الهجوم الفاشل على حماه (وفي كلمات الرسالة : « بينما كانوا يجرّون عند تخوم حمص ») والحادثة بحدّ ذاتها يؤكدها غليوم الصوري XXI, 19 ، وفي الترجمة II, 425 .

السنة الهجرية ٥٧٤ : إن الروايات الموجزة للأحداث في سورية والتي تشغل الفصل كآله عن تلك السنة (هجوم الفرنجة على حماه ، ثورة ابن المقدم وحصار بعلبك ، وغيرها من الهجمات الصليبية) كلها تنسخ مادة روايات عماد الدين . غير انه مما يقبل الجدل أنّها قد تكون مستقاة من رسائل رسمية ومصادر أخرى ، والألفاظ العامة بالذات التي يستخدمها ابن الأثير لا تسمح بأي برهان على وجود اعتماد مباشر .

السنة الهجرية ٥٧٥ : يرتكز الخبر عن معركة مرج عيون (٩ حزيران ١١٧٩) دون ريب إلى رواية عماد الدين . والملاحظة المُفحمة عن مبلغ فدية باليان (I, 636) (XI, 301) مأخوذة من البرق III, 131 (أبو شامة (IV, 199) II, 8 حيث تُولف مادة واحدة في قائمة أطول . والاهتمام الخاص الذي يُولى إلى أعمال فروخ شاه الجريئة يعكس أيضاً فقرة عماد الدين الخاصة عن الموضوع ذاته (الورقة ١٣٦) ويستشهد ببيت الشعر نفسه . فالرواية التالية عن تخريب قلعة الداوية في «مخاضة الأحزان» ربما كانت مأخوذة عن رسالة رسمية لكنها تتابع البرق على نحو وثيق يصعب معه افتراض أي مصدر آخر ، ولا سيّما في التفصيل المتعلق ببناء الأمير الخولي إلى صلاح الدين كي يسمح له بتجريب حفظه في هجوم مباغت ، فهو موجود في البرق (141r) لكنه ناقص في تلخيص أبي شامة (II, 11) . وإشارة ابن الأثير في نهاية روايته إلى العسدد الكبير من الفصائد التي نُظمت حول الموضوع هي مستوحاة بالتأكيد من

القصاصد (ومجموعها أربع) المستشهد بها في البرق ، والأبيات التي يذكرها مأخوذة عن القصصيتين الأوليين بين هذه القصاصد الأربع .

والرواية التي تلي ذلك مباشرة عن المعركة بين تقي الدين وسلطان قونيسا السلجوقي (I, 639 (XI, 303) هي مستقاة أيضاً بكل وضوح من عماد الدين . يبدأ هذا الأخير روايته بالملاحظة ان تقي الدين كان غائباً عن العمليات في « مخاضة يعقوب » (مخاضة الأحزان) لهذا السبب ، وهي ملاحظة يضعها ابن الأثير في النهاية . وهناك دلالة أشد حسماً نحوياً الأرقام المعطاة عن الجيش السلجوقي . فعناد الدين يجعل الرقم من ٢٠,٠٠٠ رجل (البرق r 138 III — أبو شامة II, 9 *) . والرواية الموازية لدى ابن أبي طي ء تضعه عند « ٣٠,٠٠٠ من رجال القرسان » (أبو شامة ، المكان نفسه) ، بينما يتحدث ابن الأثير عن « قوة قليل إن قوامها كان ٢٠,٠٠٠ رجل » . ويمكن في هذه الحالة استبعاد الفرضية عن رسالة رسمية ، لأن عماد الدين ينسخ أيضاً نص الرسالة التي بُعثت إلى الموصل بهذه المناسبة (البرق r 139 - 138 V) ، وفي هذه الوثيقة يُعطى عدد الجيش السلجوقي بـ ٣٠,٠٠٠ رجل .

وفي ذكر عدة حوادث^٣ الذي يختتم به ابن الأثير عادة أحداث السنة ، نجده قد أدرج (I, 640 (305 - 304) عبارة مفادها ان صلاح الدين ، إزاء العرض الذي قدّمه توران شاه بمبادلة بعلبك مع الاسكندرية ، في شهر ذي القعدة (أي : نيسان سنة ١١٨٠) ، قام باعطاء بعلبك لابن أخيه فروخ شاه ، الذي عمده بعد ذلك إلى مهاجمة أراضي الفرنجة حتى صفد . فهو قد جمع هنا ، كما فعل غالباً ، فقرتين في واحدة ، لكن الفقرة الأولى تسبق الثانية بسنة . إن توران شاه غادر إلى مصر عند نهاية ذي القعدة عام ٥٧٤ هـ (ايار ١١٧٩) (البرق r 121 - 120 V = أبو شامة II, 6 (٣)) . وتمّ تعيين فروخ شاه على بعلبك في سنة ٥٧٥ هـ ، أما

٣ - جرى إدراج هذا التاريخ خطأ تحت عام ٥٧٣ هـ في R.H.C. Or., IV, 196

إغارته على صفد فتمت في شهر ذي القعدة من تلك السنة (يؤرخها عماد الدين بالضبط في ١٨ منه : ١٥ نيسان . راجع إبا شامة 15, II, *) .

سوف يتبين من هذه الخلاصة انه بالنسبة لتاريخ بلاد الشام خلال هذه السنوات الثلاث لا توجد واقعة مذكورة في تاريخ ابن الاثير دون ان يذكرها كتاب عماد الدين ، باستثناء العبارة المخطئة بصدد الهجوم على حماه في تشرين الثاني ١١٧٧ وذكرى شخصية صغيرة عن رؤية رسالة لصالح الدين (يرد الحديث عنها في المجلد XI, 2093) . والواقع ان الشيء الوحيد الذي يحول بيننا وبين التوكيد الصريح بأن كل واحدة من هذه الروايات كانت مستقاة من البرق هو العادة التي درج عليها ابن الاثير بثبات في إعادة صياغة محتوى الفقرات التي يستخدمها بلغته الخاصة ، مما يؤدي إلى استبعاد الحجة النهائية عن التطابق في التعبير اللغوي .

السنة الهجرية ٥٧٨ : يستهل الجزء الذي وصل إلينا من المجلد الخامس لكتاب البرق حديثه بمسيرة صلاح الدين إلى أعالي ما بين النهرين في أواخر صيف ١١٨٢ . ويوضح عماد الدين بانه قد أتى إلى الشمال تحذوه النية الحقيقية لمهاجمة حلب ، وان خططه لم تتبدل على نحو غير متوقع إلا عقب وصوله إلى هناك ومن جراء الشكاوى التي رفعها كوكبوري . أما ابن الاثير (XI, 317) (I, 653-6542) ، من جهة ثانية ، فيعلن بأن كوكبوري كان على اتصال مع صلاح الدين خلال الهجوم الفاشل على بيروت في شهر آب ، وان التقدم اللاحق على حلب كان خدعة . والسبب الكامن وراء استبداله لعبارة عماد الدين المستقاة من مصدر أولي بهذه الصيغة ليس واضحاً . ربما كانت هذه هي الصيغة الشائعة في الموصل ، ولهذا السبب فقد فضلها . لكن هذا الأمر يشبه الى حد قريب ظاهرة يتكرر العثور عليها في كتابه ، وسوف يأتي بحثها فيما بعد . وتوصف العمليات في بلاد ما بين النهرين في المصدرين

على نحوٍ مشابه للغاية ، فلا تعدو إضافات ابن الأثير سوى إضافة واحدة وهي حكاية شخصية صغيرة تتعلق بحصار الرها . إن رواية عماد الدين ممعة في الزخرفة والتنميق ، وأبو شامة في تلخيصه قد اختصر كل صفحة إلى سطر واحد (II, 32*) ، لكنه بعمله هذا حذف الإشارة إلى حصار الرها والتي توجد في النصّ الأصلي (الورقة 20 r) . هكذا نرى للمرة الثانية في هذه الملاحظات بأن ما ظهر من تلخيص أبي شامة وكأنه ذبول أضافها ابن الأثير لروايات عماد الدين كان يؤلف على حدّ سواء أجزاءً من النصّ الأصلي .

ويقف ابن الأثير فوق أرضه الخاصة بالنسبة لحصار الموصل ، لكن ما يجب الإقرار به هو أن روايته (XI, 319 - 320) تعطي انطباعاً مرضياً للغاية. إن وطنيته تستهلك نفسها في نواذر تافهة وخيالية (ومعظم هذه النواذر قد حذفها محررو Recueil, I, 656 - 657) ، على حساب استبعاد العوامل العامة في الوضع ، وهي عوامل ، بعكس ذلك ، يجري إبرازها على خير وجه في السطور القليلة التي كتبها زميله المواطن الموصلّي بهاء الدين . غير أن خلاصته للمفاوضات مع صلاح الدين تتفق ، على الأقل بالنسبة لنتائجها ، مع الرواية التي يوردها عماد الدين (البرق 16 - 11, V) ، الذي كان المفاوض الفعليّ بالأصالة عن صلاح الدين .

ولا تضيف الرواية التي تلي مباشرة عن العمليات في الجزيرة (XI, 321 - 323*) أية معلومات إيجابية إلى العبارات الواردة في البرق (ص ١٧ وما بعدها ، ص ٤٩ وما بعدها) ، لكن ابن الأثير يُدخل ، كما في روايته لحصار الموصل ، بعض التفاصيل المشتعلة على النواذر وتأمّلات عامة لها حظّ ضئيل من الصحة التاريخية أو أنها لا تملك أيّ صحة تاريخية . ومما يجب تذكره أن إحدى الصيغ الشائعة لكتابة التاريخ العربي هي تقديم وضع من خلال أحاديث متخيّلة أو عبارات على لسان الأشخاص المعنيين ، وليس هناك من مبرّر على الإطلاق

لاعتبارها بمثابة سجلات للأحداث الفعلية . ان ابن الاثير يذهب إلى درجة الإفراط في هذا الأسلوب « الرومانسي » . لكن عماد الدين ايضاً يلجأ إليه من حين إلى آخر ، تارة بتجاذع وطوراً بصورة مضللة — كما يفعل ، على سبيل المثال ، في تصويره لما يفترضه بأنه كان سياسة الصليبيين أو موقفهم في لحظة معينة .

إن العمليات البحرية في البحر الأحمر والتي استندت عليها مغامرات أرناؤط (رجينالد) الحرية قد جرى إعلانها بالتأكيد على كافة أنحاء العالم الإسلامي بواسطة الرسائل. ويجمع حديث ابن الأثير عنها ([I, 658] [XI, 323]). كما يبدو بين رواية عماد الدين التمهيدية ([IV, 230 H] [II, 35] أبو شامة = V, 42v) والرسالة التي حملها هو بالأصالة عن صلاح الدين إلى بغداد (V = 46 - 45) أبو شامة، ([IV, 233 - 35] [II, 37]). أما وفاة فروخ شاه واستبداله بابن المقدم والياً على دمشق ([I, 659] [XI, 324]). فلأنهما يوصفان بالطبع وصفاً أطول بكثير في البرق (r 46, r 36).

السنة الهجرية ٥٧٩ : تفتتح هذه السنة بمحاصرة صلاح الدين لمدينة آمد وباسببيلاته عليها (XI, 324 - 325*) ، وقد كرس عماد الدين لهذه الحادثة أحد الأقسام الأشد صغلاً في كتاب البرق الشامي (II, 37 - 38* ; 49 r - 65 r). فلا مجال هناك للشك المعقول بأن هذا يؤلف المصدر لرواية ابن الأثير التي لا تفرق عنه إلا بتفصيل واحد . فابن الأثير ، لكي يفسر نجاح صلاح الدين غير المتوقع ، ينحي باللوم ، بصورة واهية نوعاً ما ، على جمع الحاكم ، بحيث يتعارض قوله مباشرة مع عبارات عماد الدين الصريحة (الورقة 60r). والطبيعة المصطنعة لهذه الحيلة تتبدى في جلاء بارز من خلال كون ابن الأثير يعاود استعمالها بعد صفحة أو صفحتين من كتابه فقط للتقليل من شأن نجاح صلاح الدين في الاستيلاء على حلب .

وتسير رواية الاستيلاء على تلّ خالده وعيتتاب (XI, 325*) عن كُتب في

نخطوط البرق ورسالة القاضي الفاضل التي يرد ذكرها هناك (V, 77v-78r) :
اما الرواية التي تليها مباشرة (المكان نفسه ، [I, 660]) عن الاستيلاء على سفينة
كبيرة للصليبيين وصدت هجوما للفرنجية على مصر ، فهي مأخوذة بوضوح من
الرسائل التي يستشهد بها البرق ص 105 r وما بعدها (ابوشامة [IV, 239] [II, 47]).

ولا تحتوي رواية الاستيلاء على حلب ([I, 661] [XI, 327]) سوى النزر اليسير مما
يتعدى الحقائق المجردة وبعض التعبيرات الامتعاضية لأمرها عماد الدين
زنكي . لكن القصة التالية عن تنبؤ مسبق بالاستيلاء على القدس (وهو محذوف
من Recenil) تصدر رأساً عن البرق (راجع ابا شامة *II, 45) . وابن
الاثير في تلك الحالة يستشهد بعبارتين مأخوذتين من رسالة ، لكنها ليست
برسالة رسمية ، بل رسالة خاصة بعث بها القاضي الفاضل إلى العادل ، أخيه
صلاح الدين والحاكم في مصر . علاوة على ذلك ، وبطريقة مألوفة لسدى
الدعويين في جميع العصور ، فإنه يعزل إحدى هذه الجمل عن قرينتها
ويفسرها على نحو يبدو مغلوطة على الفور من خلال الاستشهاد بالقرينة
كله (4) .

وتستند قصة وفاة اخي صلاح الدين الملحقه برواية الاستيلاء على حلب
(XI, 328*) هي ايضاً إلى مقطع عماد الدين في البرق (الورقة V 96) (راجع
ابا شامة *II, 44). لكن ابن الاثير عالجها بطريقة اكثر « رومانسية » ، مضيفاً
إليها إضافة مريبة في ان صلاح الدين كان ينوي إعطاءه حلب . كما ان الحادثة
التالية عن تحويل حارم تروى على المنوال نفسه كما في كتاب البرق

٤ - العبارة هي « أعطناه (أي عماد الدين زنكي) ما لم يبارح يدنا » ، ويفسرها هو بأنها
« تعني انه كان يستطيع استرجاعها متى شاء ذلك » بسبب ضعف دفاعاتها . لكن النص الأصلي
يقول : « تلقى سيدها (أي سيد حلب) بدلا عنها بعض المناطق في الجزيرة على شرط الخدمة
في الجهاد بمجموعة كاملة ومتومة من الجنود . وهكذا فهي تبقى بأيدينا في الواقع » لأن ما نرغبه
من المناطق هو رجالها وليس ريعها » (ابو شامة II, 43 ومن البرق V, 94v).

[IV, 238] II, 47 (ابو شامة = 89 V) ، حيث يتم وصفها رئيسياً عن طريق الاستشهادات المأخوذة من الرسائل .

ويلعب المدخل التالي دوراً حاسماً في إجراء تقدير لكون ابن الاثير جديراً بالثقة والاعتماد . في أعقاب الحديث عن عدد من تابعي الموصل الذين نقلوا ولائهم إلى صلاح الدين ، يتحدث ابن الاثير باختصار (XI, 230*) عن المفاوضات التي تلت ذلك في دمشق بين رسل دار الخلافة ورسل الموصل وبين صلاح الدين . وتعالج الحادثة بالتفصيل في كتاب البرق (127r - 132v) ، بما أن عماد الدين لعب فيها دوراً رئيسياً . وبمحض صدفة استثنائية ، لدينا أيضاً عبارة من الجانب الآخر ، لأن بهاء الدين كان عضواً في وفد الموصل . إن روايته الموجزة (Schultens, 57 [III, 78-79]) تثبت صحة رواية عماد الدين ودقتها . ومع ذلك ، فإن ابن الاثير استبدل النقطة الحقيقية للخلاف بمعادلة مختلفة كل الاختلاف ، لكي يتسنى له إبراز صلاح الدين وكأنه على عدااء راسخ لأي تسوية للخلافات مع الموصل (ه) .

لقد انتهت السنة بحملة على بيسان (أواخر ايلول) في مسعى لجرّ الفرنجة إلى المعركة ، وبمحاصرة الكرك غير مجد على حدّ سواء . فالأمر يصفه عماد الدين في رسالتين متوازيتين (ابو شامة ، II, 50-51; [IV, 244-248]; IIIV ~ 116v) بحيث تؤلف رواية ابن الاثير (XI, 230 [I, 663]) تلخيصاً لهما . ويوصف حصار الكرك بصورة مباشرة (118r - 119r, 126r) ، إذ يقطع إطاره تعيين العادل

ه - يقول ابن الاثير (XI, 230) : « قال صلاح الدين : انتم لا رأي لكم بشأن جزيرة ابن عمر وإربيل » . فرفض محيي الدين (مبعوث الموصل) قبول هذا وقال : « إننا نخشاه » لكن صلاح الدين لم يوافق على الصلح إلا حسب الشروط التي تكون بموجبها الجزيرة وإربيل له . ويتفق كل من عماد الدين وبهاء الدين على أن المعادلة المعروضة على محيي الدين والمرفوضة من جانبه كانت تقول بأن هذين الأميرين يجب أن تكون لهما حرية الاختيار بين سلطان صلاح الدين أو سيادة الموصل . لكن ما لا ريب فيه أن المسألة أسفرت عن النتيجة إيجاباً في الغالب عند نهاية الأمر .

على حلب وتقي الدين على مصر . مع صكوك تعيينهما بالتالي . ثمة تفصيل مشمول في رواية ابن الاثير (XI, 231 [I, 664]) . ويتعلق بذريعة معدّات الحصار غير الكافية . فلانه يشير بوضوح الى مصدر ابن الاثير : لكونه مستقى مباشرة من الرواية التي ترد في البرق (الورقة 126r) . مع ان ابا شامة قد حذفه (II, 51 [IV, 248]) .

نتهي عند هذه النقطة الاقسام المتبقية لدينا من كتاب البرق الشامي . لكن التحليل المقادّم يكفي لتبيان ما يلي : (أ) إن كتاب البرق هذا هو المصدر الرئيسي الذي استخدمه ابن الاثير في رواياته عن أعمال صلاح الدين . وهي حقاً روايات لا تعدو كونها اعادة سبك موجزة لأبوابه الرئيسية . (ب) انه حيثما يزودنا ابن الاثير بتفصيلات غير موجودة في تلخيصات ابي شامة ، فهي توجد رغم ذلك على العموم في النصّ الأصلي . (ج) إن ابن الاثير يقوم أحياناً بتبديل عبارات مصادره أو بتحريف معناها مدفوعاً بالعداء لصلاح الدين . يمكننا الآن ، في ضوء هذه الاستنتاجات ، مقارنة روايات ابن الاثير عن السنوات المتبقية مع تلخيصات ابي شامة من كتاب البرق ، وتقدير القيمة التي تملكها كمصادر تاريخية مستقلة . ومن الجليّ ان هذه مهمة مطوّلة جداً حتى يتسنى القيام بها ضمن حدود مقالة واحدة . لكن النظر في عدد مسن الأمثلة قد يبرّر التوصل الى بعض النتائج المحددة تماماً .

إن ابن الاثير . فيما يتعلّق بالسنوات الباكرة لصلاح الدين في مصر وقبل وفاة نور الدين ، أي من ١١٦٩ إلى ١١٧٤ ، غالباً ما نسخ في كتابه الكامل المقاطع الوثيقة الصلة من كتابه الأسبق عن تاريخ اتابكة الموصل (والعنوان الأصلي لهذا الكتاب هو « التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية » . المغرب) . هذه الأقسام يمكن التسليم بأنّها مستقلة عن أعمال عماد الدين ، لكنها على غرار القسم المستقلّ الذي استشهدنا به فيما سبق ، تؤلّف شذرات غسيرة مترابطة وتشتمل على الحكايات والنوادر . ومن جهة ثانية ، فإن عماد الدين كان عند هذا الحين واحداً من كتّاب نور الدين بدمشق ، وكان بالطبع واسع

الإطلاع على نشاطات صلاح الدين . فإعجابه بنور الدين كان يضاهي إعجاب ابن الأثير صادقاً وإخلاصاً ، وأقواله عند هذه الفترة هي أقل ما يمكن ان تكون عرضة لتهمة التحيز المفرط إلى جانب صلاح الدين ، لذا فالأكثر مثاراً للدهشة هو ان تلقى روايات العماد إهمالاً جامعاً من جانب المؤرخين المحدثين رغم اختلاف عماد الدين عن ابن الأثير في نقاط عديدة (وأشهرها ما يتصل بطريقة وتاريخ استبدال الولاء الفاطمي بالولاء العباسي في مصر عام ١١٧١) . حتى ان ابن الأثير نفسه فعل أحسن من ذلك . وسوف نرى فيما بعد أنسه أدخل ، وإن يكن هذا الإدخال بتعديلات لا يستهان بأمرها ، مواداً من عماد الدين في تاريخه لهذه السنوات ، بعد قيامه بتكييفها وفقاً لصورته الخيالية والغنية بالألوان عن صلاح الدين في طموحه الذي أحبط خطط نور الدين للحرب المقدسة (الجهاد) (٦) .

غير انه يمكننا ، قبل النظر في هذه الأمور ، ان نتفحص روايات ابن الأثير عن الحملتين اللتين سيرهما صلاح الدين ضد حلب في العامين ١١٧٥ و١١٧٦ فهي تقدم عدداً من الدلائل الطريفة . فمن البادي ان أخبار هاتين الحملتين (واللتين أنهزمت فيهما جيوش الموصل مرتين) لم ترو في التاريخ الباهر للدولة الأتابكية . لقد هوجم صلاح الدين من جانب الحشاشين في كل حملة منهما : وروايات ابن الأثير عن هذين الهجومين ([618, 623 - 624] I, 277, 285 XI)

٦ وفي مناسبة متأخرة ، ليست وثيقة الصلة مباشرة بصلاح الدين ، كان على ابن الأثير أن يطرح جانباً كل الأطراح واحدة من هذه القصص الباكورة . فبعدما روى في تاريخه الباهر للدولة الأتابكية (336 - 335 و 2, II) عن حصار عز الدين لأخيه سنجر شاه في جزيرة ابن عمر من ربيع الأول عام ٥٨١ هـ (حزيران ١١٨٥ م) ، اكتشف من خلال عماد الدين انه في ذلك الشهر بالضبط كان سنجر شاه وقواته يرافقون صلاح الدين في مسيرته الثانية ضد الموصل ومحاصرتها . والحقيقة الأخيرة يورخ لها كما يجب في كتاب الكامل (XI, 336) ، كما ان حصار عز الدين للجزيرة قد اختفى كلياً من صفحاته .

هي منسوخة بشكل يمكن تمييزه ورغم إعادة السبك اللفظي ، عن روايات عماد الدين (انظر أبا شامة * 258, 240 I, وراجع النسخ الموازي عن الأول من جانب ابن أبي طي * 239 I) . لكنّه من المتوقع فحسب ان ظروف المعركتين اللتين هزم فيهما صلاح الدين قوات الموصل سوف يبرزها ابن الاثير على نحو مختلف نوعاً ما في التفاصيل ، وهذا ما يذهب به حقاً إلى آخر درجة مسن السخف عبر القول (* 283 XI) إنه في المعركة الثانية لم يُقتل سوى رجل واحد من الجيشين .

وفي ذيل ملحق بهذه الرواية (محذوف من Recueil) يشير ابن الاثير مباشرة وللمرة الوحيدة دون سواها إلى عماد الدين بقوله : « ذكر العماد ، الكاتب ، في كتاب البرق الشامي عن تاريخ حكم صلاح الدين ، ان جيش سيف الدين في هذا الاشتباك ضمّ ٢٠,٠٠٠ من الفرسان » . ولكي يتبدى سخف هذا القول فهو يمضي إلى تبيانته بمتنهى الحق ، وعلى أساس سجلات (ديوان) الجيش في الموصل . إن عماد الدين يشارك بالواقع ، وإن تكن مشاركته على درجة معتدلة نسبياً ، في النزعة الشائعة لدى معظم مؤرخي الأحداث في القرون الوسطى بتضخيم ارقام الجيوش المعادية . ولقد سبق لنا ورأينا أعلاه كيف ان ابن الاثير يضع علامة استفهام ضمنية على تقدير مماثل من تقديراته . غير ان عماد الدين في هذه الحالة يحوز عنده جزئياً . فهو لم يؤكد بأن جيش سيف الدين كان مؤلفاً من ٢٠,٠٠٠ رجل ، بل ذكر بطريقة أشد حذراً بأنه عندما تقدّم صلاح الدين شمالاً « وصلتنا الأخبار ان عددهم بلغ ٢٠,٠٠٠ من الفرسان ، ما عدا قافلة التموين والمدد خلفهم » (ابو شامة * 2-11, 255 I) . لكن ابن الاثير ، بمعزل عن هذا الجدل الخلافى ، يقدم هنا برهاناً صريحاً على استخدامه لكتاب البرق ، رغم انه لا يدخل اسم الكتاب إلا بإشارة عرضية فقط — وهذا يشكل بدوره (كما هو معروف عنه جيداً) الحد الأقصى لإطلاقاً من من إقراره بدينه الأدبي . وليس من قبيل الخيال ان نشتم من ملاحظاته شيئاً

من التلذذ لديه في القدرة على الاكتشاف بأن عماد الدين يورد بياناً كاذباً للوقائع ، ولو لمرة واحدة .

وفيما تبقى ، يمكن القول عموماً بأنه ، إلى جانب التعليقات ، لا يوجد شيء في تاريخ ابن الاثير المتصل بتاريخ صلاح الدين في هاتين السنتين أو في أية مسن السنوات الأنخسرى التي لم تتناولها المجلدات الموجودة لدينا من كتاب البرق ، دون وجوده في منتخبات أبي شامة على درجة اشمل وأكثر مبعثاً للرضا من حيث العرض . لقد سبق ورأينا بأن ابن الاثير في عدد مسن الحالات لم يحصر نفسه البتة بتقصير روايات عماد الدين وإعادة سبكها فحسب بل عمد بشكل تعسفي إلى إعادة ترتيبها كلتاً وجد ذلك ملائماً لغرضه . إن مقارنة الكامل بكتاب الروضتين (وبكتاب الفتح للسنوات الآتية بعد ١١٨٧) لا تترك مجالاً للشك في أنه ينبغي اعطاء التفسير ذاته في مقاطع عديدة حيث يفرق المصدران حول بيان الحقائق .

فالروايات عن حصار صلاح الدين للموصل عام ١١٨٥ ولمدينة صور عام ١١٨٧ تزودنا بمثالين بارزين عن هذا الأمر وعلى نحو خاص . وكما روى ابن الاثير ، فإن عز الدين بعث بنساء الاسرة الزنكية للتدخل مع صلاح الدين لدى اقترابه من المدينة في حزيران ١١٨٥ ، لكنّه رفض شفاعتهنّ وبدأ في تنفيذ الحصار (*X1, 337). أما عماد الدين ، من جهة ثانية ، فيضع هذه الحادثة بشكل محدد عند اواخر النزاع مع الموصل ، أي عندما عاد صلاح الدين إلى الموصل ، وعقب قطع الحصار عنها مؤقتاً ، في تشرين الثاني من السنة ذاتها (ابو شامة *II, 64). لقد كان هذان المؤرخان في الموصل عندما وقعت هذه الأحداث ، وتنازع الأدلة يبدو مطلقاً . فلا سبيل إلى الجدل بأن رواية عماد الدين هي الرواية الأكثر طبيعياً والأشد تماسكاً في ذاتها ومع الظروف ، بينما قام ابن الاثير بتحريفها لكي يظهر صلاح الدين في أسوأ ضوء ممكن ، وبصورة واهية في الأخرى ، للتقليل من شأن عمل على هذا الجانب من التطرف . فهو

يقول : « إن إيفادهن لم يكن بدافع أي ضعف ، أو عجز في الدفاع عن الموصل ، بل أرسلهن رغبة منه في الحيلولة دون شرور الحرب بانتهاج مسار أفضل للعمل » . وفضلاً عن ذلك ، يؤكد عماد الدين بأن صلاح الدين ، استجابة منه لندائهن ورغم كونه عاجزاً عن منح كل الأشياء التي طالبن بها ، وافق على قبول وساطة عماد الدين زنكي في سنجار ، وتمتعت عن طريق هذه الوساطة في الواقع تسوية النزاع نهائياً .

أما الحادثة الثانية فإنها أكثر جلاءً من الأولى ، ففي روايته عن حصار صور خلال شتاء سنة ١١٨٧ ، كما بالنسبة لكل الأحداث التي جرت بفلسطين خلال تلك السنة ، لا مجال للشك هناك بأن مصدر ابن الأثير كان كتاب الفتح لعماد الدين ؛ لكنه عندما يعرض الأسباب لعدم متابعة الحصار (XI, 368 [I, 709 – 711]) فهو يعتمد قلب الفقرات الواردة في كتاب الفتح والمتصلة بمشاورات صلاح الدين مع الأمراء وباتسحابه (راجع أبا شامة II, 119 – 120 [Iv, 343 – 344]) . وتفسر النتيجة عن تصوير صلاح الدين وكأنه قد اتخذ القرار بالتخلي عن الحصار قبل تمرد الأمراء ، فيصبح إذًا عملهم برفض القتال وسحب رجالهم ضرباً من السخف . ولا يكتفي ابن الأثير بتشويه الحقائق وتقديم صورة مشوشة وغير متماسكة ، بل يمتدح إلى الإنحاء على صلاح الدين بالسوء الشديد على عمل تقع مسؤوليته إلى حد كبير على عاتق إخوان ابن الأثير من عساكر الموصل .

وفي تحليلنا للمجلد الخامس من كتاب البرق ، تمّ العثور على حالتين تعتمد ابن الأثير فيهما تبديل الوقائع التي رواها عماد الدين . إن العدد الإجمالي للحالات المماثلة كبير تماماً ، ويمكن إيراد مثالين صارخين هنا .

المثال الأول هو الفقرة المتعلقة بنجدة حامية عكا والتخفيف عنها خلال شتاء سنة ١١٩٠ (II, 32 – 33 [XII, 35 – 36]) . إن هذه الفقرة بكاملها هي نسخة

عن فقرة في كتاب الفتح (راجع ابا شامة [IL, 181 - 520] IV, 519) ، حتى ان بعض تفاصيلها غير قابلة للفهم تماماً بدون مساعدة من الرواية الأكثر شمولاً في الفتح . وما يجب ملاحظته ، إن عماد الدين ينتقد الحكمة فسي تصرف صلاح الدين بهذه المناسبة . كما في بعض المناسبات الأخرى ، لكنه يصف بصراحة النشاط الذي قاد به العملية والطاقة التي استحثت بها عملاء وامراء جيشه لبذل مزيد من الجهود . هذه الفقرة الأخيرة يحذفها ابن الاثير كلياً ، ويستبدلها بما يلي : « أضف إلى ذلك قوة استمرار صلاح الدين وإلقاءه بكل المسؤولية على كاهل قواده » (V) .

والمثال الثاني هو أكثر لفتاً للنظر . لدى عودته من الشرق عام ١١٨٦ توقف صلاح الدين مدة من الزمن في حمص ، حيث كان ابن اخيه ناصر الدين بن شيركوه قد توفي لتوّه ، تاركاً ابناً قاصراً . فقام صلاح الدين بتبني الصبي في ملكية إقطاعات أبيه ، تحت وصاية مقدم ينتمي إلى فرقة شيركوه القديسة والمعروفة بـ الأسديّة . « عملنا جردة » بكنوز ناصر الدين (يقول عماد الدين ، كما ذكره ابو شامة [II, 69]) ، وقمنا بتقسيم إرثه . كانت نسبة الثمن هي من حقّ أخت السلطان ، الحساميّة ، زوجة ناصر الدين ، وجرى تقسيم الباقي بين ابنته وابنه . إن جماع ممتلكاته ، من الأراضي والنقود المصكوكسة والأثاث ، تجاوز التقدير وبأية حال أربى على أكثر مسن مليون دينار . فالسلطان لم يلقَ عليها نظرة عجيلى ، بل قام بتسليمها كلها إلى الورثة الشرعيين . ويبدأ ابن الاثير روايته للحادثة (XI, 341*) بالحديث عن مؤامرة خطط لها ناصر الدين بالتعاون مع بعض قوات دمشق خلال مرض صلاح الدين ، ثم أعقبها موته المفاجيء . ثم يضي ابن الاثير ، دون الاتيان على ذكر مصادره الموثوقة ، قائلاً : « ويقولون — لكن على ذمة الراوي — إن صلاح الدين

v — يذهب ميشو Michaud خطوة أبعد من ذلك بترجمته (Bibliothèque, IV, 297-298) لكلمة inertia بمعناه « الخمول المعتاد » (« indolence accoutumée »)

حرض رجلاً يدعى الناصح بن العميد من دمشق ، فجاءه هذا الرجل وانضمَّ
 إلى مجلس شرايه واعطاه كأساً مسمومة ... وعندما توفي اعطى صلاح الدين
 الإقطاع إلى ابنه شريكوه الذي كان له اثنتا عشرة سنة من العمر . لقد ترك
 ناصر الدين ثروة واسعة في الأموال والخيول والسلع ، فجاء صلاح الدين
 إلى حمص وجرد الممتلكات ، وأخذ معظمها لنفسه ، تاركاً سقط المتاع فقط .
 وأخيراً يجري تدعيم القصة بدعامة مثيرة ومجهولة : « وقيل لي ... » مما تجدر
 ملاحظته ان هذه هي المرة الوحيدة فقط التي يغتنم فيها ابن الاثير فرصة لانها
 صلاح الدين بممارسة الاغتيال والاستيلاء على أملاك الغير ، تلك الممارسة التي
 تظهر بشكل بارز في حوليات العصر السياسية . لقد استفاد منها إلى أبعد
 حد ، والقسم الثاني من القصة ، على الأقل ، جرى تكراره في كل التراجم
 اللائحة تقريباً لصلاح الدين . وحتى في تراجم المادحين أمثال ابن خلكان
 وتاج الدين السبكي (٨) . والحق ، أن اختلاق ابن الاثير في هذه الحادثة كان
 ناجحاً إلى درجة ان البارون دي سلين في ترجمته للفقرة المتعلقة بذلك مسن
 سيرة صلاح الدين لبهاء الدين (III, 87) وبسخ القاضي المخلص على « إعجابه
 الأعمى » بصلاح الدين ، هذا الإعجاب الذي حمّله في تصنيف كتابه على
 إخفاء حادثة لم تنشر على العالم إلا بعد بضع سنوات وفي تلك الظروف المريبة .
 وفيما يتعلق بهذه الحادثة الأخيرة ، يمكن القول ان ابن الاثير لم يبدل رواية
 عماد الدين ببساطة ، بل روى صيغة تختلف تمام الاختلاف ، ولا تستند إلى
 عماد الدين بأي شكل من الأشكال . إلا أنها موضوعة في إطار من التسلسل
 الزمني والأحداث مأخوذ برمته من كتاب البرق ، وما لا يقبل التصور ان
 ابن الاثير كان غير مدرك لقول عماد الدين الوارد بصيغة المتكلم . لذا يجب
 اعتبار الرواية التي يوردها بمثابة إنكار متعمد لقول عماد الدين ، واستبداله
 بقول آخر مستقى من مصادر لا يهتم بتسميتها ، والمهدف من وراء ذلك هو

٨ - انظر طبقات الشافعية (القاهرة ، ١٣٢٤ هـ) ج ٤ ، ص ٣٢٩ .

إظهار صلاح الدين بأنه ليس أفضل من أي أمير آخر في زمانه .

لكن تشويحات ابن الأثير تبدو غالباً وكأنها ناشئة عن فقرات وعبارات من عماد الدين بواسطة الدمج أو التفسير . ويمكن العثور على مثال من ذلك في قوله الذي سبقت الإشارة إليه ، حيث ينسب استسلام حلب إلى جيش أميرها عماد الدين زنكي ([I, 661] XI, 327) . فابن الأثير يعبر عن هذا ، كعادته ، بتعبير صوريّة بلطال قام بين الأمير وقواته . لكن أساس الحادثة يبدو انه قول عماد الدين في كتاب البرق (V, 84v) بأن الأمير « وجد انه يدفع ٣٠,٠٠٠ دينار كل شهر للعساكر والامراء ، وإذا امتدّ الحصار طويلاً دون أمل بالنجاح ، فإنه سوف يحسّر كل المكاسب ويصبح على افلاس تام » . وبعد إجراء هذا الحساب عمد إلى فتح باب المفاوضات مع صلاح الدين .

طبعاً ، إن مثلاً مفرداً لا يشكل برهاناً ، وقد يكون من الصعب اكتشاف حالات أخرى لان معظم اقسام كتاب البرق هي مفقودة . وفي هذه الحالة بالذات ، فإن الفقرة الواردة أعلاه محذوفة من تلخيص أبي شامة (II, 42*) . إلاّ ان حالة مماثلة من المحتمل رؤيتها في رواية ابن الأثير عن حصار الصليبيين لدمياط في تشرين الثاني — كانون الأول ١١٦٩ [I, 569] XI, 231 ، رغم ان « التصحيح » في هذه الحالة لم يحجر على رواية عماد الدين ، بما ان الرواية ذاتها ترد في التاريخ الباهر للدولة الاتاكية [II, 2, 259] . وتبعاً لهذه القصة ، فإن نور الدين — بناء على مناشدة صلاح الدين له والتنبيهات الملحة بأنه لا يستطيع المجازفة بإرسال قواته الى دمياط نظراً لخطر نشوب تمرد في القاهرة » — فجهّز إليه العسكر أرسالاً ، كلما تجهّزت طائفة أرسلها فسارت اليه يتلو بعضها بعضاً » . ومن جهة ثانية ، يذكر عماد الدين (الذي يحذر التذكير بأنه كان حينذاك في دمشق يعمل في خلسة نور الدين) بأن نور الدين « أتهّض من عنده عسكرياً ثقيلًا ... يخوض بهم بحر العجاج الأكلر ، فوصل في النصف من ربيع الأول قبل رحيل الفرنج بأسبوع . (أي حوالي ١٠ كانون الأول) .

(ابو شامة I, 181 [IV, 151])^(٩). وفي الوقت ذاته ، يروى بأن صلاح الدين بقي في القاهرة و « يرسل إليهم المدد بعد المدد » . من المحتمل ان الروايتين تستندان إلى رسالة تبليغية أصدرها نور الدين ، والتفسير الأكثر ترجيحاً لهذا الاختلاف هو ان ابن الاثير نقل العبارة حول صلاح الدين وأطلقها على نور الدين ، لكي يرسم صورة لافقة للنظر من اعتماد صلاح الدين عليه . وجدير بالملاحظة ان غليوم الصوري (II, 363 - 367 ترجمة : 15 - 16 XX) يتفق ، كالعادة ، مع عماد الدين ضد ابن الاثير .

وترد حالة أشد جلاء من حالات «إعادة التفسير» بسعد صفحات قليلة ([XI, 258 I, 593]) ، عندما يروي ابن الاثير عن صلاح الدين - عقب إخفاقه في التعاون مع نور الدين على حصار الكرك في ايلول ١١٧١ - بأنه انسحب من حملة مشتركة على الكرك للمرة الثانية في تموز ١١٨٣ ، لدى تلقيه أخبار عن اقتراب نور الدين . وحسب رواية عماد الدين ، التي تؤيدها بنود تقرير رسمي عن العمليات رفعه صلاح الدين إلى نور الدين ، فإن الغرض من حملة صلاح الدين كان لطرد البدو الذين كانوا يعملون كأدلاء في خدمة الفرنجة بالكرك ، وبالتالي لجعل الاتصالات بين مصر والشام مأمونة أكثر (ابو شامة I, 206 [IV, 156 - 157]) . إن هذا القول يؤكد أيضاً غليوم الصوري تأييداً تاماً (II, 389 - 390 trans., XX, 28) . وعندما كتب التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية لم يكن ابن الاثير على أي معرفة بهذه الحادثة . فمما لا يرقى اليه الشك هو انه لدى عثوره عليها في كتاب عماد الدين استخدمها لنسج قصة عن رفض صلاح الدين المستمر للتعاون مع نور الدين في الحرب المقدسة ، دون التفات منه إلى الحقيقة بأنه كان قد ذكر قبل بضعة

٩ - إن ترجمة الـ Recueil تذكر صلاح الدين خطأ بدلا من نور الدين في السطر الرابع عشر ، وتخطئ في ترجمة « بأسبوع » إلى « بضعة أسابيع » « quelques semaines »

أسطر فقط بان نور الدين في هذا الوقت بالذات كان يخوض حملة في بلاد
الأناضول .

ومثال نهائي ينبغي أن يكون كافياً . يروي ابن الأثير ((XI, 347 [I, 674])
في اختصار ، خبر الأحداث التي تلت وفاة بغدوين الرابع والشقاق الذي حصل
بين ريموند وعي . فأدّى إلى التحالف بين ريموند وصلاح الدين . هذه الرواية
مأخوذة دون أي شك من فقرة لعماد الدين في كتاب الفتح (١٧ - ١٨) تحتم
بالكلمات التالية : « وهو (ريموند) شجع السلطان في تصميمه على مهاجمتهم
لكي يعيد إليه المملكة » (ابو شامة يحذف هذه العبارة [IV, 257 - 258] [II, 74]).
ويستعيض ابن الأثير عن هذه الكلمات بما يلي : « فوعده صلاح الدين
بمساعده والسعي في سبيل حصوله على كل رغباته ، وتعهد يجعله ملكاً على
جميع القرنية في المستقبل » .

لئن كانت الحجة المتقدمة صحيحة ، فإن النتيجة التي تشير إليها هي
بالأحرى نتيجة تبعث على القلق . فبدلاً من مجموعة من المصادر المعاصرة
والأولية والمستقلة إلى حد كبير حول تاريخ صلاح الدين من الجانب العربي ،
ليس في حوزتنا ، حتى انضمام بهاء الدين إلى صلاح الدين عام ١١٨٨ ، سوى
مصدر رئيسي واحد ذي طابع مباشر ، تلحق به إضافات مجزوءة من مصادر
أخرى ، وأبلغها أهمية هو ابن أبي طي . والاسوأ من ذلك ، هو أنه حتى ذلك
المصدر الرئيسي فلم تصلنا منه سوى نسبة الثلثين ، وفي الصيغة التي بقدها تلخيص
أبي شامة ، هذا التلخيص للدين ندين له أيضاً بكل ما تبقى تقريباً من تواريخ
ابن أبي طي .

لذا نجدنا أمام سؤالين بحاجة إلى جواب . السؤال الأول ، إلى أي مدى
يمكننا التعويل على صدق مصدرنا الرئيسي الأوحده ، عماد الدين الكاتب ،
وإذا جاز التعبير ، على «ضميره التاريخي» ؟ لقد سبقت الإشارة إلى أنه متى

جرى تجريد رواياته من الحشو الكلامي والصنع البديعي ، فإن بيانه للأحداث هو رزين وخال من المبالغة . لكنّه من المتوقع أنه في أقواله كان متحيزاً إلى حدّ ملحوظ بدافع إعجابه بصلاح الدين . ومن الممكن إبداء ملاحظتين بهذا الشأن . فبينما نجد أن ابن أبي طيء هو عرضة للشبهة بتشويه سمعة نور الدين ، وابن الأثير ملتبس دون ريب في تشويه سمعة صلاح الدين ، فإن عماد الدين يبدو عليه أنه خدم الاثنين بانحسار متساو ولم يظهر أي تحيّز بينهما . والملاحظة الثانية هي أنه من الخطأ في أن نعتبر الإسهاب البلاغي أو الصنع البديعي في كتاب البرق موجهاً إلى مجرد امتداح صلاح الدين والتملّق المقيت . فمن النادر وجود جملة ، حتى في أسمى تحقيقاتها ، تنطوي على مديح مباشر لصلاح الدين ذاته . ومن المؤكد أن عماد الدين يُظهر إعجاباً عميقاً بصلاح الدين ، لكن عظمة الرجل تبدتْ بكاملها كنتيجة طبيعية لازمة عن الحقائق ذاتها . ففي كتاب البرق بمجمله يجري تصويره بعبارة إنسانية وواقعية ، حتى أن ذلك هو أكثر مما في سيرة بهاء الدين . وبينما نجد أن شعور بهاء الدين نحو صلاح الدين هو شعور الروح المنتمية إلى أسرة واحدة ، فإن الانطباع الذي يتخلّف لدينا كتاب البرق ككلّ هو أنه عملٌ لموظف في الخدمة المدنية ، يتميز بالدربة وضبط النفس ، وعلى إلمام بسبل السلاطين وغيرهم من المسؤولين . فهو قد اعتاد على التعامل معهم ، وتدير أمورهم فيما لو دعت الحاجة ، وتدير أعمالهم بدقة صناعته ، وبكل ما لديه من خصب في الخيال اللفظي فإنه لم ينحرف أبداً وراء التيارات وبقي ثابت القدمين .

كذلك توجد حجة أخرى لصالح الدقّة في العبارة عند عماد الدين ، وهي أقلّ عرضة لنهمة الارتكاز على انطباعات ذاتية . فعندما تمكن مقارنة رواياته مع أقوال أخرى من مصادر أوليّة ومباشرة ، سواء أكانت أقوال غليوم الصوري وارانول وغيرهما من المؤرخين اللاتّين للحرب الصليبية الثالثة ، أو بتسلك الأقوال التي يكتبها بهاء الدين أيضاً بالاستناد إلى معلومات مباشرة ، توجد هناك

درجة مذهشة من التطابق في المادة العامة ، وغالباً ما يمتدّ هذا التطابق حتّى إلى التفاصيل . لذا فمن حسن الحظّ ، أنه عندما ننخفض إلى مصدر أصلي ومفرد عن القسم الأعظم من حياة صلاح الدين العامة ، فإن هذا المصدر هو على حدّ سواء : جدير بالاعتماد والقبول على نحو استثنائي بالنسبة لمعرفة مؤلفه بالحقائق ، وجدير بالتصديق بلجهة عرضه لتلك الحقائق وإبرازه لها .

والسؤال الثاني تثيره العلاقة بين تلخيص أبي شامة والنصّ الأصلي لكتاب البرق . وبما أنه علينا الاعتماد على هذا طيلة حوالي الثلاثين من الاثر كلّهُ ، فإلى أي درجة من التعويل يمكننا ان نعولّ عليه باعتباره ملخصاً شديد الحرص والدقّة ؟ إن الجواب على ذلك صريح : بالنسبة للمحتوى التاريخي الفعلي في كتاب البرق ، فإن تلخيص أبي شامة يتمّ على العموم بمهارة وعناية . بالطبع تنقصه تلك الصفة الحميمة والشخصيّة التي في الأصل ، فهو لا يقدم شيئاً من من طابعه الحيوي والملحمي إلّاّ في بعض الأحيان فقط ، لكنه يعوّض عن هذا إلى حدّ ما باستصالة دون رحمة لكلّ ما في الكتاب من إطناب أدبي وصنع بدعي خالص . هناك صفحات بكاملها يتمّ حذفها أو اختصارها إلى سطر واحد ، والرسائل الطويلة يجري الاستشهاد بمقاطع منها ، كما ان العديد من الوثائق الأخرى التي تلقى ضوءاً على مبادئ صلاح الدين هي محذوفة برمتها . كذلك يُعاد في بعض الأحيان ترتيب المادة ، لكن كل شيء مما يعتبره أبو شامة وثيق الصلة بالموضوع يتمّ إدراجه في مكانه المناسب . وبحكم الضرورة ، فإنه ي حذف وما يحذفه أحياناً هو على جانب بارز من الأهمية في تقديرنا . غير ان ما يضيفه هو إلى روايات عماد الدين يأتي على الدوام مميّزاً بعناية فائقة . وعليه ، نستطيع التأكيد بصورة معقولة ان ملخصاته تمثّل محتوى الأصل تمثيلاً أميناً ، رغم أنه ، إزاء فقدان الأصل ، يتعدّر (في الوقت الحاضر) استعادة الكثير من المسود القيّمة .

وفي الختام ، إذن . ينبغي تصنيف المصادر العربية عن تاريخ صلاح الدين على النحو التالي :

(١) النصوص الأصلية لعماد الدين . وعلى سبيل المثال ، الأجزاء الموجودة من كتاب البرق ، و (ابتداء من ١١٨٧) كتاب الفتح .

(٢) سيرة صلاح الدين التي وضعها بهاء الدين ، ابتداء من ١١٨٨ .

(٣) وبالنسبة للسنوات الباقية (أي : من ١١٦٩ إلى ١١٧٦ . ومن منتصف

١١٨٠ إلى منتصف ١١٨٢ . ومن منتصف ١١٨٤ إلى مطلع ١١٨٧)

تأتي الملخصات التي قام بها أبو شامة عن عماد الدين وأدريهاني كتاب

الروضتين ، وتكملها المنتخبات من ابن أبي طيء (١٠)

هذه هي المصادر المكتوبة الأساسية ، والتي تضيف إليها التواريخ الأخرى بين الحين والحين تفصيلات على درجات متنوعة من الأهمية وقابلية التصديق. أما بالنسبة لأبن الأثير ، فلا يمكن اعتباره سوى مصدر ثقة ثانوياً فيما يتعلق بالأحداث التاريخية الرئيسية . رغم أنه يحتوي فيما يتعلق ببعض التفاصيل المحلية ، سواء ما كان منها وثيق الصلة بصلاح الدين أم بعيدا ، على بعض المعلومات الأولية والمباشرة . لكنّه يؤلف شاهداً مباشراً على ناحية هامة من تاريخ صلاح الدين . فهو يلعب الدور النافع لمحمي الشيطان ، وإن يكن هذا الدور نادر الجاذبية ، ومن خلال دوره هذا يصور لنا العداء وروح التحزب اللذين كان على صلاح الدين أن يكافح ضدهما في بناء صرح قوّته السياسية والعسكرية ، وآثارهما المعنوية التي استمرت في إعاقة عملياته طيلة فترة الحملة الصليبية الثالثة .

كلية سان جون ، أكسفورد

١٠- وحتى بالنسبة للسنوات ١١٨٧ - ١١٩٢ فإن أبا شامة يستشهد أحياناً بتفاصيل من البرق هي إما غير موجودة في كتاب الفتح أوليست مشروحة بأسهاب .

الفصل الرابع

البرق الشامي

تاريخ صلاح الدين للكاتب

عماد الدين الاصفهاني *

لقد كان معروفاً منذ مدة طويلة بأن الأثر الأساسي عن تاريخ صلاح الدين هو كتاب التاريخ الواقع في سبعة مجلدات من تأليف الكاتب في ديوان صلاح الدين : عماد الدين الاصفهاني ، بعنوان البرق الشامي ، وان هذا الأثر لم يكن المصدر الرئيسي الذي نلخصه ابو شامة في كتاب الروضتين فحسب ، بل جرى استخدامه أيضاً من جانب كل المؤرخين المعاصرين له تماماً ، ومن جملة هؤلاء ابن ابي طيء ، وابن الاثير وسبط بن الجوزي وكمال الدين ابن العديم (١) . غير ان النص الأصلي لهذا الكتاب يبدو عليه انه سقط من التداول في وقت مبكر وكان عدد مخطوطات العمل ضئيلاً جداً . فالاقسام الوحيدة منه التي يُعلم الآن

Gibb, H. A. R. « al-Barq al-Shāmi : The History of Saladin by the * Kātib « Imād ad-Din al-Isfahāni », Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes LII, 93 - 115

١ - انظر مايل : Brockelmann, G. A. L. i, 315 ; Suppl. i, 548 ; C. Cahen, La Syrie du Nord à l'époque des Croisades (Paris, 1940), 50 sqq

بوجودها هي جزآن في مكتبة بودليان بأكسفورد (Bruce 11 and Marsh. 425) وقد قام البروفسور بول كاهسله مؤخراً بوصفهما في مقالة قصيرة ، جنباً إلى جنب مع بحث عام في كتابات عماد الدين (٢) . إن مخطوطة الجزء الأول هي واضحة ، وعلى العموم ، دقيقة . أما المخطوطة الثانية فقد أعيد تحريرها وتحريكها في بعض المواضع بيد متأخرة ، ولم تراخِ الدقة دائماً في ذلك. والاوراق القليلة الأولى هي مفقودة ، بينما أضيفت مقدمة للصفحة الأولى الموجودة (ورقمها الورقة ٦) على ورقة واحدة في تاريخ متأخر .

إن الاسئلة التاريخية التي تثيرها هذه المجلدات وعلاقتها بكل من تلخيص أبي شامة وكتاب الكامل لابن الاثير تناوها البحث في مقالة منفصلة (٣) . أما المقالة الحاضرة فإنها تستهدف تقديم ملخص لمحتوياتهما ، مع تحليل لأسلوب المؤلف الأدبي ، وإيراد النموذجين يحتويان على معلومات تاريخية قيّمة وغير متمثلة على درجة كافية في أي مصدر آخر .

البرقي ، المجلد الثالث (مخطوطة بودليان . Bruce 11)

- (١) ب : سنة ٥٧٣ هـ - تسالي الجيش في فاقوس قبل الإغارة على غزة
- (٢) أ : ذكر علم الدين الشاتاني
- (٣) ب : ذكر بروز صلاح الدين بقصد الغزاة ؛ قصائد ورسائل خلال المسيرة
- (١) أ : ذكر نوبة الرملة ، مع مطلب خاص (١٣ب - ١٤ب) يتعلق بقي الدين .

Die Welt des Orients ((Stuttgart 1948), 299 - 301 - ٢

Speculum, Vol. XXV, i (Cambridge, Mass., Jan. 1950), 58 - 72. - ٢

- (١٦) ب : رسائل إلى عناوين مختلفة حول الموضوع .
- (٢٠) أ : قصيدة مديح لثقي الدين نظم عماد الدين .
- (٢٢) ب : إجراءات صلاح الدين للفرج وإعادة إنشاء الجيش .
- (٢٣) أ : حوادث في حلب .
- (٢٥) أ : ذكر نزول الفرنج على حماه .
- (٢٧) أ : ذكر وفاة شهاب الدين محمود (ابن تكش الحارمي خال السلطان وصهره) .
- (٢٨) ب : مسيرة صلاح الدين على الشام .
- (٣٠) ب : مراسلة بين المؤلف والقاضي الفاضل . خبر عن تأليف فريدة القصر وغيرها من القطع الأدبية .
- (٣٧) ب : كتاب من القاضي الفاضل إلى صلاح الدين (متمخبات) .
- (٤٠) ب : الوصول إلى دمشق .
- (٤١) أ : رسائل من عماد الدين إلى بغداد .
- (٤٧) أ : تهاني القاضي الفاضل لدى ولادة ابن صلاح الدين ، داوود . حاشية إضافية عن أبناء صلاح الدين .
- (٥٠) أ : كتاب من الفاضل عن حوادث مختلفة في مصر .
- (٥٢) ب : جواب صلاح الدين من إنشاء عماد الدين .
- (٥٥) أ : حفلة صيد في بلاد الشام .
- (٥٦) ب : وفاة وزير الخليفة ، عضد الدين .
- (٥٨) أ : ذكر خازن بيت مال الخليفة ، ظاهر الدين .
- (٦٠) أ : ملاحظات عن عزّ الدين آق بوري وضياء السدين ابن الشهرزوري .

- (٦١) ب : ذكر شمس الدين ابن المقدم ورغبة توران شاه في الحصول على بعلبك منه .
- (٦٢) ب : السير على حمص : بداية ٥٧٤ .
- (٦٣) أ : مقاطع من رسائل القاضي الفاضل إلى صلاح الدين و(٧٢أ) إعادة لإلغاء المكوس في مكة .
- (٧٤) أ : في المعسكر بحمص - مراسلة طويلة بين المؤلف والقاضي الفاضل .
- (٩٥) أ : وفاة الطبيب ابن النقاش في دمشق .
- (٩٥) ب : وفاة الأمير نجم الدين ابن مصال في مصر .
- (٩٦) ب : أسر الفرنجة المغيرين على حمص وإعدامهم (ربيع الأول) ، تليه مكاتبة مع الفاضل تتعلق بوعد صلاح الدين في تخصيص أسير لعماد الدين كملوك .
- (١٠٠) ب : وصف الخريف وتعبد الجيش .
- (١٠٢) أ : مسيرة إلى بعلبك .
- (١٠٣) أ : حلول الشتاء .
- (١٠٣) ب : رسائل إلى بغداد تشرح حصار بعلبك .
- (١٠٥) ب : مسائل مالية في دمشق ، ومسألة الإبقاء على ابن أبي عصرون قاضياً ، رغم عماءه .
- (١٠٧) ب : استسلام بعلبك .
- (١٠٨) أ : قصيدة قصيرة عن الشوق إلى مصر نظمها عماد الدين بطلب من صلاح الدين ، تتبعها مراسلة مع القاضي الفاضل .
- (١١٢) أ : وفاة المشرف على قياس مياه النيل .

- (١١٢) ب : بناء قلعة في بيت الأحزان .
- (١١٣) أ : وصف المجاعة في بلاد الشام .
- (١١٥) أ : ذكر وصول رسل دار الخلافة .
- (١١٦) أ : هزيمة (الكونستابل) همفري وموته (هنفري) .
- (١١٩) ب : خروج توران شاه إلى مصر .
- (١٢٢) أ : هزيمة غارة للفرنجية على شيزر .
- (١٢٣) أ : سفارات من ديار بكر وسليمان الروم .
- (١٢٣) ب : استئناف الهجمات على الفرنجة (يوصف جزئياً في رسائل إلى القاضي الفاضل وأشخاص آخرين) .
- (١٢٦) ب : بداية السنة الهجرية ٥٧٥ ؛ صلاح الدين يعسكر قرب بانياس .
- (١٢٨) أ : المعركة والانتصار في مرج عيون .
- (١٣١) ب : رسائل عن الموضوع إلى مجاهد الدين قايمار في الموصل وإلى شيخ الشيوخ في بغداد .
- (١٣٦) أ : مأثرة فروخ شاه في مرج عيون .
- (١٣٦) ب : مديح موجه إلى صلاح الدين من الحسن بن علي الجوني .
- (١٣٧) ب : انتصار تقي الدين على سلطان الروم في رعبان .
- (١٣٨) ب : رسالة تروي هذه الحادثة إلى مجاهد الدين قايمار .
- (١٣٩) أ : حصار بيت الأحزان والاستيلاء عليها .
- (١٤٤) ب : رسالة إلى القاضي الفاضل تصف الحصار .

البرق الشامي ، المجلد الخامس (مخطوطة بودليان Marsh 425)

الاوراق من ١ إلى ٥ مفقودة ، وقد جرى استبدالها بيد متأخرة عند بسده
مسيرة صلاح الدين على حلب في السنة الهجرية ٥٧٨ .

- (٦) ب : مديح لصلاح الدين من عبد الله بن اسعد الموصل .
(٨) ب : تبديل الخطّة لدى وصول كوكبوري ، ومسيرة صلاح
الدين عبر الجزيرة .
(١٤) ب : (رقمها ١٣ في المخطوطة) بلوغ الموصل . وساطة شيخ
الشيوخ .
(٢٠) ب : (رقمها ١٧ في المخطوطة) قرض إلى سنجار . رسائل من عماد
الدين إلى بغداد وإلى حاكم عدن .
(٢٦) ب : استسلام سنجار .
(٢٨) ب : صك تعيين قاضي سنجار .
(٢٩) ب : صك تعيين رئيس سنجار .
(٣٠) ب : صك تعيين سعد الدين بن عمر حاكماً على سنجار .
(٣١) أ : المسيرة على نصيبين وحرّان ، تقاطعها (٣٢ أ) رسالة إلى
شيخ الشيوخ .
(٣٤) أ : رسالة كتبها عماد الدين إلى بغداد لتبرير حملة الموصل .
(٣٦) أ : وفاة فروخ شاه ؛ قصائد موجهة إليه سابقاً .
(٤٢) ب : انتصار الاسطول المصري في البحر الأحمر على المهاجمين
الفرنجة ، رسائل حول هذا الموضوع إلى بغداد .
(٤٦) أ : تعيين ابن المُقَدَّم حاكماً على دمشق ، مع نصّ الوثيقة .
(٤٨) أ : نادرة عن كوكبوري .

- (٤٨) ب : هدية صلاح الدين إلى ابن قره أرسلان — قصّة حصار آمد والاستيلاء عليها (انظر أدناه ص) .
- (٦٥) ب : مقاطع من رسائل القاضي الفاضل حول الموضوع .
- (٧١) ب : دخول صلاح الدين إلى آمد .
- (٧٢) ب : استدعاء نور الدين بن قره أرسلان وحلفه اليمين لصلاح الدين .
- (٧٣) ب : حاشية عن قيوان الدين سمّاعة ، وزير نور الدين .
- (٧٤) ب : الخروج من آمد والسير نحو حلب .
- (٧٥) ب : سفارات من ملوك الاطراف ، ومنتخبات من وثائق عماد الدين ورسائله المتعلقة بهؤلاء .
- (٧٧) ب : المسيرة على حلب ، احتلال تلّ خالد وعينتاب (موصوفة جريئاً في رسائل إلى القاضي الفاضل) .
- (٧٩) ب : الوصول إلى خراج حلب في محرم ٥٧٩ هـ ، القتال حول المدينة .
- (٨٣) أ : الانسحاب إلى جبل جوشن .
- (٨٤) ب : مفاوضات مع عماد الدين زنكي واستسلام حلب .
- (٨٦) ب : منتخبات من رسائل حول الموضوع لعماد الدين .
- (٨٩) ب : استسلام حارم ، ويوصف بشكل رئيسي في منتخبات من الرسائل ، ورسائل أخرى حول الاستيلاء على حلب .
- (٩٣) ب : رسائل من القاضي إلى بغداد (إلى الديوان لإعلان نيّته في استئناف الجهاد ، وإلى شيخ الشيوخ حول موضوع الوساطة مجدداً) .
- (٩٤) ب : كتاب القاضي الفاضل إلى العادل في القاهرة .

- (٩٦) ب : مصادفة الحفاوة المقدّمة لعماد الدين زنكي مع وفاة تاج الملك : والرسائل حول الموضوع .
- (٩٨) ب : دخول صلاح الدين إلى حلب والتصرّف بأراضيها .
- (١٠٠) أ : صكوك المدرّسين والمدرسة الحنفيّة في حلب ، والمحاسب وطبيب العساكر .
- (١٠٥) أ : رسائل تصف انتصارات القوات المصريّة في عُسيلة والاسطول المصري في شهر محرّم ٥٧٩ .
- (١٠٨) أ : الخروج من حلب والسير على دمشق ، تتخلّل الروايسة ملاحظات من ابن حُبَيْش ، قاضي حماه ، وتقي الدين .
- (١١١) ب : حملة على بيسان ، توصف في رسائل بقلم عماد الدين .
- (١١٦) ب : الحملة على الكرك .
- (١٢٠) أ : خروج تقي الدين إلى مصر وصك تعيينه حاكماً .
- (١٢٤) أ : صك تعيين العادل حاكماً على حلب .
- (١٢٦) ب : الخروج من الكرك والعودة إلى دمشق ، ودخول العادل إلى حلب .
- (١٢٧) أ : وصول شيخ الشيوخ ورسل الموصل (انظر ادناه) .
- (١٣٢) ب : سفارة من عماد الدين زنكي في سنجار .
- (١٣٣) أ : رسائل إلى عماد الدين وتقي الدين تستدعي القوات .
- (١٣٥) أ : الخاتمة — : منتخبات من مراسلات المؤلّف مع القاضي الفاضل .

يتمتع هذا العمل ككلّ بصفة تبدو فريدة في الأدب العربي ولا نظير لها في الآداب الأخرى . وهي صفة الجمع في عمل تاريخي مفرد بين أنواع مختلفة من

الإشياء ، بينما يجري اعتبارها في الأدب الغربي عادة ، على الأقل ، بمثابة أنواع مميزة . ثمة أقسام كبيرة من الكتاب هي تاريخ بسيط ، أي أنها روايات للأحداث في ترتيبها وتسلسلها الزمني ، لكنها تتميز بشكل رئيسي عن السياق العام لتواريخ الأحداث في ميزتين . الميزة الأولى هي ان المؤلف رافق صلاح الدين خلال القسم الأكبر من حياته العامة بمثابة كاتبه الخاص ، فهو يروي الأحداث بمعظمها في صيغة جمع المتكلم ، و (في رأيي) لا تجوز نسبة هذه السمة إلى الغرور والاعتداد بالنفس ، بل إلى عاداته الراسخة في استخدام عبارة رسائل الدواوين . والميزة الثانية هي انه مكتوب كله بالنثر المسجع . إن جميع دارسي الأدب العربي يألفون الكلام المنمق والطنان بما ينطوي عليه من إرهاب وفراغ وكيف ان الاعتناء بالنثر المسجع خفف الزخم الفطري والإيجازية في الأسلوب العربي ، وأوجد عادات مهلكة مثل الحشو والتملق المنطوي على رياء ، حتى أنه أدى إلى التشويه من أجل السجع البديعي . ولقد تمت العقيدة بأن النثر المسجع هو في حد ذاته شكل فاسد للأسلوب الأدبي يقضي على كل فضيلة حقيقية في التعبير عن الحوادث والأفكار^(٤) . بيد ان هذا الحكم القبلي يتعدّر الدفاع عنه تماماً . وفيما تعلّق بالأقسام التاريخية من كتاب عماد الدين ، فإن نثره المسجع لا يتدخل إطلاقاً بدقّة العبارة ، كما يمكن تبين ذلك من عدة مقاطع في الفتح القسّي أو من النماذج الواردة أدناه . إلا أنها حقيقة لا ريب فيها بان سرد الأحداث المتواصل والمتطاول بهذا الأسلوب هو ممسّل وغير قابل للاحتمال كما سنبين ذلك في فترة لاحقة .

ومن جهة ثانية ، فإن قسماً كبيراً من هذا الاطّباب ينشأ عن الجمع بين السرد والنوع الثاني من المواد في كتاب البرق . فالكثير من محتوياته ، وكذلك محتويات الفتح ، يجري تصنيفها في الأزمنة الحديثة كـ «مذكرات» وليس بالأحرى

٤ - انظر ، عل سبيل المثال ، في مذكرات محمد كرد علي ، الجزء الثالث (دمشق ١٩٤٩ ، ص ٦٩١ - ٦٩٧) الجدل الذي دار حول هذا الموضوع بين المؤلف وشكيب أرسلان .

كتاريخ للأحداث . إنها وثائق من «المفكرة المهنية» للعماد الكاتب ، صاحب الأسلوب الشهير ، وهي تشتمل على مقتطفات طويلة من رسائله الرسمية بالأصالة عن صلاح الدين ، وعلى صكوك تعيينه للوظائف العامة ، ومراسلته شبه الخاصة مع القاضي الفاضل ، واستشهادات بقصائده أو قصائد الآخرين في مناسبات مختلفة ، ومنها الكثير مما هو أشبه بمذكرات داخلية شخصية حول إنشغالاته الخاصة وعلاقاته بشخصيات أخرى . هذه الأوراق ، من الجلي ، أنها تتنوع أيما تنوع في درجة إسهابها ، بعضها مقالات متعمدة في أشد الأساليب ترفعاً وتلميحاً ، لكن الكثير منها لا يعدو كونه ملاحظات بسيطة تماماً تنقل التفاصيل العرضية أو مسائل على جانب من الاهتمام (٥) .

غير أن «المفكرة المهنية» تنطوي بالنسبة لنا على حسنة كبيرة في المقام الأول ، إذ تقوم بتعريفنا إلى شخصية المؤرخ ، وهذا من الأمور النادرة في الكتابة العربية التاريخية خلال القرون الوسطى . فالزبا التي يتكشف عنها دون وعي منه ليست تشويهاً لسمعته على الإطلاق . إنه لا يتجسج أبداً ، وهو الذي يعي مواهبه تمام الوعي . فعلاقته مع صلاح الدين بصفة الكاتب المؤتمن على الأسرار كانت واضحة الانسجام . ولقد بقي مع رئيسه الرسمي ، القاضي الفاضل ، طيلة الوقت على أواصر من الود والاحترام . وفي المقام الثاني ، فإن هذا الجمع الفريد بين المفكرة المهنية والتاريخ يضيف على روايته للأحداث درجة مسن الموثوقية ومن الثقة المرجعية لا يضاهيها سوى القليل من المصادر القروسطية .

٥ - يمكن إيراد الفقرة التالية كثال ، وهي تحظى باهتمام نظراً للمنتجات التي سوف يتم إدراجها أدناه :

كانت بيني وبين شيخ الشيوخ قرابة قريبة لدعواتنا في الحوادث والحوادث المستعجبية فانه اتصل الى ابنة - منى الصدر الشهيد مزيه الدين أبي نصر احمد بن حامد فقد كانت عتيقة بيت السودان وكريمة شرف المتحدين وقد كان كثير من وزراء الزمان وعظماء دولة السلطان يحضرونها رغبة في طيب الكلام وطهارته ونزاهه العنصر ونضارته فاتفق حضورها بالكعبة المعظمة في سنة خمس وأربعين وتكررت منه الخطبة وصحبت الرفقة فاجيب لدينه واصله وثقواه وفضله وبارك الله منها في ذريته ونسله [V, 128 a b]

لكن من المؤكد تماماً أن عماد الدين قصد من عمله الكبير عن صلاح الدين أن يكون شيئاً أكثر من هذا . فلا نعرف ما إذا كان هو نفسه يسمي الصفات الأدبية الأخرى التي استهدفها ، لأنها من الصفات التي بقيت خارج المقولات الثابتة للإنشاء الأدبي العربي . هاتان الصفتان ، على تمايزهما واتصالهما الوثيق في الوقت نفسه ، هما الدراماتيكية والملحمية . ومهما بدا من أمر المبالغة في ادعاء مثل هذه الصفات لأي أثر عربي قروسطي ، وقبل كل شيء في ادعائها لتاريخ وقائمي ، فإنها موجودة هناك ولا سبيل إلى إنكارها . إنه لمن السخف القول على التأكيد بأن العمل كله دراماتي أو ملحمي على نحو شامل . لكنه يحقق بالضبط — عن طريق هذا الجمع بين أربعة أنماط من الإيحاء وبواسطة الانتقال المتكرر حدوده من نمط إلى آخر ، طابعه البارز ويخفف من ضجر السرد على وتيرة واحدة .

إن الصفة الدرامائية التي تميز العديد من المقاطع الروائية تستوعب من قراءتها ضمن إطار النص سهولة أكثر من أي وصف لها . وهي توجد على الغالب في سرد الأحداث التي لعب فيها المؤلف نفسه دوراً رئيسياً ، مثل المفاوضات مع رسل الموصل عام ٥٧٩ هـ — ١١٨٤م في المقطع الثاني الوارد أدناه . يقوم أسلوبه المعتاد على بناء التفاصيل المرئية وخلق «الجو» بواسطة تراكم سريع ومعزز للعبارات النابضة بالحياة والمثيرة ، بحيث تؤدي إلى تعزيز الأثر العاطفي والعمق الخيالي للمشهد الموصوف . ولا حاجة بنا إلى القول إن هذا التأثير يضيع في القراءة السطحية . فالتوتر الدراماتي بأكمله يعتمد على التلوق التام لكل عبارة في قرينتها وسياقها .

أما العنصر الملحمي في العمل فهو أشد سهولة على التحليل ، والتمثيل عليه لا يكون إلا في الاستشهاد بفقرات طوال تمتد على صفحات كثيرة . هنا يجد نثر عماد الدين المسجع تبريره الأشد إسهاباً . والشعر الملحمي في اللغة العربية هو مستحيل تقريباً ، بسبب رثابة الأوزان وعبّ القوافي . ومهما يكن وقع عمل الفردوسي جسيلاً في الأسماع الفارسية ، فإن مثل هذه المنظومات الطويلة المصنوعة والمقفاة بطريقة ميكانيكية كانت تأبى الحساسية العربية أن تتحملها ، لكن النثر المسجع ، بتنوعه المتغير باستمرار في المدات والشدات ، قدّم

بديلاً يستطيع في أحسن حالاته ان يتحدّى المقارنة مع الشعر الملحمي . غير ان الصفة الملحمية في كتاب البرق ليست مجرد شأن من سرد رواية لحادثة مسا بنثر مسجّع ومؤثر . انها اسلوب كلّي قائم بذاته ، يشبه في بعض النواحي اسلوبه الدرامي (الذي في استطاعته حقاً أن يلعب دوراً ثانوياً في ذلك) ، لكن التوتر فيه ، بدلاً من تركيزه على حادثة مفردة ، ينتشر على سلسلة من الحوادث فيؤلف وحدة معقّدة ، وهو بالتالي متنوع الشدّة .

ينصبّ اهتمام عماد الدين الأوّل على وضع الأحداث في شيء من الإطار النفسي . ونجده في مطلع المجلد الثالث يستخدم طريقة التهكّم الدرامي عبر التباين بين الثقة الجذلة لدى الجنود بمسكرهم الحدودي والكارثة التالية في الرملة . ويجري التقديم لحملة الجزيرة عام ٥٧٨ هـ - ١١٨٢ م بصيغة مسهبة للدعوة كوكبوري إلى صلاح الدين ، بتصوير مدنها وقلاعها وكأنتها تشتاق إلى احتلاله لها وتدعوه إليه (البرق ، ج ٥ ، ٩ ب . راجع ابا شامة 30 foot II) ، فالتقدّم الظاهر نحو الموصل يوضع بهذه الوسيلة في إطاره النفسي الملائم ، ويوصف بوفرة ضخمة من الصور ، مع انه يقصّر عن بلوغ الاسلوب الأفضل لدى عماد الدين وينتهي بالأحرى إلى فئة يترتّب عليّ أن أدعوها بـ «الملحمية الثانوية» :

والمثال الافضل في النصّ المتبقّي لدينا من كتاب البرق هو رواية حصار آمد عام ٥٧٩ هـ - ١١٧٣ م (48b - 65 a) . فالإطار النفسي هنا يُعطى من خلال وصف لمدينة آمد ، بحيث يأتي التشديد على مناعتها واحترازات حاكمها (ولقد تمثل هذا في تجربة شخصيّة سابقة) ويؤدّي إلى الموضوع : «لم يدر بخلد أي ملك أن يحاول الاستيلاء عليها حتى أيام صلاح الدين» . تلي هذا استعادة لمناسبة حصار صلاح الدين لها ، لكي يفني بوعده قطعه إلى نور الدين بن قره أرسلان ، وأضحى مشروعاً في جنبه بوثيقة الخليفة . ثم يلي ذلك بالتفصيل التقدّم على المدينة وتطويقها ، في صيغة جمع المتكلم ، كالعادة ، مع تشديد طفيف ، وليس

مفرداً، على التباين بين قوات صلاح الدين الضبيلة وجسامته المهمة . فالوضع العام والتفصيلات الإضافية يجري إبرازهما على شكل رسالة موجهة إلى بغداد . ويتم استئناف أسلوب السرد المباشر مع وصف حيّ لهيجان نور الدين واهتمامه بصغائر الأمور ، ثم يرد مقطع تهكمي طويل يقارن بين السلوك والطاقة الرزينة لقوات صلاح الدين وبين المزايا غير الحربية للقوات الإرتقية . وبعد وصف لشدة الدفاع وحوادث استسلام الحاكم ، يأتي السلوك الشهم لصلاح الدين نحوه وفي تسليم المدينة بمخازنها الفخمة إلى نور الدين ، لكي يؤلف ذروة طبيعية من دون ان يتطلب أي اسهاب ممل . فالمشهد كله تختتمه العبارة التالية : «لقد رويت هذه القصة بالتفصيل لكي تعلموا ان الخيرات الدنيوية لم تجد مكاناً في تقدير السلطان» .

إلا أنه مما لا سبيل إلى إنكاره هو ان ميزات الأسلوب الذي يأخذ به عماد الدين تنطوي على عيوب . فلو تركنا جانباً المقطوعات المرصوفة من البلاغة الخطابية والصنع البيدي والي تؤلف جوهر فصوله الموجهة إلى القاضي الفاضل وأوصافه لفصول الطبيعة ، لرأينا بان فقراته الروائية غالباً ما يتم شرحها بإظهار للبراعة اللغوية الفائقة، هذا الإظهار الذي مهما يكن مقبولاً في الأحداث الدرامية أو الملحمية ، فإنه يصبح حشواً مملاً عندما لا يدعمه أي توتر عاطفي يستدعي استجابة من جانب القارئ . والحالة هي كذلك بنوع خاص عندما يدعن لتجربته المزعجة من الانغماس في مجموعات من الاستعارات المتوعدة لكنّها تكرارية للمعنى ، ويمكن الاطلاع على أمثلة منها في مطلع الفقرة التالية ونهايتها . هكذا فإن المؤرخ الصريح يجده حتماً ، كما قال ابو شامة (I, 5 top) « طويل النفس حتى الإملال ، قادراً على تحويل انتباه طالب الحقائق التاريخية عن سياق الرواية وجعله ينساه » .

ومن الخطأ الافتراض بأن عمل عماد الدين ، على كافة ميزات الملحمية والبلاغية ، هو تعظيم لصلاح الدين أو مديح . لأنه سوف يكون من الصعب

العشور على فقرة واحدة مكرسة للثناء على صلاح الدين في التعابير المعتادة للإطراء المتسم بالغلو. فالأحداث نفسها، والجيش، وعدد من الأفراد تنال كلها نصيباً وفيراً من بلاغة الكاتب. وتقع عظمة صلاح الدين في كونه الروح المحركة وراء كل ذلك. مما لا يمكن إنكاره هو أن عماد الدين كان معجباً بصلاح الدين عن اقتناع، لكنه يقدم صلاح الدين عبر العمل كله كشخص إنساني كلياً، وكشخصية شهمة وعطوفه بالطبيعة على نحو يتجاوز النوع العادي من الأمراء، متواضعة وليست معصومة عن الخطأ، وبالتالي عميقة في جذبتها ومتحلية بإيمان راسخ جليل. هذا الإيمان الذي دعم صلاح الدين في كل نزاعاته وخيالاته. على أن هذا كله يخلو من أي مبالغة، فهذا هو صلاح الدين على حقيقته. والمقطع المنقول [والمترجم] أدناه سوف يبين كيف أن عماد الدين يبرز، على غير وعي منه تقريباً، الخلق الحقيقي لسلطانه ومزاياه.

[إن المقتطف الذي يلي من المجلد الخامس لكتاب البرق يروي عن المفاوضات مع الموصل عامي ١١٨٢ و ١١٨٤. ولقد جرى اختيار هذا لأسباب عدة. فهو يظهر، في المقام الأول، كم من التفصيلات ذات الأهمية الخاصة للحكم التاريخي حُذفت في ملخص أبو شامة (54-53، II)، وبالمقارنة مع رواية بهاء الدين (طبعة شولتنس ٥٧) الذي كان عضواً في وفد الموصل، وإلى أي مدى يمكن التعويل على عماد الدين في تصويره للأحداث والشخصيات. ويكشف، ثانياً، عن شخصيتي السلطان والكاتب وعلاقتها بوضوح وحيوية غير مألوفين. كما يمثل، بالإضافة إلى ذلك، على أسلوب عماد الدين، الروائي والدرامي منه، ولا سيما في الصورة التي يرسمها لرسول الموصل. وأخيراً، فإن الحالة المحرقة لبعض المقاطع سوف تبين نواقص هذه المخطوطات، والأساس غير المرضي الذي سوف تزوده في حال إصدار طبعة للنص. ففي الكثير من الأماكن زوّدت الحروف غير المنقطعة بعلامات صوتية مميزة. وأجريت بعض التصحيحات الطفيفة دون تعليق، غير أن العدد الإجمالي لمثل هذه التعديلات

التحريرية التي يتطلبها المجلدان سوف يكون كبيراً تماماً. فالترجمة الملحقه هي ترجمة ملخصة ، إذ جرى فيها اختصار بعض الاسهابات اللفظية لعماد الدين ، لأنها حتى وإن كانت تشكل جزءاً جوهرياً من البناء الدرامي للنص الأصلي ، فقد تعذر نقلها إلى أية لغة أخرى . بحيث يتسنى الحفاظ على تأثير مواز لها. [*]

* اكتفينا بإيراد النص العربي الأصلي مع إلحاق الحواشي التي أضافها البروفسور جب المترجم .
الحاشية رقم ٦ : [١٦ أ] - « وعفونا عن أوزار الجبناء » : يبدو أنها تعني ما يلي : « حتى ارتد الذين التحقوا بنا لكنهم لم يقفوا معنا قلبياً بالفعل ، فتركناهم يذهبون ، لأن قيمتهم العسكرية لم تكن تتجاوز قيمة الجياد الاحتياطية ».

الحاشية رقم ٧ : [١٣٠ ب] - إن التفاصيل عن هؤلاء الاسراء والتي يوردها أبو شامة (حاشية 53, II) هي مخدوفة .

الحاشية رقم ٨ : أسفل الفقرة التي تحمل رقم ١٣١ ب : « وأشار إلى سلطان العجم والبهلوان » المقصود بذلك هما : طغرل الثاني بن ارسلان شاه (١١٧٧ - ١١٩٤) ، وهو آخر سلاطين السلاجقة على العراق ، ومحمد جاهان - بهلوان بن إلفيز (١١٧٢ - ١١٨٥) أتابك أذربيجان . وفيما يتعلق بعماديهما وهجومهما على السلطة الزمنية المتزايدة للخلافة ، انظر الروايتي :

رأسه الصدور ٣٣٤ - ٥

Barthold, **Turkestan**², 346 - 7

ذكر رسول رسول دار الخلافة
لشفاعة ورد المواصل بالصلة في الصالحة الى الطاعة

[١١٤] ووصل البنا الخبير بن رسول دار الخلافة واسلم في أمر المولى شافهون سائلون
وهم صدر الدين شيخ الشيخ وشهاب الدين بشير ومعهما من خواص الديون جميع كثير
فتلقاهم السلطان بالصدر الرحب والبشر العذب والخلق السهل غير الصعب والسلام
الخير من حران العرب والخطاب بالثبوت له صرف ومة الخطب وكنت الى جنب السلطان
له مسابرا واليه وله في المعام ناظرا مناظرا والمولى مستهود والمذهب مقصود والمطلب
موجود والطالع مسعود والشايح محمود والملقى مودود والملق مردود ولواء الإقبال معقود
ورواه الادبار مقفود وشعار الدولة الإيمانية المشرقة في أيامنا البيعين سود والبنود غابة
من فوقها عقبان ومن تحتها أسود وما كان أشرج صدرى بلقاء الصدر وأتم بشيرة
بطوق البدر وطاب بمؤيته الريق والرياء... فيه هلا... وشاع ان شيخ الشيخ قد وصل في
العلم والخلق باب النفع وحقن قواه العسر وشيم صوارم العسر ويرد حر الحرب ويمنع
الخطب وتقبل نيوب التواضع وتقبل شوائب انشواش وتذليل الجوامع وتعدل الجوانح
وتدبر الشئان وتدبر الشؤون وتذلل الأضراس وتسهل الحزون وتأنس النفوس النافذة
وتوفيق النفاذ والوفاء بالوفاء وإبقاء الحقوق وأجناد السيف والجماد المحفوف
ورمى الأوزار ورفع الأوزار... وتقرير السلم وتقريب العلم ورسول رسول مظفر الدين
قزل أرسلان حسن المبادر نحيب الاسمان واجتمعت رسول الآفاق داعين الى
الوفاء فقال الذين لا ذوا لنا من البلاد من الاجناد الأحرار والأكراد هؤلاء غدا
يسلمون ويهدم قروحهم علم ما يقتربون ونحن نحمل بالإففاق وحرمان الأوزار
ونبوء بالشقاوة والشقاق وسوء شجة النفاق ونقع في الفضيحة ولا تقع بنا الخطوط
ويقطع إقطاعنا الموصون المحفوظ [١١٥] فأخذوا أمان البلد ودخلوا وكما طلعت لنا
حنا أقبلوا واعتدروا باتنا شسبا وشسبا الى الخلاف نواتنا اليكم شسبا ووافهم
جماعة من أصحابنا طمعوا منهم في العطايا واليافع وهذه من أيسر عنايات الطبع ونحن
نصير بإياد المصالحة والاستواء على الكافة وترك قبول الشفاعة واستغفار الجور في
شغل العصر وبذل الاستقامة والناس يقولون هذا لا يستقيم وإن هذا الشمت لا
يدوم بل يستمر وفي كل يوم نناوب القتال ونعاقب النزاع والمملك المطقرة الذين
يصل من بوائبه ويبيح من دمه في البلاد لا يفتى ويحرف في مضار النصارى وهو النصارى
المبغى ويأج للملوك أسوأ السلطان في كل حلبة وحلبة توبة يبارز ويهاجم ويناجم ويفترس
ويقترب ويحترق ويحترق ويقترب ويقترب والأوزان تقترب والشعاع تفتن والفتن
تفتن والشعاع تمتع... شيخ الشيخ ينهى ويكره ويرد التوبخ ويكره ويعقد
ويغنى ويقر التوبخ ويكره ويعدر التفتق ويكره ويقول كيف أفسد المسطور
ولا أحمه راحه ورناجحت في التوسط والمنع من التوسط ولا رضى مع التوسط وهذا

[١٤٥] الفعل المحقوت اذا غبت لا يغوت فإن كان في قبوله وعلق إقباله ولقد حلو له هذه العقدة انحلال فتصبروا وتزعموا واسكنوا ولا تخرجوا حتى أرسل من اليوم الى اليوم وأنكفئ في متاع هذه المتعاصي برفع السوم وأحسنوا نرك ما لا يحسن وانزلوا الى الذين من النزال الذين يحسن [١٤٦] وأقبلوا تقبلوا وابدلوا مما أنتم فيه تبدلوا فقلنا له السمع والطاعة والحيث والكرامة وما أحسن مرادك اذا أردت السلم والسلامة وتحولنا الى جانبك لا يبعد عن الرسل طريقه ولا يفرق على البعد فوبقه وأرسل شيخ الشيوخ الى القوم صاحبه وذكر مطلبه فشرعوا يندبون كل يوم رسولهم ويملأون بالمراسلات المخادعة بينهم فخرج أول يوم جمال الدين صاحب معاني النقيب الشريف واستفتاه فيما عداهم بالتشريع والتأنيب وكان حضورهم في خيمة شيخ الشيوخ عنده وقد خلاهم وتخلى بهم وحده فأنفذ الى السلطان من عرفه ووصلهم واستدعى منه ثقاته الذين يسمعون نصولهم فتقدم الى القاضي الأجل الفاضل والى والي القبة صيه الدين عيسى الخطاري فجلس فجلس وتجلس كل ما يقولونه وتعرض ونهى ما نسيه بفعله وبقية ونزل ما نسيه بقلبه وبقية فأدعوا ذلك اليوم بالشكاية ولم يوصلوا مبدأها الى النهاية ثم قالوا نه مل ونخرج خدًا بالحدث المبين [١٤٧] والشرائع ولا تخرج من المكان وسلاوا فموا القدر مستقيمين في جدهم على ذلك المبدأ وذكروا مطالب متكررة وآراء متعددة واقتربوا إعادة البلاد المأثورة وقدموا بها تقليل الحدود المشوذة وأتوا نحو الى الفرات ثم نكلم فيما يعود جميع الأشتات وزاموا بذلك إذهاب الأوقات وكشنا على هذا السنين وتفسخ العهود وتفسخ الزمن قريبًا من شهر لا ننتهي الى أمر مستقر وهم يفتدونه للدمع والقتل وشيخ الشيوخ ينسبنا الى أننا لا نؤثر الفهم فدخلنا في كل ما أرادوه وزدنا في جواب سؤال ما زادوه وأنفصل الأمر على أن رتبوا علينا طلب ونزاع على صاحب النبيل كل ما طلب وكان قد عرف الأجل الفاضل محوى مقالهم ودعوى جلالهم وأنهم صالحيهم وصيحيهم لا يؤذن بالإسفار والسفود فانقطع بعد أيام بعد ذي ذكره عن انصرور وكنت أعظم أنا والفقير عيسى للمسيح والإفناء والقتل والدماء ثم انقطع الفقير منهم وأوقف منهم واستمر نردى ولم أجذب عن المهم يدي فوجدوا بذلك مهلة وأما روا لطائهم بوردتهم وعددهم نهلة وهم في أثناء ذلك يستبدون الأملاك ويستجرون الإشراف ويستصوبون الحساب ويطلبون المقاتل ويحبسون المخاتيل ويستفسدون بالإطعام ويستشيدون بالبناء ويستعمسون وساطة الأطراف ويظهرون الرفاق [١٤٨] ويذهبون في السوء مذهب الخلاف حتى صفونا من أكرار الغرباء وعضونا عن أوزار الجنباء

ذكر دخول شيخ الشيوخ الى الموصل

ولم يرز يستحق الزيد وينتفض العقدة ويتجفف الصواب وينفذ كل حساب [١٤٩] حتى استقر أن يدخل اليهم شيخ الشيوخ لايام العقد المفسوخ وأحكام العهد المنسوخ ونزل ان وردهم صفوا وان عددهم من الخلف خلق وان سقمهم صيغ وان صدقهم صريح

فخصى لإيلافهم وإيلافهم ونهى أخلافهم ورفع خلافهم فظل وبات عندهم يومه وليله وأجروا في منابر شتاهم قبله وأراهم قبله وولاهم قبله فسمع حدباً حديثاً [بناه] رداً عليه للخطاه ذنبه ووجد للخطف جاذباً لم يجد لليلف حبالاً ولا جبالاً ولاهم متفرقين في طرق التلون والتلون غير صريحين على سلوكه النصح الأقوم وأنكروا كل ما ذكره رسولهم وأتى يسوى ما سأله رسولهم ورتب ملاح الدين أن أراد وفاقنا ووافق مرادنا رحل منا ورتب بلادنا ونحن نقضى بينه وبين حلب ولا مطلب أيضاً عليها إسعادنا فلا إلهاد لغير ذلك أئبنا مقبلاً علينا فكيف يجد منا عليه شيئاً فإن رضيت بما سألنا ولا فما سمع الناس وما قلنا [146] وكان المستقر مع الوصل أنهم يستلمون إلينا حلب ويستعبدون سكان البلاد ويعقد معهم الوداد ويعضرون معنا العهد ثم يندسونه على ما قدسوه من التفرير وأخذوا في خيرة من التدبير ولم يكن يحرمهم له سريراً فأنصرف شغفاً متغنياً وتخرج إلى بغداد متوتراً ومضى مكر سكرهم متنتها فهاجروا إليه وتعرضوا وتغصموا وسألوه وتشتعوا وقالوا تعود وتعيد ما سمعته ونحكي من المعنى ما استعملته [استعملت] فلهذا أتى بالعدل بعد التهلكة وترد بالظلمة من عطف علينا ومحب إلى المنهج لأهلهم نرجع بقدر ما رجا واستكشف كذبهم حجاب النجا وما أفتوا صباغ ما جديت ما لوان ليل سيدهم ما دنا فلما اجتمع بالسلطان استعفى من الكلام وبما من حديث ما أبصره ونصحه بن الأقباس فقال له هذه أشهر شراف وبما من بقدرتك طراف وقد عزمنا أن نرحل ونهب لوصولك الموصل

[147] ذكر السبب المقتضى لهذه الرسالة في هذه السنة
لما عرف صاحب الموصل ما تمسنى لنا من فتح آمد وحلب وتيسر كل ما أراذه السلطان وطلب شطرنجاً للخطى البولي ومرد المدوي وأتباع شطرنج الطلوب إليه وأتباع كواب الكرب عليه فكر فكر في حلايب الخلاب ومنج جاء التوفد لجلالة الطلاب ومال إلى الاستعطاء والاستعفاف وتكعب بالاستكانة فجميع الاستكاف ورجع في استعفاء صله [1] الاستعفاف واستدعى من الديوان العزيز إرمال شيخ الشيوخ للاستشفاع لعلمهم أن لا ترى إلا الاعتماد بالطاعة للأمر الطاع وتذب قاضي القضاة صبي الدين أبا حامد أحمد ابن محمد بن عبد الله بن القسم الشهير من الرسالة من جانبه ونما سقيه [1] [148] في طلبه فهاج في جاف أئبى ولسان ذليق وأبنة وبهاج ودواية [1] ودواج وتكفل وتكفل وتطرق وتطرق وتعرض وتفتش وتفتش وتأتج في مهاج الهابة [149] وتأتج في صباغ الإصاية * وعلق لما تفرج من رايه المبد يمين عرابه وتورق في ذروة الخطاب بملونه على منبر من برة الخطابه [1] [بناه] ولو تعلق فعلق شربله في الترفيع بالتواضع [1] وميله إكلان التواضع بقطع أسباب التقاطع كفى الخوف وشي المرش ولم يكن في كلامه ولا في ولم يحدث قابله في المشغل شغل القلب وهو يرى أنه سيج ونصح [1] نصيح [1] فرائع إلى فرائع نائه لنا

وبعد لزم ناموسه وأطاع في حلقه تساميه جلوسه وتقلب ببسر وجهه عند توبيخه عزمه
تقلوبه وبعبوسه وأظهر كفته الأيمن نزل بالوحى من السماء وجاء بمطارق في بيته بالجوزاء
ولم يأخذ في طريق الاستجداء وتلقى أن في ذلك المندوبه نصيحة وبندمة صريحة وبثنية موجبة
ونبأته في كفت ناظيه [Cm. p. 9] كاتمة سرية على أن السلطان قابل شدته باللين وأطاعه
يمينه على أخذ الصين فاشتد واشترط وكما قاربنا تسخط وكما أرضيناه سخط وكما قوتينا
رجاهه قنط وكما توطيننا أمراً جامعاً للمصالح إلى الأمر له المارد ولم يوافق معاذرة
الدوائر ولوائه تلطف واستأنف وترفق وما عطف وعرف وعرف وأكف وما تأقف
بعفا ما عاف وما تعطف لوصفت [Cm. p. 10] المحبة وسحت المحبة ومنع المظلم وروى المظلم
لكفته لزم ما لم يلزم وجزم ما لا يجوز وعين شرطاً له مانع وبين قسماً فيه ملازم وكان
قد استعان بمقوم من خواص السلطان في تمشية الأمر بقدر الإمكان فحسبوا قسماً له
بواطن وبادياً له كوامن وجلعاً يبقى معه الخلف ورفقاً لا ينشئ به للعنف ووفاء كلاً
خلاف ووفاء كلاً بخلاف.

ذكر كشف الحال في ذلك

كانت قد وصلت برسل صاحب الجزيرة وصاحب إربل وصاحب تكريت والحديثة يشكون
من صاحب الحصن وتكليفاته وأمثاله [Cm. p. 11] الكبيرة الكثيرة... وفي الاعتزاز بنا والاعتزاز
بنا يرضيان وكل أخذ من السلطان عهداً أن يحويه ويقويه ويسعده ولا يشقيه وانصرف
رسلم على هذا القرار وشغعت شفاعتهم في أمورهم بالأمر أن كان وصوله مصدر الدين
شيخ الشيوخ وصبي الدين الشهرزوري ووقع الشروع في حديث حادتهم وإجازة دواصم
وابابة برامتهم [Cm. p. 12] وكان القاضى صبي الدين الشهرزوري سالماً في المدونة النظامية وفيه
وأنقأ في الأيام النورية صديق فعد فودى هذه المرة عن مشاورى وصرف عن معاذرة
ولاستشارى لعرضه النهج ولقنته النجاة إذا احتج وسكنت به طريقاً للمصالح جامعة
وللعوائق وأخذه مضرباً عن ستره معزول حتى استقرت قاعدته واستمرت عائدته
ولم يبق إلا معة للتأليف تجدد ونسفة للتجديد تقرر فاستدعاه السلطان ذات
يوم غدوة وقال أكتب شرطاً يكون [Cm. p. 13] لنا في الوفاق قدوة نلت له كنت تستشئ
بأولئك الذين توقعوا بعهذك وسكنوا إلى وعدك وهؤلاء لا يرضون بالاستئذان ولا
يأتون إلا بالألباء وكيف تنسب إلى ترك الوفاء وكيف يشيع هذا بين الأولياء والعقلاء
فقال أكتب ما تشترهني فيه عن الخلف وتنبهني به على صدق الخلف فقلت تخلف
لصاحب الوصل على موصله وأبج مؤثله وإسقاء منوله وتجهل أمر أصاب تلك البلاد
إلى اختيارهم وتجهيلهم على إشارتهم ومن اختاروه فله عنده مؤثله وسؤاله وهو يشوع في
استرضائهم واسترضائهم واستدعائهم على وفق آرائهم فاذا صبح لنا في عودهم إليه أمرهم
بسط عجزنا وقبح ذعرهم فقال لي أمين الآن هو شيخ الشيوخ وعرفه الغضبية وأمره
بعدم الصلة للمرضية وما فيها من المصلحة المرعية للرعاة والرعية والمم أيضاً صبي الدين

وَأَنَا قَدْ أَجَبْنَاهُ عَلَى هَذِهِ الشَّرْطَةِ إِلَى الْيَمِينِ فَأَمَّا شَيْخُ الشَّيْخِ فَاتَّهَ عَرَبٌ وَاعْتَرَفَ
وَأَسْعَدَ بِالْمِرَادِ وَأَسْعَفَ وَأَتَا صَبِيَّ الدِّينِ فَاتَّهَ أَبِي الْقَاسِمَ الْإِبْرَاهِيمَ وَانْكَرَ اسْتِغْنَاءَهُ وَقَالَ لَا تُقْبِلُ
وَلَا تُقْبِلُ وَهَذَا حَقٌّ لَا يَسْتَعِيلُ فَلَا يَنْجِي بِهِ التَّائِبُونَ وَلَا يَنْقُطِعُ بِهِ الْقَتْلُ وَالْقَبْلُ وَأُولَئِكَ فِي بِلَادِنَا
نَبَاتِنَا وَفِي بِلَادِنَا وَلَا تَنَا وَأَمَّا بَنَاتُنَا وَفِي حُدُودِهِمْ عَلَيْنَا مَا لَا خَفَاءَ بِهِ مِنْ تَغْرِيقِ [إِلَاقَةُ] ^{الْكَلَامِ}
وَتَشْيِيتِ الشَّيْلِ الْمُنْتَظَمِ وَتَشْيِيتِ الْعَبْلِ الْمَلْتَمِمْ فَأَمَّا عَرَفُوا أَنَّكُمْ لَكُمْ تَوَقُّعُهُمْ وَعَلَيْهِمْ
أَسْتَفْتِي حَقَّقُوا بِهَامِهِمْ وَطَرَفَتْ أَطَاعَهُمْ وَزَاغَتْ مِنْهَا أَبْصَارُهُمْ وَأَسَاعَهُمْ فَاتْرَكُوا وَأَتَاهُمْ
وَلَا تَدْرِكُوا بِكُلِّهَا وَأَمَّا دُرُودُ الْيَوْمِ بَاتَا إِنَّمَا قَبْلُنَاكُمْ أَيَّامَ السَّخَطِ وَتَحْمِيَّتِكُمْ فِي أَوَانِ السَّخَطِ
وَالْقَبْلُ فَقَدْ قَبِلَ الصَّامِعُ وَشَلَّ النَّيْمُ فَأَجْبِرُوا عَلَى الْعَادَةِ وَلَا تَخَالَعُوا فِي الْإِرَادَةِ نَقَلْنَا مَا نَأْخُذُ
مِنَ الْآنَ عَهْدًا كَمَا شَرَعْنَا وَشَرَكْنَا وَنَقَلْنَا بِهِ الْيَانِبَ وَاحْتِطْنَا وَاشْرَعُوا أَنْتُمْ فِي الْأَسْمَانَةِ
وَبَنَدْنَا طَرِيقَ الْأَسْتَعْلَةِ حَتَّى قَبِلَ الرِّسُولَ وَلَا تَمَّ يَقُولُهُ السُّوْلُ تَمَّ اسْتَدْنُوا فِي الْأَنْصُرَانِ
وَالْإِسْتِمَانِ عَلَى مَا تَقَرَّرَ مِنَ الْأَسْتَعْلَةِ فَالْكَرَامُ الرِّسُولُ الْكَرَامُ وَقَعِيَتْ حَقُوقُهُمْ بِكُلِّ تَشْرِيبٍ
وَعِطِيَّةٍ وَتَقْفَةٍ وَهَدِيَّةٍ وَكَانَ مَدْرُودُ الدِّينِ شَيْخُ الشَّيْخِ كَبِيرُ الْعَمَةِ أَثِيرًا لَا يَقْبَلُ قَدِيلًا وَلَا كَثِيرًا
فَإِذَا تَحَمَّلَ إِلَيْهِ الْعُلَمَاءُ نَزَّهَتْهُ عَلَى الْأَعْيَادِ الَّذِينَ مَعَهُ مِنَ الدُّبُونِ الْإِمَامِي وَمَعَهُمْ أَحْوَالُهُ بِالْخَلْقِ
الْوَحْدَانِيِّ لِمَا زَلَّتْ بِهِ حَقِّ أَسْبَابِ كُلِّ يَوْمٍ إِلَى رُضِيْفٍ وَبَابَةٍ مَحْتَجَّةٍ مِنْ دِمَاجَةٍ فَلَمَّا خَرِجُوا مِنْ
حَدِيقِ عَائِزِينَ عَلَى السَّيْرِ وَحَرَفَ السُّلْطَانُ أَنَّهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِالْقَصِيرِ فَكَانَ قَدْ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ
صَدْرِ الدِّينِ شَيْخِ الشَّيْخِ وَأَتَتْهُ كُلُّهَا وَوَدَّ بِالْقَصِيرِ صَدْرُ الْقَصِيرِ وَقَدْ غَوَّلَتْ عَلَى أَنْ أَرْكَبَ
لِيُوَادِعَهُ [إِلَاقَةُ] وَأَقْرَبَ لِأَتِيَامِهِ وَأَقَابِلَ مَثَلِهِ بِامْتِثَالِهِ وَأَقْبَلَ مَقَالَهُ لِأَجَلِهِ وَاجْتِلَالِهِ وَجَمْعِ
تَشْتَلُّهُ أَوْ رَأْيِهِ وَاشَاوَرَهُ وَكَتَبَ نَسْخَةَ الْيَمِينِ كَمَا يَحْلِيهِ بِعِبَارَتِهِ فَسَبَقَتْ إِلَيْهِمْ بِأَسْرِ
السُّلْطَانِ وَبَعَثَتْهُمْ بِسُرْعَةٍ وَصُولِهِ وَشَرْعِيَّةٍ قَبُولِهِ فَلَمَّا وَصَلَ نَزَلَ فِي خِيَمَةِ الْعَدْرِ وَتَضَعُ الْبُشْرَ
ثُمَّ كَشَفَ لَهُ عَنِ الْقَضَاعَةِ بِمَا سَأَلَهُ الْقَتَاعُ وَبَسَّالَهُ بِالرَّسُولِ فِي عَقْدِ الْإِبْرَاجِ وَالْإِحْتِمَالِ فَأَرْسَلَ
إِلَى يَمِينِ يَدِهِ بِالْأَمْرِ وَيَقْفَهُ عَلَى الْبَسْرِ وَيَقْبِضُ عَلَيْهِ سَعَةَ الْعَدْرِ نَقْلًا وَرَأَى قَوَامِعَ السُّلْطَانِ
قَرِيبًا وَنَسِيَ مَا اخْتَرَجَ وَلَمْ يَذْكُرْ مَا اخْتَرَجَ وَقَالَ أَنَا بَعْدَ مَا جِئْتُ مِنَ الْعَمَلِ لَا رُحْبَةَ لِي فِي
الْإِسْتِمَانِ حَتَّى أَنْهَى لِي مِنْ حَقَقِي بِالرِّسُولِ وَلَعَلَّكُمْ اعْتَقَدْتُمْ أَنَّهُ لَيْسَ لَنَا مُخَاصَرٌ وَلَا مُخَاصَرٌ
وَلَا مُؤَادِرٌ بَلْ لَنَا مِنْ يَسَائِلِ عَمَّا وَشَيْئًا عَلَيْنَا وَبَعْضًا وَمِمَّا يَسَائِلُ الْبِنَا وَنَحْنُ نَكَاتِبُهُ نَسْتَشِيرُ
بِهِ وَلَا تَتَوَجَّعُ خِلَافَ مَذْهَبِهِ وَأَشَارَ إِلَى سُلْطَانِ الْعَمِّ وَالْبَهْلَوَانِ فَأَذِنَ هَذَا الْقَوْلُ بِغَفَارِ
السُّلْطَانِ وَتَمَرَّكَ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ وَوَقَعَ وَكَسِبَ وَبَعْدَ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ خَرِبَ وَكَانَ قَدْ أُرْسِلَ
لِلْإِفْطَاءِ فَأَسْعَدَ وَالْإِسْتِعْدَادَ فَتَكَبَّرَ وَالْإِحْجَادَ فَأَشْجَلَ وَالْإِرْشَادَ فَأَذْهَلَ وَاللِّتْقِيلَ فَكَثَّرَ
وَالْإِفْكَالَةَ فَعَشَّ وَالْإِسْتِزْهَادَ فَانْقَضَبَ وَالْإِنْجِيَاءَ فَانْقَضَبَ وَالْإِسْتِمَانَةَ فَاشْتَدَّ وَالْإِسْتِمَانَةَ فَاحْتَدَّ
وَالْإِسْتِمَانَةَ فَشَمَّ وَالْإِسْتِعْطَامَ فَدَمَّ [إِلَاقَةُ] وَالْأَسْوَ فَعَقَرَ وَالْعَمِّ مَكَدَرُ كَانَ السُّلْطَانُ
فَأَمَّا الْعَزْمُ فِي الْعُدَّةِ إِلَى الدُّوَلِ فَهَاجَهُ وَبَرَفَ إِلَيْهَا مَزَامِيهِ وَبَدَّلَهَا مِنْهَا جِهَةً عَلَى تَحْتِكِ
مِنْهُ بَطَاهِرُ يَمِينِ لَوْصَحَ يَدُهُ فِي يَمِينِ وَفَارَ لِحْزِيلُهُ فِي مَكَانِهِ بِتَحْمِيْنِ

الفصل الخامس

ظهور صلاح الدين

١١٦٩ - ١١٨٩

يشكل عهد صلاح الدين أكثر من حادثة عابرة في تاريخ الحروب الصليبية .

* إن المصدر الأساسي لهذا الفصل هو كتاب البرق الشامي من تأليف كاتب صلاح الدين عماد الدين الإصفهاني (والمجلدان الثالث والخامس من هذا الكتاب هما الموجودان لدينا فقط على شكل مخطوطة . أما المجلدات الأخرى فهي ملخصة مع غيرها من المواد المعاصرة في كتاب الروضتين لأبي شامة ، الذي ترجمت أجزاء منه في (RHG, Or., IV, V) ولا تصيح سيرة صلاح الدين التي وضعها بهاء الدين (RHG, Or., III) مصدر آ مباشرة إلا ابتداء من العام ١١٨٦ . بينما ابتداء من ١١٨٧ فصاعداً هناك كتاب عماد الدين الأسبق والأقصر ، الفتح القشي ، (طبعة ليدن ، ١٨٨٨) وهو يضاهيه جدارة في الاعتماد والقبول . إن روايات ابن الأثير في تاريخه العام (الكامل ، المجلدان الحادي عشر والثاني عشر ، طبعة ليدن ، ١٨٥١ - ١٨٥٣ . وتوجد منتخبات منه في (RHG, Or., I, II) معظمها مستقاة من عماد الدين . وتبقى الأمانة في وضع مجموعة كاملة للوثائق الموجودة عن القاضي الفاضل . هناك قائمة ناقصة في كتاب A.H. Helbig عن « القاضي الفاضل » (لايبزيغ (١٩٠٨) أما كتاب س. لين - بول عن « صلاح الدين وسقوط مملكة القدس » (لندن ونيويورك ١٨٩٨ ، والطبعة الجديدة أصدرها H.W.G. Davis عام ١٩٢٦) فلها تستند بشكل رئيسي إلى ابن الأثير وبهاء الدين .

* Gibb, H.A.R., « The Rise of Saladin, 1169 - 1189 », Chapt. XVIII of A History of the Crusades Vol. 1, ed. by K.P. Setton, pp. 563 - 589, Philadelphia 1958 c by the regent of the Univ. of Wisconsin.

فهو يمثل إحدى تلك اللحظات النادرة والمثيرة في التاريخ البشري ، وذلك عندما يكون التصميم الأخلاقي ووحدة الهدف قد أطاحا لفترة وجيزة بكل من الشك في طيبة الدوافع البشرية والتحرر من الوهم ، وهما التاجمان عن خبرة طويلة لأطماع الأمراء الأثانية . إذ لم تكن الجيوش الإسلامية بدون هذا الأساس لتملك القدرة ابدأ على إفساء الصراع المضمني وتحمله خضلال الحرب الصليبية الثالثة . فلو شئنا النظر إلى ذلك الانجاز وفهمه في إطاره التاريخي ، لوجب القيام بمحاولة لإظهار كيف استطاع صلاح الدين ، في استخدامه - كما كان عليه ان يستخدم - للمواد الموجودة في متناول يده ضمن الظروف السياسية لعصره ، ان يتغلب على جميع العقبات لكي يخلق وحدة معنوية برهنت ، رغم أنها لم تتحقق بصورة كاملة أبدأ ، ان لها من القوة ما يكفي للوقوف بوجه التحدي من القرب .

قضى صلاح الدين يوسف بن أيوب طفولته في بعلبك ، حيث كان أبوه أيوب حاكماً للأمراء الزنكيين في البداية ولأمراء دمشق لاحقاً . وفي العام ١١٥٢ ، وكان عمره ١٤ سنة ، التحق بعمته شيركوه في حلب وبخدمة نور الدين ، فأعطي إقطاعاً . ثم خلف عام ١١٥٦ أخاه الأكبر توران شاه كخائب لعمته في ديوان الجيش بدمشق ، لكنه تخلص عن المنصب بعد زمن قصير احتجاجاً على احتيال المحتسب الأكبر . وانضم مجدداً إلى نور الدين في حلب فأصبح واحداً من ملازميه المقربين . و «لم يفارقه ابداً سواء في رحلاته أم في غزواته» (١) . ثم تولى مرة أخرى فيما بعد منصب نائب القائد في دمشق لفترة غير محدودة . وإلى جانب براعته في لعبة الجوكان (البولو) وهي لعبة رياضية أصلها شرقي يمارسها اللاعبون على ظهور الخيل فيتقاذفون كرة خشبية بمضارب طويلة . المترجم) التي ورثها عن أبيه ، واهتمامه بالعلوم الدينية الذي استوحاه

١ - ابن أبي طي ، وقد استشهد به أبو شامة (100 ، I)

على الأرجح من منافسته الإعجابيّة بنور الدين ، فلا نعرف شيئاً غير ذلك تقريباً عن سنواته الباكرة .

كان صلاح الدين خلال الحملات الأولى في مصر قد لعب دوراً ثانوياً لكنه ليس بالدور المغمور تحت قيادة شيركوه . وعندما استدعي شيركوه للمرة الثالثة إلى مصر عند نهاية ١١٦٨ ، بناء على التوسّل العاجل من جانب الخليفة الفاطمي العاضد ، رضخ صلاح الدين مكرهاً - على حدّ قوله هو - لأوامر نور الدين بمرافقته . ويبدو جلياً أن القصد من وراء هذا المنصب هو أن يكون منصباً دائماً هذه المرة . ففي رواية ابن الأثير أن الخليفة الفاطمي كان قد اتخذ ترتيبات مسبقة لتوزيع الاقطاعات على الضباط السوريين . كانت مأثرة صلاح الدين الأولى بهذا الصدد القاء القبض على الوزير المتآمر ، شاور ، الذي كان مسؤولاً عن استدعاء الفرنجة ، وإعدامه بناء على أوامر الخليفة . فتولى شيركوه الوزارة ، وأشرف صلاح الدين بالأصالة عنه على سير الإدارة .

وعندما توفي شيركوه فجأة بعد مضي تسعة أسابيع ، كان صلاح الدين بالتالي خليفته الطبيعي ، رغم أن نقرأ من مقدمي نور الدين الاتراك استأثروا مسن تعيينه وقفلوا راجعين إلى الشام . إن شهادة تعيينه (تنصيبه) الفخمة بتاريخ ٢٦ آذار ، ١١٦٩ ، ومنحه رسمياً لقب «الملك الناصر» ، لا تزال موجودة . فهي من تأليف صديقه المخلص ومستشاره القاضي الفاضل ، ومن بين فقراتها الطنانة ترد عبارة تنبؤية على نحو يسترعي الانتباه ، إذ يقول :

« والجهاد أنت رضيع درّه ، وناشئة حجره . . . فشمّر له عن ساق من القنا ، وخض فيه بحرّاً من الطيّبي . . . حتى يأتي الله بالفتح الذي يرجو امير المؤمنين ان يكون ملذخوراً لأيامك ، وشهوداً لك يوم مقامك» (ابوشامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، مجلد أول ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٤٠٩ . المترجم) .

كانت مهمته الأولى هي التصدي للمشكلات التي أثارها مركزه في مصر . وفي الواقع ، مع ان صلاح الدين تعييناً رسمياً كوزير ، فقد كان «السلطان» ، ودُعي بهذا اللقب عموماً . مع القاضي الفاضل كوزير له . فالشذوذ الظاهر من وجود وزير سنّي لدى خليفة فاطمي لم يكن بالشيء الجديد ، لأنه طيلة قرن تقريباً كان هناك وزراء سنّيون على فترات متقطعة في مصر . وحتى زمن حديث العهد كان الخلفاء العباسيون تقريباً بمثابة أدوات سلبية في أيدي السلاطين السلاجقة ، أعداء الفاطميين الأتداء . واعتناق المذهب السنّي لم يكن ينطوي بالضرورة على اعتراف سياسي بالعباسيين . غير ان العباسيين الآن أخذوا يشبّون سيادتهم من جديد ضد السلاجقة ، وكانت حركة الجهاد في بلاد الشام ، المولودة من إحياء للارثوذكسية السنية ، قد وضعت نفسها تحت رايته . فلا يمكن قيام أية وحدة فعّالة مع مصر إلاّ بموجب هذه الشروط وبالتالي فإن صلاح الدين كان ملزماً بمبادئه في إرجاع مصر إلى الولاء العباسي ، لكن الضرورة دعت إلى تمهيد السبيل أمام التغيير .

قبح الخطر الرئيسي في الجيش المصري ، المؤلف من أفواج عديدة من الفرسان البيض وحوالي ٣٠,٠٠٠ من المشاة السودانيين . قبدأ صلاح الدين على الفور ببناء جيشه الخاص على حساب الضباط المصريين ، وعندما اندلعت ثورة السود كان قد أصبح لديه من القوات النظامية ما يكفي لإهلاك القسم الأعظم منهم وطردهم خارج القاهرة إلى الصعيد ، حيث عمد اخوته في مجرى السنوات الخمس التالية إلى سحق مقاومتهم تدريجاً . أما قوات البيض فلم تبد حراكاً ، ويبدو أنها تعاونت مع صلاح الدين في صد هجوم امريك (أموري أو عموري) على دمياط (١١٦٩) ، وفي الإغارة على غزة والاستيلاء اللاحق على أيلة في كانون الأول ١١٧٠ (٢) . لكن نور الدين كان يلح عليه لاتخاذ الخطوة الحاسمة

٢ - فيما يتعلق بحملة امريك المصرية انظر **A History of the Crusades** Vol I, Chapter XVII, pp. 557 - 558

بإعلان الخلافة العباسية في مصر ، وبعد طويل وقت بعث إليه في شهر حزيران سنة ١١٧١ بأمر رسمي ان يفعل ذلك ، وفي الوقت ذاته أبلغ الخليفة العباسي عن عمله . فأطُيع الأمر دون اضطرابات خارجية فورية . ولدى وفاة العاضد بعد ذلك بزمان قصير جرى وضع أبناء البيت الفاطمي في أسر مشرف وتمّ الفصل بين الجنسين لكي تنقرض سلالتهم مع سير الزمن الطبيعي ، واقتُسمت الكنوز الضخمة التي في قصورهم بين مقدمي صلاح الدين ونور الدين (أبو شامة : « وفرق بين النساء والرجال ليكون ذلك أسرع إلى إنقراضهم ») .

غير أن العلاقات الطيبة التي استمرت حتى هذا الحين بين نور الدين وصلاح الدين أخذت في التوتّر تدريجاً . وربما أثّرت بعض الشبهات من جرّاء إخفاق صلاح الدين في مساعدة سيّده خلال الحملة على حصن الشوبك في تشرين الاول ١١٧١ ، مهما يكن من أمر الأسباب الوجيهة التي ارتأى تقديمها لتبرير انسحابه . وفي السنة التالية تبين ان هديته إلى نور الدين من كنوز الفاطميين هي غير كافية . فمن المحتمل أن تعود أسباب التوتّر ، جوهرياً ، إلى اختلاف الآراء السياسية . إن نور الدين اعتبر بلاد الشام بمثابة الأرض الرئيسية للمعركة ضد الصليبيين ، وتطاع إلى مصر في الدرجة الأولى كمصدر للواردات تُسدّ به نفقات الجهاد ، وفي الدرجة الثانية كمصدر للطاقة البشرية الإضافية . ومن الجهة الأخرى ، يبدو ان صلاح الدين - استناداً إلى التناقض الأسبق على مصر ومحاولة إحتلال دمياط عام ١١٦٩ ، وفي كونه على الأرجح عالماً بفحوى المفاوضات التي أجراها أمليرك مع الامبراطور البيزنطي عام ١١٧١ - كان مقتنعاً بأن نقطة الخطر الرئيسية في الوقت الراهن على الأقل تقع في مصر . كذلك كان صلاح الدين أكثر وعياً من نور الدين للأخطار الناجمة عن عداء القوات الفاطمية السابقة واستعدادها للانضمام إلى جانب الفرنجة . لذا فإن واجبه الأول ، بنظره ، كان في بناء جيش جديد ذي قوة تكفي للاحتفاظ بمصر في جميع الظروف الطارئة ، وفي اتفاق ما استطاع اليه سبيلاً من الموارد على هذا الغرض .

ولأسباب تتعلق بالأمن الداخلي إلى حدّ كبير أيضاً أرسل صلاح الدين
العساكر لاحتلال مراتع النشاط الفاطمي عند أعالي النيل وفي اليمن ، مع أن
طموح أخيه الأكبر توران شاه كان له بعض النصيب في الحملة الثانية . ويتجلّى
مدى جدية هذا الخطر بنظر صلاح الدين في حقيقة كون الدفاع عن مصر ضد
هجوم مفاجيء قد بقي واحداً من اهتماماته الدائمة حتى آخر حياته . غير أن
الامتداد المتواصل لنفوذه وقوته العسكرية ، التي كانت عام ١١٧١ تضاهي
القوات الموجودة بتصرف نور الدين ، وإن لم تكن حتى تتجاوزها ، ربّما جعلت
نور الدين قلقاً . وكان هناك شيء من الكلام عن نيته في النزول إلى مصر بنفسه .
لكن حسن نيّة صلاح الدين تبدّى من خلال حملة شنّها ضد بدو الكرك عام
١١٧٣ لكي يحمي المواصلات مع بلاد الشام ، فاكتمى نور الدين تلك اللحظة
الراهنة بإيفاد مدقّق لتنظيم حسابات صلاح الدين الماليّة ونفقاته العسكرية ورفع
التقارير بشأنها . ومهما يكن من أمر الخطط الأخرى التي ربما راودته ، فإن موته
بتاريخ ١٥ أيار ١١٧٤ قد اختصرها ووضع حدّاً لها .

ودخل الضباط الكبار في جيش نور الدين فوراً في تنافس على وصاية ابنه
الصغير الملك الصالح . ولم يكن بوسع صلاح الدين أن يبقى غير مهال بهذا
الاندلاع للمزاحمات ، لكنّه في الوقت الحاضر لم يتخذ أيّ إجراء بحيث يتعدّى
الاعتراف بالصالح سلطاناً عليه . ففي حزيران ضرب امريك حصاراً حول
بانياس ، لكن صلاح الدين كان عاجزاً عن التحرك إذ تلقى تحديراً من
القسطنطينيّة بأن يتوقع هجوماً للأسطول الصقلي . ولم يقم الهجوم البحري ضد
الاسكندريّة إلّا عند نهاية تموز ، فألحقت به الهزيمة ، وفي تلك الاثناء كانت
الأمر في بلاد الشام قد جنحت نحو تحوّل خطير . فأمرأء دمشق عقدوا
صلحاً منفصلاً مع القدس لقاء دفع الجزية ، واجتاح ابن اخي نور الدين في
الموصل كل الولايات الواقعة ما وراء الفرات وضمّها إليه ، وفي شهر آب أقام
الخصي كمشكين نفسه ، بعد أن ضمن شخص الصالح إلى جانيه ، على حلب

وألقي بملازمي نور الدين في سجنونه . لقد تعطلت وحدة الإسلام بوجه الصليبيين . وفي جوابهم على اعتراضات صلاح الدين وتلميحاته بالتدخل ، ناشده الأمراء أن يكون مخلصاً للبيت الذي ربّاه . فكان جوابه قاطعاً : «إنّا لا نؤثر للإسلام وأهله إلّا ما جمع شملهم وألّف كلمتهم ، ولبيت الانتابكي أعلاه الله تعالى إلّا ما حفظ أصله وفرعه ، وبنّى ضرّه وجلب نفعه ، فالوفاء إنّما يكون بعد الوفاة ، والمحبة إنّما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العداة . وبالمحبة إنّما في واد ، والظانّون بنا ظنّ السوء في واد » .

لذا فإنّه وطّد نفسه على إعادة بناء الصرح المتداعي لامبراطورية نور الدين ، على وعي تامّ منه لرسالته كوريث حقيقي لنور الدين ، فاحتلّ دمشق بناء على نداء ملّح من قائدها دون معارضة تقريباً ، بتاريخ ٢٨ تشرين الاول ١١٧٤ . ومهما يكن من أمر التبرير الكامل لعمل صلاح الدين بالنسبة له وفي ضوء التاريخ ، فإنّه لم يكن متوقفاً لمعاصريه ومنافسيه ان ينظروا إليه في الضوء ذاته . فمن الطبيعي تماماً انه لم يكن في أنظارهم سوى واحد منهم فحسب ، ومن المحتمل انه استوحى الدوافع نفسها من المصلحة الشخصية والتعطش إلى السلطة ، مهما يكن قد بلغ إلى تغليف تلك الدوافع بتوسّلات طنّانة لمبادئ الإسلام ومصلحه . لقد بدا احتلاله لدمشق مجرد تحرك بارع فحسب لإحباطهم . وحين قام بتعيين أخيه طاشتكين حاكماً على دمشق ، واستعجل نفسه صوب الشمال في شهر كانون الأول على رأس قوّة صغيرة لاحتلال حمص وحماه ومطالبة حلب ، بان تفتح له أبوابها معتبرة إياه الوصي الشرعي للصالح ، استنّجوا من ذلك انه لا يلوي على شيء سوى المبالغة في توسيع رقعة بيته على حساب بيت الزنكيين .

هذه هي النظرة إلى صلاح الدين التي يقدمها مؤرّخ الموصل ، ولقد كانت نظرة الصالح نفسه ، إذ ناشد سكان حلب أن يحموه من مخلصه الذي نصّب نفسه

بنفسه . فالتجأ الامراء إلى الوسائل المألوفة : استئجار القداثيين («الحشاشين») من سنان ، «شيخ الجبل» لاغتيال صلاح الدين ، وإبرام اتفاق مع ريموند الصنجيل صاحب طرابلس ، وكيل مملكة القدس ، بأن يقوم هذا ، لقاء خدمات ماضية ولاحقة ، بتنفيذ عملية إلقاء في مهاجمة حمص ، ونداء إلى الموصل باسم تضامن الأسرة . لقد فشلت محاولة الاغتيال ، لكن صلاح الدين تراجع للدفاع عن حمص (٣) . وعقب شهرين من ذلك ، وإزاء القوى المجتمعة لكل من حلب والموصل ، وافق صلاح الدين على إرجاع شمالي سورية والاكتفاء بالقبض على زمام دمشق كقمة للصالح . فحاول الخلفاء الألاح على مزيد من المكاسب ، وعندما رفض صلاح الدين التنازل أكثر من ذلك ، هاجموه لكي تنزل بهم المزيعة عند قرون حماه ، بفضل وصول الأفواج المصرية في الوقت الملائم . وعندما وضع صلاح الدين قواته حول حلب للمرة الثانية ، لم يكن أمام كشتكين من خيار سوى القبول بشروطه ، مما ترك حلب بأيدي الصالح على شرط أن يجتمع الجيوشان في عمليات ضد الفرنجة .

كان هذا عند نهاية شهر نيسان ١١٧٥ . وبعد أيام قليلة ، في حماه ، جاء الرسل من دار الخلافة حاملين توليته رسمياً على حكم مصر والشام (٤) . بالنسبة لمعظم أمراء زمانه كان هذا الأمر مجرد إجراء شكلي ، لكنه بنظر صلاح الدين كان أكثر بكثير من ذلك . وإذا كانت الحرب التي نذر لها نفسه ضد الصليبيين ستصبح جهاداً حقيقياً ، فمن الواجب أن يكون شنتها في مراعاة دقيقة لشريعة الإسلام المنزلة . فالحكومة الساعية لخدمة دعوى الله في معركة يجب ألا تكون حكومة شرعية ومخولة السلطات تماماً من جانب الممثل الأعلى للشرع الإلهي

٣- راجع : تاريخ الحملات الصليبية ، المصدر السابق ، ج ١ ، الفصل الرابع ، ص ١٢٢ .

٤- لا يوجد أي دليل على كون صلاح الدين في أي وقت من الأوقات قد ذال بصورة رسمية لقب السلطان من الخليفة .

فحسب ، بل ينبغي لها أن تخدم الله بغيرة مماثلة في إدارتها ومعاملتها لرعاياها .
ولقد سبق له ، خلال سنواته الأولى في مصر ، واقتفاء بالقدوة التي أرساها نور
الدين ، أن ألغى جميع أشكال الضرائب (المكوس) التي كانت منافية للشرع
الإسلامي ، وكان أول عمل له في دمشق هو إلغاء الضرائب هناك . كانت هذه
ممارسته الثابتة كلما ضم شيئاً إلى أراضيه ، وقد نصّت عليها بصورة رسمية
البراءات التي أصدرها إلى عملائه وتابعيه . ومن الصحيح أنهم لم يراعوا هذا
الشرط دائماً ، لكن المخالف كان يجد نفسه على الأرجح مجرداً من حكمه نتيجة
لذلك في غير إبطاء . فالمصادر ترسم صورة حيّة للدهشة التي اعترت قاداته
ورعاياه مراراً وتكراراً من جراء عزوفه التام عن المقتنيات الشخصية وممارسة
السلطة ، وهي التي كانت بمثابة الأهداف الأولى لمعظم الأمراء والحاكّمين ومن
جملتهم أبناء بيته ، واعتباره للغي كشيء يجري استخدامه في تنفيذ الجهاد أو
اعطاؤه للآخرين . إن هذه الحقيقة كانت مسجلة بوضوح حتى لدى الصليبيين .
فقد لاحظ غليوم السوري ، في فترة ترجع إلى زمن مبكر من العام ١١٧٥
وعندما وافق ريموند على الشروط مع حلب لكي ينسب صلاح الدين ، ما يلي :
« كل ازدياد في قوّة صلاح الدين كان سبباً يثير الريبة في انظارنا . . . لأنه كان
رجالاً حكيم المشورة ، وبأسلاً في الحرب ، وشهماً إلى أبعد حدود الشهامة .
وبدا لنا أكثر حكمة إن نعدّ العون للملك الصبي . . . ليس من أجل ذاته ، بل
بل لتشجيعه كخصم ضد صلاح الدين » (٥) .

لا يمكن العثور على تبرير أعظم من هذا للسياسة التي تبناها صلاح الدين .
وبعد ثمان سنوات استخدم الحجّة نفسها في رسالة صريحة إلى دار الخلافة ،
حيث قال :

« والذي أجراه الله على يد المملوك من الممالك التي دوتحها ، وسنن
الضلال التي نسخها وعقود الإلحاد التي فسحها ، ومنابر الباطل التي رخصها ،
وحجج الزندقة التي دحضها ؛ فله عليه المنّة فيه إذ أهله لشرف مشهده
وما فعله إلّا لوجهه ، ويد الله كانت عون يده ؛ وإلّا فقد مضت الليالي

والآيام على تلك الأمور وما تحركت للفلك في قلعها نابضة وغبرت الأحوال
على تلك البدعة وما ثارت لأفراسها رابضة » .

ولم تكن الحقائق على قدر مماثل من الوضوح في الموصل ، حيث استقبلت
شروط الاتفاق مع حلب ، ومن المحتمل أيضاً وثيقة التمييز من الخليفة ، بغضب
يميل إلى عدم التصديق . وليس الأمر فقط ان أميراً من آل زنكي قد جرى
تقايسه بالفعل حتى أصبح تابعاً لأحد مخلوقات أبيه . فالشيء الذي كان أشد
مثاراً للكره هو كون ذلك المخلوق أكردياً تحدى احتكار السيادة الذي تمتع به
الأتراك طيلة قرن ونصف القرن ، فأنعم بمغائمه على بني قومه . وإلى أي مدى ،
حقاً ، كانت الدوافع الشخصية ممتزجة بإخلاص صلاح الدين الحقيقي لدعوة
الإسلام ومثله العليا ، فإن هذا السؤال قد تتعدّر إمكانية البتّ فيه أبداً . لكن
في ظروف زمانه ، مهما كانت دوافعه إثارية ، فإن السبيل الأوحّد لتحقيق
غرضه كان يتركّز السلطة في يديه ، وتفويضها إلى أشخاص يستطيع الركون إلى
ولاثهم بثقة مطلقة . ثم قاده موقف الزنكيين في الاتجاه ذاته ، عندما أظهرت له
الأحداث عبثية الاعتماد على التحالفات والاتحادات الكونفدرالية .

انتقم صلاح الدين من الحشاشين قبل مغسادرته شمالي سورية بالاغارة على
مناطق الاسماعيليين في جبل السّمّاق ، ثم انسحب إلى دمشق وعقد هدنة مع
القدس . وجرى إيفاد رسول إلى الموصل لكي يضمن قبول سيف الدين
بالاتفاق ، فحصل على تأكيدات مرضية . لكن عندما جاء رسول الموصل بدوره
إلى دمشق لاستحلاف صلاح الدين على شروط الاتفاق ، فإنه تقدّم خطأً بوثيقة
تنصّ على قيام حلف هجومي ضده بين الموصل وحلب . لذا فقد كان مستعداً
عندما حشد الحلفاء قواتهم من جديد في نيسان ١١٧٦ . فسار نحو الشمال والتقاهاهم
في الثاني والعشرين منه عند تلّ السلطان ، على مسافة ١٥ ميلاً من حلب .
وطردهم من ميدان المعركة دون تردد . وكبح جماح جيشه عن التعقّب ، بأن
وزّع عليهم الاسلاب الضخمة ، واطلق سراح الأسرى ، كما أعاد إلى سيف
الدين أقمّاص الطيور من القماري والبلابل والهازار والبيغاء التي وُجدت في ملهى

المعسكر وأرفقها برسالة نهكـمـيـة تدعو سيف الدين إلى اللعب بطيوره والابتعاد عن المغامرات العسكرية التي «توقعك في مثل هذا المحذور» (عُد إلى اللعب بهذه الطيور فلنـها ألدّ من مقاساة الحرب). ويقول المؤرّخ الحلبي المعاصر «ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانة من كثرة الخمر والبرابط والعيدان والجنوك والمغنيين والمغنيات، فأرى ذلك لعساكره واستعاذ من هذه البلية».

وقد ظلّت حلب صامدة على الرغم من شهامة صلاح الدين. لكنّه عندما حاصرها من جديد في ٢٥ حزيران وبعد ان اقتحم قلاعها الحصينة إلى الشرق والشمال: بُزاعة ومنيج واعزاز - وافق المدافعون عنها على تجديـد للاتفاقية المعقودة قبل سنة. فجرى التوقيع على صلح عام عقب مضي شهر بين صلاح الدين وأخوه توران شاه (السلطان في دمشق الآن)، أمراء حلب والموصل، والتابعين الارتقيين في الموصل (أمراء حصن كيفا وماردين)، بحيث أقسم جميع الفرقاء على الوقوف سوية ضدّ أي واحد منهم ينتهك حرمة الاتفاق. وأرجعت اعزاز إلى الصالح بناء على مداخلة اخته الصغرى، فتعهد بأن يمدّ صلاح الدين بمساعدة عساكر حلب فيما لو طلبها.

جرت محاولة ثانية وأشدّ تصميمًا خلال حصار اعزاز ضد حياة صلاح الدين، وقد قام بها فدائيون من الحشاشين^(٦). ولدى عودته من حلب، زحف على مصياف، المقرّ الرئيسي للطائفة في الشام، وضرب حصاراً حولها بينما كانت قواته تعيثُ خراباً ونهباً في الجوار. إن ما تبع ذلك تغلّف معظمه الأساطير، لكن صلاح الدين انسحب إلى دمشق وصرف قواته إلى منازلهم. وكل ما هنالك على وجه التأكيد هو أنه لم يكن لديه لبقية حياته ما يخشاه من الحشاشين.

رجع صلاح الدين إلى مصر بعد زواجه في دمشق من أرملة نور الدين وكان

٦ - راجع تاريخ الحروب الصليبية، المصدر السابق، ج ١، الفصل الرابع، ص ١٢٣-١٢٤

يحكم مصر في غيابه أخوه العادل سيف الدين ، فشغل نفسه مدة سنة بالشؤون الداخلية . وانصب اهتمامه الرئيسي على تشييد القلعة وأسوار القاهرة العظيمة وكان قد بدأها عام ١١٧١ كإجراء احتياطي ضد هجمات الفرنجة في المستقبل ، بالإضافة إلى إهتمامه بإعادة تنظيم الاسطول . وفي الوقت نفسه اهتمّ جدّاً بأن يرعى في مصر حركة الاصلاح السنّي التي شجّعها نور الدين في بلاد الشام ، فأرسى هو والعادل القدوة بتأسيس المدارس الجديدة التي انتشرت منها تلك الحركة . في تلك الأثناء كان ابن اخيه تقي الدين عمر ، وهو أشد أعضاء الأسرة ولعاً بالحرب وتهوراً ، وقد راقب بعين الحسد توزيع الممالك والحكومات إلى أقاربه — منهمكاً في محاولة ترمي إلى انتزاع مملكة لنفسه في المغرب . وهي محاولة أدت في نهاية المطاف إلى صدام مع سلطان الموحدين في المغرب . إن صلاح الدين ، حسب ما تصل إليه الأدلة ، لم يشترك في تنظيم هذه الحملات ، لكنه من المؤكّد تغاضى عنها ، حتّى انه عزا فضلها لنفسه في رسائله إلى بغداد .

في آب ١١٧٧ جاءت الأخبار بوصول فيليب الفلاندرى (إقلندس) إلى فلسطين فأعطت الإشارة باستعدادات مجدّدة للحرب . وسواء كان صلاح الدين مطلعاً أم لا على المقترحات المعروضة على إقلندس لكي يغزو مصر ، فلقد نصّت شروط الهدنة مع الفرنج على « أنهم إذا وصل لهم ملك أو كبير ، ما لهم في دفعه تدبير ، أنهم يعاونونه ولا يباينونه ، ويحالفونه ولا يخالفونه ، فإذا عاد عادت الهدنة كما كانت ، وهانت الشدة ولانت » (٧) . وبينما كان الصليبيون يتحركون لحصار حارم ، عقب هجومهم على حماه ، خطط صلاح الدين لغارة واسعة النطاق على عسقلان وغزة . إن عماد الدين يرسم صورة حيّة للثقة الطائشة لدى العساكر المصريين بأن احتشادهم في قاعدة التقدم وتشبّثهم في غزوات السلب والنهب على امتداد المناطق الريفية . فلهجوم المفاجيء بتوقيته

٧ - ص ٢٧٧ في البرق الشامي (iii, f. 25v) وقد ذكره ابو شامة I, 275
انظر أيضاً : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ، الفصل التاسع عشر ، ص ٩٩٥ .

الحسن الذي شنته بغدوين (بلدوين) الرابع على كنيّة الحرس عند «تل جزر» يوم ٢٥ تشرين الثاني زرع البلبلة في صفوف القوّة كلها ، فراحت بقاياها تأمّة في طريق العودة إلى مصر باذلة أفضل جهودها الممكنة ، يضايقها الفرنجة والبدو باستمرار . كما يضايقها النقص في كل من الطعام والماء . أما بالنسبة لصلاح الدين ذاته ، وهو المدين بنجاحاته إلى إخلاص القاضي وبصيرته ، فقد كانت عبرة لم ينسها ابداً .

إلاّ أن هزيمته لم تكن حاسمة ، ذلك انه عقب أربعة شهور فقط استطاع إعادة الكرة بمحيش مجهّز من جديد ، والإبقاء على عدد كاف من القوات في المؤخرة لضمان أمن مصر . كان الهدف المحدّد للحملة هذه المرّة مهاجمة الذين يحاصرون حارم ، ومع أن صلاح الدين صدّ في هذا برفع الحصار لقاء دفع الأمان من جانب حكومة حلب ، فقد اندفع نحو حمص ، وعسكر هناك استعداداً للدخول ميدان المعركة في أول فرصة . وأدى انسحاب الكونت (إقلندس) أوف فلاندرز بصورة آليّة إلى سريان مفعول الهدنة ثانية . بالإضافة إلى ذلك ، فإن السنة الجذباء جلبت قلّة شديدة على بلاد الشام . غير أن صلاح الدين كان تواقاً لاستئناف الجهاد ، وعلماً بأن القاضي الفاضل بذل بلاغته كلّها لإقناعه بالتريث حتى تكون الأحوال أكثر ملاءمة . فقد مضى يؤكد لوزراء الخليفة انه لو سار كل شيء على ما يرام واحتشدت القوات في حينه ، فسوف يقوم بمهاجمة القدس في السنة التالية .

خرق الفرنجة الهدنة في شهر آب بهجومهم على حماة . فاندحر الهجوم دون صعوبة تذكر وجرى بالأسرى إلى صلاح الدين ، فأمر بإعدامهم للتكتّ بالعهد . وحصل انتهاك أشد خطورة في الوقت نفسه عندما بدأ بغدوين في بناء قلعة محصنة عند «مخاضة الأحزان» ، في تشرين الأول وبيعاز من فرسان الداوية (الهيكلين) . فلم يكن صلاح الدين قادراً على التدخل فوراً بسبب وضع حسّاس طرأ في دمشق . لقد أهمل أخوه توران شاه واجباته كحاكم إهمالاً

كلياً ، بالإضافة إلى كونه على علاقات طيبة تثير الشبهة مع الصالح في حلب .
فقام صلاح الدين تبعاً لذلك بتعيين ابن أخيه فروخ شاه قائداً عسكرياً في دمشق .
وطالب توران شاه بأن يُعطى إقطاعاً بعلبك التي كانت بيد ابن المقدّم ، الحاكم
الأسبق لدمشق . فوافق صلاح الدين ، بكثير من التردد ، على توليته في
بعلبك ، وعندما تنازل ابن المقدّم في النهاية أعطى إقطاعات واسعة في الشمال .
بيد أن العلاقة الودية بينه وبين صلاح الدين بقيت متواصلة ، ولدى وفاة
فروخ شاه عام ١١٨٣ أعيد تعيينه على ولاية دمشق . لقد أضعفت هذه الحادثة
مركز صلاح الدين الديلمامي بصورة مؤقتة إزاء منافسيه . لكن الفضل في
المدى الطويل كان عائداً بدرجة كبيرة إلى موقفه الحازم ، والتوفقي معاً ، من
من ابن المقدّم في هذا النزاع ، حتى أنه لم يلجأ البتة بعد ذلك إلى اتخاذ إجراءات
عسكرية ضد مقدّم متمرد على الأوامر .

ولما أزيلت هذه المشكلة من طريقه ، كان صلاح الدين حراً لاستئناف الهجوم
في ربيع ١١٧٩ . فبدأ بإعادة تنظيم القيادات في الشمال ، وعيّن تقي الدين على
حماء ونصير الدين ابن شيركوه على حمص ، لكبيح جماح ريمون الصنجيل
صاحب طرابلس . وخلق مجيء شتاء ثان دون هطول أمطار في بلاد الشام جذباً
وظروف مجاعة . فكانت قواته تعاني بشدة واحتجّ الجند لديه ، لكنّه أجابهم
بقوله فقط : «الله سوف يتدبّر الأمر» ، وأرسل الأشدّ عجزاً بينهم إلى مصر
بصحبة توران شاه ، طالباً إلى العادل أن يبعث له بدلاً عنهم ١٥٠٠ من الرجال
المنتقلين ، إلى جانب المؤن . وفي أوائل نيسان ، لدى تلقيه تقارير عن غارة
يخطط لها بغدوين ، أوفد فروخ شاه مع عسكر دمشق البالغ عدده حوالي ١٠٠٠
رجل من عساكر المماليك ، وأصدر لهم الأوامر بتعقّب الفرنجة خلسة وإرسال
المعلومات إليه عن تحركاتهم . لكن فروخ شاه وجد نفسه يخوض معركة بالصدفة
تقريباً بالقرب من شقيف أنون ، فأحرز نجاحاً باهراً ، وأزاداد ترحيب المسلمين
به لأن الكونستابل همفري (هنفري) الطوروني كان بين القتلى .

انتقل صلاح الدين عقب ذلك بزم من قصير إلى بانباس . وفي اعتماده على تلقي الإنذار من جواسيسه عن أي حشد لقوات الفرنجة ، أقام حراسة عند تل القاضي وصرف قواته لنهب العلف والمؤن . وأرسلت عصابات من رجال القبائل العربية الجاثمين الذين تعقبوا آثاره إلى ولايتي صيدا وبيروت لحصاد الحبوب التي يمكنهم العثور عليها . وفي سهل مرج عيون فوجيء صلاح الدين بظهور قوة كبيرة تحت أمره بغدوين ، لكنه أركب جميع القوات المتوافرة لديه على جناح السرعة وحول النكسة الأولية إلى إنتصار بارز . كان تاريخ ذلك اليوم هو ١٠ حزيران ١١٧٩ ، ويحدثنا عماد الدين ، الذي قام بتدوين سجل الأسرى ، انه كان بينهم أكثر من مائتين وسبعين فارساً ، باستثناء ذوي الرتب الدنيا .

أصبح صلاح الدين الآن مجهزاً بما فيه الكفاية للقيام بعملية كبرى . فقام بتجنيد قوات إضافية كبيرة من التركمان وجنود الحصار لتعزيز العساكر الشامية والفرقة المصرية الوافدة حديثاً ، وفي ٢٥ آب ضرب حصاراً حول القلعة التي شيدت حديثاً في «مخاضة الأحزان» . جرى تنفيذ الحصار بعزم وتصميم متواصلين ، واقتحمت القلعة في اليوم السادس ، فوقع المدافعون عنها في الأسر وكان عددهم سبعمائة مقاتل . وأطلق سراح الأسرى المسلمين . وبالرغم من الحرّ ورائحة الخيف فإن صلاح الدين أبى مغادرة المكان قبل تهديم آخر حجر في القلعة ، ثم قام بسلسلة من الغارات على أراضي مملكة القدس قبل عودته إلى دمشق .

أبدى الزنكيون أصحاب حلب والموصل في جميع هذه العمليات استعداداً لمساعدته في استرجاع فلسطين . فالنجاح المتواضع الذي استطاع إحرازه أظهر له بوضوح ان الصراع مع الصليبيين لا يمكن دفعه إلى النهاية بقوات دمشق وحدها وتلك القوات التي يمكن الاستغناء عنها في الدفاع عن مصر . ولم يكن الأمر مجرد ان ستة آلاف جندي الدين يستطيع الآن حشدهم في الميدان مرة واحدة هم

غير كافين لحملة حاسمة . فظالما ان النورية في حلب كانوا تحت أمرة الآخرين ، فإنهم يشكلون قوة عدائية بالكمون ضد جناحه . وحتى لو تمّ استجلابهم بأمان إلى جانبه ، فإن تلك العملية بالذات لن يكون من شأنها سوى تعميق عداء الزنكيين في الموصل ، الذين ما زالوا قادرين بعساكرهم البالغ عددها ٦٠٠٠ مقاتل على إبطال تأثيره بشكل فعال . فكانت النتيجة التي لا مناص منها : وهي ، بما انه لا يستطيع حشد قوات الشام ومصر ضد الصليبيين طالما هو عرضة لخطر الهجوم على جناحيه أو مؤخرته من الموصل ، فإن قوات الموصل أيضاً يجب إخضاعها لسيطرته ونحو يلها إلى عساكر إضافيين في الجهاد .

لا بدّ انه قد اتضح له بأن تحقيق هذا الأمر لا يتمّ بدون نزاع مسلح . لكنه تردّد في حمل السلاح ضد أولئك الذين سوف يصبحون من حلفائه في المستقبل . فالإقناع والديبلوماسية يعودان بنتائج أفضل من الغزو ، وهو يعرف أن نفسه مالكة لحسنة قوية . لقد وطّد دعواه في انظار الإسلام كله لخلافة نور الدين الروحية ، وتلك القوى المعنوية التي نفخ نور الدين الحياة فيها كانت تصطف إلى جانبه . ومهما تكن مصالح الزنكيين مدعومة بالولاءات الضيقة للوطنية المحلية والتقليد العسكري ، فهو يتمتع بعواطف قطاع متزايد القوة ، ليس في حلب فحسب ، بل وفي الموصل أيضاً . إن المنافسات بين الزنكيين واتصالاتهم السرية أو المكشوفة مع الفرنجة قوّضت دعائم دعواهم ، ويبدو انه حتى عقيدة الحقوق الشرعية ، التي تابعها صلاح الدين بجدّ ونشاط ، ساعدت في ترجيح الكفة . كان عليه فقط أن يكرّر الأساليب التي استخدمها نور الدين ذاته ضد دمشق : إضعاف الحزب المعارض بتشجيع المرتدين ، وبتنظيم تظاهرات عسكرية في الاحظات المناسبة ، وفي الوقت نفسه مراعاة التزاماته في المعاهدة بحذافيرها ، وكذلك الحقوق السيّدة للخليفة .

وكان تاريخ صلاح الدين خلال السنوات الست التالية ، من ١١٧٩ إلى ١١٨٥ ، بمثابة سجلّ لتقدّماته الناجحة صوب هذا الهدف . ومن الصعب

تقديم القصة المعقدة للحملات والمفاوضات مع الامراء الثانويين في بلاد ما بين النهرين والزنكيين في الموصل ومبعوثي دار الخلافة دون الدخول في جملة من التفاصيل ، مع انه ليس من الصعب حلّ خيوطها ، ويلتحم مع هذا الحيط الرئيسي في الرواية خيطان غيره ، هما : القتال المتواصل مع القدس . ومشكلات الإدارة الداخلية والعلاقات مع اقاربه وتابعيه . لذا . سوف نتناول هذه النواحي على حدة ، ابتغاء للوضوح .

أخذ سلطان الروم السلجوقي خلال حملات سنة ١١٧٩ . كلج إرسلان الثاني . والذي كان في السنة السابقة قد أرسل مبعوثاً ليؤكد على صداقته لصالح الدين يطالب فجأة بانفصال رعبان التي أخذها صلاح الدين عام ١١٧٦ من الصالح . فجري إيفاد تقي الدين ، وهي تحت امرته . للدفاع عنها . وهزم الجيش السلجوقي بطريق الحياة وعلى رأس قوته الصغيرة المؤلفة من ١٠٠٠ خيال . وفي مطلع عام ١١٨٠ نشب خلاف حول قضية محلية بين السلطان السلجوقي والأمير الأرمني لحصن كيفا ، نور الدين . مع أن الأخير كان تابعاً للموصل فقد استنجد بصلاح الدين ، ومن المحتمل ان استنجاهه حدث بفضل معاهدة حلب عام ١١٧٦ . لقد كان هذا بالضبط هو ذلك النوع من المناسبات التي انتظرها صلاح الدين . ولكي يوطّد سيطرته على الموصل كانت الخطوة الأولى تقضي بفصل التابعين الكبار في ما بين النهرين وديار بكر ، وهم الذين زودوا جيش الموصل بأكثر من نصف قواته القتالية . فالأقوى بين هؤلاء كان الامراء الأرمنيون لحصن كيفا وماردين ، الذين لم يتصالحوا ابداً مع السيطرة الزنكية . ولقد سبق لهم عام ١١٧٨ ان تقرّبوا من صلاح الدين بغية الحصول على تأييده ضد المخططات العدوانية للسلطان السلجوقي ، ومهما كان من أمر الريّة بحال الحرب الحاضرة ، فإن صلاح الدين كان مجبراً على اغتنام الفرصة لكي يكتسب اهتمامهم ويظهر سيادة فعلية على ديار بكر . فالهدنة التي جرى توقيعها مع بغدوين في الربيع تركت له الحرية في قيادة جيشه إلى حدود

الممتلكات السلجوقية ، لغرض العمليات العسكرية أقلّ منه لإرغام كلج لإرسال على وقف هذه الاستفزازات وقبول وساطته . حتى أن الخطة احرزت نجاحاً اكبر مما كان بإمكانه ان يتوقعه لها . فاجتمع السلطانان عند نهر سنجا في حزيران ، وأبرما هناك ، على ما يبدو ، التحالف الذي كان سيعني الكثير لصالح الدين في سنوات لاحقة . وكانت الثمار الأولى لهذا التحالف حملة قصيرة وناجحة ضد روبين صاحب ارمينية الصغرى ، تحت ستار المعاملة القاسية التي عوملت بها القبائل التركمانية في اراضيه .

ويحدثنا بهاء الدين أنه في أعقاب هذه الحملة عٌقد صلح عام ، بمبادرة من كلج أرسلان ، بين صلاح الدين والسلطان السلجوقي والموصل وامراء ديار بكر في اجتماع عند نهر سنجا بالقرب من سميساط ، في ٢ تشرين الأول ١١٨٠ . فلا يوجد تثبيت لهذا القول في أي مصدر آخر من المصادر المعاصرة ، والحق يقال ان الأدلة كلها تقف ضده . ذلك ان سيف الدين صاحب الموصل كان قد توفي يوم ١٩ حزيران ، فخلفه أخوه عزّ الدين بعد أطراحه جانباً لولاية ابن سيف الدين ، سنجر شاه . ولدى تولّيه أرفد عزّ الدين رسولاً إلى صلاح الدين ليطالب موافقته على استمرار سيادة الموصل على مدن ما بين النهرين التي استولى عليها سيف الدين عقب وفاة نور الدين عام ١١٧٤ . فرفض صلاح الدين الأمر بصراحة . وقال إن هذه الولايات كانت مشمولة في التحويل العام الذي منحه إياه الخليفة ، فهو لم يتركها في حوزة سيف الدين إلاّ مقابل وعده في إمداد صلاح الدين في العساكر . وبعث في الوقت نفسه بكتاب إلى بغداد ذكر فيه انه لا يستطيع الاعتماد على القوات المصرية إلى أجل غير محدود في حملاته الشامية بل يحتاج إلى عساكر تلك الولايات ، وطالب بتثبيت التحويل الممنوح فجاءه التثبيت على التوالي .

اكتمل الصدد مع الموصل بوفاة الصالح في حلب يوم ٤ كانون الأول ، ١١٨١ . وكان صلاح الدين في مصر حينذاك ، فأرسل لدى سماعه بمرض

الصالح أوامر عاجلة إلى فروخ شاه بدمشق وتقي الدين في حماه لاحتلال غربي الجزيرة والحيولة دون عبور جيش الموصل نهر الفرات . لكن فروخ شاه كان منهمكاً في الوقوف بوجه مخططات (أرناط) رجينالد لاجتياح شبه الجزيرة العربية انطلاقاً من الكرك (حصن الموآبيين) ، وتقي الدين كان عاجزاً عن منع عزّ الدين من دخول حلب . فهو قد عين أخاه عماد الدين حاكماً لمدينة حلب . لقاء التخلّي عن سنجار ، وفقل راجعاً إلى الموصل بعد ان افرغ محتويات خزائنها ومستودع أسلحتها . إن قلق صلاح الدين الشديد بشأن الوضع يتبدّى من خلال الرسائل المتتابعة التي بعث بها ، إلى ديوان الخليفة وانتقد فيها تصرف امير الموصل بالاستيلاء على ولاية عُيُنت له بينما قواته في صميم العمل لحماية مدينة النبي من «الكفار» ، وشكا من ان الخلافت بين الامراء المسلمين كانت تعيق سبيل الجهاد ، ثم أعاد التوكيد على مطالبته بحلب استناداً إلى براعة تعيينه . وأعلن انه «إذا كانت الأوامر السنية تأمر بتولية امير الموصل على حكم حلب . فمن الافضل توليته على الشام ومصر كلها أيضاً» . واللهجة الملحة لهذه الرسائل تبرّرها جزئياً دون ريب الحاجة إلى مواجهة الضغط المماثل من جانب انصار الموصل في بغداد ، ومع انه قد يكون من الصعب فكّ نقاط الدعاية عن الحماس الديني فلا مجال للشك هناك بان صلاح الدين كان جاداً حقيقةً بشأن المآزق الذي سينشأ عن توحد حلب مع الموصل من جديد .

غادر صلاح الدين القاهرة في أيار ١١٨٢ بصحبة نصف الجيش الذي أعيد تنظيمه حديثاً في مصر ، أي قرابة ٥٠٠٠ جندي في المجموع ، والتحق بمقدّميه في الشام . فزحف على حلب عقب هجوم مفاجيء فاشل ضد بيروت بحراً وبراً ، متحصّناً في هدفه ببراعة الخليفة . إلا أنه قبل أن يحاصرها كان مظفر الدين كوكبورى صاحب حرّان قد حمل إليه دعوة عاجلة لعبور الفرات وتأكيدات بأنه سوف يلقي الترحاب من جميع الجوانب . وبناء عليه ، بما انه كان بالفعل ، وبفضل براعة الخليفة ، حاكماً شرعياً على ولايتي الفرات والخابور .

فقد عبر صلاح الدين نهر الفرات عند أواخر شهر أيلول . واحتلّ الممتلكات السابقة لنور الدين في الجزيرة دون أن يلقي سوى مقاومة متقطعة . فحاول عزّ الدين النزول ضدّه إلى ميدان المعركة ، لكن محاولته أجبطلتها معارضة ضباطه والتعلّق الصريح بصلاح الدين من جانب تابعه الأمير الارتقي الحصن كيفا ، نور الدين ابن قره ارسلان . كانت النتيجة الوحيدة لهذا العمل تزويد صلاح الدين بذريعة صحيحة للتقدّم على الموصل ذاتها ، وهو عمل برّره في رسالة مطولة إلى بغداد ، واتهم فيها حكام الموصل بدفع المال إلى الفرنجة لمهاجمته ، واضطهاد رعاياهم ، وأخيراً بالتوسّل إلى عدو الخلافة اللدود ، الاتابك السلجوقي في بلاد فارس . إن التهمة الأخيرة تثبتّها مصادر الموصل . وكان عزّ الدين في بأسه يفتش عن الحلفاء في كل اتجاه ، فأوفد بهاء الدين نفسه لكي يطلب تأييد الخليفة ضد صلاح الدين . واستجابة لهذا النداء بعث الخليفة برسول ، هو شيخ الشيوخ ، للتوسط بين الفرقاء ، واستغرقت المفاوضات المتطاولة مدّة شهر بينما استمرّ الحصار .

ومما يجب التشديد عليه ان نقطة الخلاف في هذه المفاوضات لم تدر في أي وقت حول مطالبة صلاح الدين بامتلاك الموصل فعلياً ، بل تناولت الشروط التي يقف بموجبها أمير الموصل إلى جانب صلاح الدين ويرسل عساكره للمعاونة في الحرب ضد الفرنجة . فالهدف الرئيسي للأمر الزنكي عند هذه المناسبة الأولى كان الاحتفاظ بسيادته على حلب ، ومع ان صلاح الدين كان توافّقاً للوصول إلى إتفاق ورضخ لكل مطالبه باستثناء هذا الامر ، فقد رفض إبرام الشروط والتصديق عليها . ثم وافق صلاح الدين ، بناء على مداخلة عاجلة من شيخ الشيوخ ، على الانسحاب من الموصل ، لكنّه رفض متابعة التفاوض . إن حقيقة كون المفاوضات قد دارت ، أحدثت توتراً شديداً في ثقة تابعيه الجدد في الجزيرة ، ولكي يعيد طمأننتهم أعلن أمام الديوان عزمه الأكيد على الّا بغادر الولاية قبل إتمامه للاستيلاء عليها .

بدأ صلاح الدين في محاصرة أخي عز الدين في سنجار ، بمساعدة من نور الدين الأرتقي . فاستسلمت بشروط بعد حصار دام ١٥ يوماً (٣٠ كانون الأول) ، وأجليت الحامية إلى الموصل . وذهب صلاح الدين إلى معسكر الشتاء في حرّان ، بعد أن تمّ تسليم دارا أيضاً على يد أميرها الأرتقي بهرام . فمما بدّل على أنه لم يكن ينوي تخفيف الضغط على عز الدين هو ذلك السيل من المراسلات الموجهة إلى كبار الوزراء في بغداد والتي كرّر فيها المطالبة بالاعتراف به سيداً على الموصل . ومع أن هذا الاعتراف لم يأت ، فقد أجيب إلى طلبه بتسليم منشور الخليفة من أجل الولاية على آمد (ديار بكر حديثاً) . وفي نيسان قام عز الدين بمحاولة لحشد حلفائه المتبقين ، لكن صلاح الدين استدعى بقي الدين من حماه ، ولدى اقترابه انحلت الائتلاف . ثم عمد صلاح الدين ، قبل أن ينتظر بقية عساكره ، فوراً إلى ضرب حصار حول قلعة آمد غير المنبئة إطلاقاً في ديار بكر ، تبعاً لوعده قطعه لنور الدين . فجاء استسلامها في غضون اسابيع ثلاثة ليقرّر شهرته نهائياً ، وأنت أريجته الكيشوتية ، تجاه الحاكم المهزوم وفي تسليمه للقلعة مع مخازنها العسكرية الضخمة دون المساس بها إلى نور الدين ، لتثبت مرة وإلى الأبد بطلان جميع التهم التي ألصقها به أعداؤه عن الاطماع الأنانية .

أشار صلاح الدين إلى العبرة في رسائله إلى دار الخلافة عقب الاستيلاء على آمد . إن سلطة الخليفة على أخذ آمد وحكمها أدّت إلى فتح أبوابها أمامه ، فلماذا تُمنع عنه حتى الآن براءة الموصل ؟ هذه وحدها تقف في سبيل وحدة الإسلام واستعادة القدس . وليقارن أمير المؤمنين بين سلوك عملائه ، ثم يحكم من منهم الذي خدم راية الاسلام في غاية الإخلاص . وإذا ما ألحّ صلاح الدين على إدراج ما بين النهرين والموصل ضمن ممتلكاته ، فالسبب يرجع إلى أن هذه « هذه الجزيرة الصغرى (أي ما بين النهرين) هي الرافعة التي سوف تحرك الجزيرة الكبرى (أي الشرق العربي كله) . إنها نقطة الفصل ومركز المقاومة ،

ومتى قُدِّر لها أن تتخذ مكانها مرة في سلسلة التحالفات ، فإن قوّة الإسلام المسلحة بكاملها سوف تغدو منسقة الجهود للاشتباك مع قوى الكفر .

وكان استسلام آمدا قد جلب الارتقيين المتبقين في مياغارقين وماردين إلى جانب صلاح الدين ، فالتفت الآن إلى تصفية حساباته مع حلب ، وتلقى في الطريق إليها تسليم آخر قلاعها الخارجية ، في تل خالد وعينتاب . ومع مجيء يوم ٢١ أيار ، ١١٨٣ ، كان قد عسكر على أبواب حلب ، مع توقع معقول لاستسلامها المبكر . إن كاتب صلاح الدين الذي يرسم صورة حيّة لتعقيد النزاع ، فلا عماد الدين زنكي ولا صلاح الدين كان تواقاً إلى القتال ، الأول منهما لأنه علق آماله على العودة إلى سنجار ، والثاني لأن النورية ، حرس نور الدين القديم كانوا جنود الجهاد الذين أسدوا في الماضي خدمة جلى للإسلام والذين استحوذت نبالتهم وشجاعتهم على إعجابه . فهم من جانبهم « حركوا لهب الحرب » ، بينما انغمس جنود صلاح الدين الأصغر سنّاً والأشدّ حماساً في أتون النزاع بشغف . وبعد أيام قليلة انسحب إلى ثلثة جوشن المطلة على المدينة ، فجعل بنائيه يشيدون قلعة هناك ، وأخذ في توزيع أراضي حلب كإقطاعات على ضباطه . ورأى عماد الدين زنكي ان اللحظة الحاسمة قد أتت ، فأجرى ترتيباً سريعاً لمبادلة حلب لقاء سنجار وشرقي الجزيرة ، شرط التعاون في الحرب مع الفرنجة . وارتفعت راية صلاح الدين الصفراء فوق القلعة في ١١ حزيران ، ثم قام النورية بدورهم على تقديم الخضوع والطاعة باستعداد يبدو مثيراً للدهشة من زاوية الأحداث الخارجية ، فاستقبلهم صلاح الدين كرفاق قدامى في السلاح وغمرهم بأريحيته . لم يصمد سوى حاكم حارم وحده ، فحاول الحصول على دعم من انطاكية ، لكن رجاله بادروا إلى اعتقاله وسلموا القلعة إلى صلاح الدين شخصياً في ٢٢ حزيران .

ولدى ترتيب هدنة مع يوهنند صاحب انطاكية شرط إطلاق سراح الأسرى المسلمين أصبح صلاح الدين الآن في مركز يتيح له الانتقام من فرنجة القدس على حملاتهم الهجومية خلال غيابه في بلاد ما بين النهرين ، ولا سيما الانتقام

من (أرناط) رجئالد صاحب الكرك على غاراته التي شنتها في شبه الجزيرة العربية وعلى البحر الأحمر . فقام بإبلاغ الديوان في بغداد قراره بتنفيذ الجهاد ، وقد أزيات من طريقه العقبات الرئيسية الآن ، وسار على رأس القوات النظامية لحلب والجزيرة بالإضافة إلى فرسان التركان وقوة كبيرة من المتطوعين والجنود الإضافيين . وبعد توقف قصير في دمشق عبر الأردن إلى بيسان في ٢٩ أيلول ، لكنه فشل في جرّ القوات الرئيسية لمملكة القدس إلى ميدان المعركة (٨) . ثم عاد إلى دمشق واستدعى العادل للالتحاق به أمام الكرك مع شحنة من الجنود المصريين ، وضرب حصاراً حول حصن الكرك في شهر تشرين الثاني . كان المسلمون واثقين من النجاح لدرجة ان إخطاق منجنيقاتهم في إحداث ثغرة أدّى في المقابل إلى تثبيط في عزائهم ، وعندما تلقوا الأخبار بوصول النجدة إلى « والا » ، وجدوا الأعذار لتأجيل الهجوم ، وانسحب صلاح الدين للراحة ولتجهيز عساكره من جديد .

جرت خلال هذا الفاصل الزمني محاولة أخرى لتسوية مشكلة الموصل بالتفاوض . وجاءت المبادرة من عزّ الدين ، الذي قام ابن أخيه سنجر شاه في جزيرة ابن عمر مع أخيه كوكبوري في أربيل وصاحبي تكريت وحديثه بوضع أنفسهم تحت حماية صلاح الدين وحصلوا منه على تعهد بالدعم . فتوسّل عزّ الدين إلى الخليفة لكي يرسل « شيخ الشيوخ » مرة أخرى للتوسط مع صلاح الدين ، « لعلمهم » ، كما دوّن كاتب صلاح الدين ، « أنّا لا نرى إلاّ الاعتماد بالطاعة للأمر المطاع » . وتمّ التوصل إلى اتفاق مع شيخ الشيوخ على أساس احترام حقوق عزّ الدين في الموصل وعلى ان يترك لتابعيه السابقين حرية الخيار بين صلاح الدين وبينه ، ولكن رسول الموصل قابله بالرفض ، وهكذا بقيت الأمور على حالها ، لا بل صارت إلى أسوأ مما كانت عليه .

٨- راجع تاريخ الحروب الصليبية ، المصدر السابق ، ج ١ ، الفصل التاسع عشر ، ص

حشد صلاح الدين لهجومه الجديد على الكرك (آب - ايلول ، ١١٨٤) جيشاً من أشد الجيوش قوة والتي عملت في بلاد الشام حتى الآن ، فتألف هذا الجيش من عساكر دمشق وحلب والجزيرة وسنجار وحصن كيفا وماردين ، بالإضافة إلى فرقة من مصر . وقُتل المهجوم مرة أخرى ، فجرى تسريح عساكر الجيش بعد حملة من الغارات في أنحاء السامرة . ثم عاد صلاح الدين إلى دمشق لكي يجد شيخ الشيوخ في انتظاره حاملاً معه براءات الخليفة لولاياته الجديدة . وتلت ذلك أنباء أشد خطورة . فقد أعلن عز الدين صاحب الموصل قبوله للعروض المقدمة من اتابك بلاد فارس . وتلقى تعزيزات قوامها ٣٠٠٠ خيال من اتابك اذربيجان مظفر الدين قزل ارسلان لشن هجوم على اربيل . ومع ان المهجوم كان فاشلاً . فإن الحاكم ناشد صلاح الدين الوفاء بوعده ، فأتاح الفرصة بذلك أمام هجوم صلاح الدين من جديد على الموصل .

لكنه قبل أن يشرع في عمله خلال السنة التالية ، كان الحظ السعيد قد حاقه بدعوة من ريموند الصنجيل صاحب طرابلس للاتفاق على هدنة مدتها أربع سنوات . فما أن تأمنت الحماية لمؤخرته بهذا الشكل ، حتى حشد قواته عند حلب في شهر أيار سنة ١١٨٥ وسار على الموصل ، مع انه تلقى تحذيراً من السلطان كليج أرسلان بأنه سوف يُجابه بائتلاف من « الامراء الشرقيين » ... غير أن الموصل تُركت بالفعل لمواجهة مصيرها ، وحتى أن الخليفة رفض التدخل أكثر من ذلك ، والسبب المحتمل لهذا الرفض - علماً بأن صلاح الدين لم يترك فرصة تمرّ دون تذكيره - هو ان عزّ الدين قد أجبر على الاعتراف بسيادة السلجوقي طغرل عليه . وخلال حرّ الصيف قام صلاح الدين بتخفيف وطأة الحصار ، ثم ترك قسماً من قواته أمام الموصل لكي يقود البقية شمالاً لمعالجة وضع مضطرب نشأ في أعقاب وفاة نور الدين وأميري أخلاط (أوخلاط) وماردين . ولدى عودته إلى الموصل في تشرين الثاني أخذ يعدّ العدة لمواصلة الحصار طيلة الشتاء . فقام عز الدين بمحاولة أخيرة للردّ النهاية المحتومة مناشداً

فروسيّة صلاح الدين بإرسال وفد يضمّ الأميرات الزنكيّات للتوسط لديه ؛ لكن القضية موضوع المجازفة كانت شديدة الخطورة ، ولم يستطع صلاح الدين ان يعد بأكثر من القبول بوساطة عماد الدين زنكي صاحب سنجار . وليس من الواضح تماماً ماذا تلى ذلك . فقد مرض صلاح الدين فجأة ، و « في ندمه على صدّه للمبعوثين ، طلب إلى عماد الدين لإيقاد بعثة إلى الموصل » . ودون انتظار لاختتام المفاوضات غادر الموصل في ٢٥ كانون الأول إلى حرّان وسحب قواته إلى نصيبين . ثمّ قام عزّ الدين في شهر شباط من العام التالي بإيقاد القاضي بهاء الدين كرسول إلى حرّان وزوّده بتعليمات للحصول على اتفاق محلف اليمين وفقاً لأفضل الشروط التي يستطيعها . وردّ إليه صلاح الدين المنطقة الصغيرة بين نصيبين ودجلة — « بين النهرين » — وحين أقسم اليمين على هذه الشروط جرى الاعتراف به سيّداً على الموصل . فتعهّد عزّ الدين مقابل ذلك بإرسال قواته للمساعدة في إسترداد فلسطين . لذا فقد تشكّل الائتلاف العظيم أخيراً .

طيلة هذه السنوات كلّها ، والتي كان صلاح الدين خلالها يكرّس اهتمامه الرئيسي لتنظيم القوات من أجل الصراع القادم ، كان من الواضح بأن تجنّب القيام بأية عمليّات كبرى ضد الفرنجة هو أمر لصالحه . وفي العام ١١٧٠ وافق عن طيب خاطر على عقد هدنة مع بغدوين في البرّ والبحر على السواء (٩) . لكنّه يبدو ان ريموند الصنجيل صاحب طرابلس رفض أن يصبح طرفاً موافقاً فلم يتمّ إرجاعه إلى رشده إلاّ بواسطة سلسلة من الغارات التدميريّة بالإضافة إلى استيلاء الاسطول المصري على جزيرة ارواد . كانت حرية التجارة شرطاً من الشروط البالغة الأهميّة بالنسبة لصلاح الدين ، لأن الطريق بين مصر ودمشق كانت محفوفة بالخطار ، وتوجب على القوافل وفي اوقات الحرب ان تسير بصحبة قطارات من البلند . وكان انتهاك هذا الشرط من جانب (أرناط) رجنادل

٩ - راجع المصدر السابق ، ص ٥٩٥ .

صاحب الكرك هو الذي أعطى الإشارة بفتح الاشتباكات من جديد . ففي صيف ١١٨١ كان رجنالد قد شنّ غارة على تيماء في شمالي الحجاز ، واستدعاه من غارته هجوم مضاد قوي شنته فروخ شاه من دمشق ضد شرقي الاردن . وكان هذا الموقف سيئاً بما فيه الكفاية ، لكن صلاح الدين لم يقم بأي تحرّك إلى أن استولى رجنالد على قافلة في طريقها من دمشق إلى مكة . وبعد فشل جميع الجهود الرامية إلى تصويب الخطأ ، نزل إلى ميدان المعركة في ربيع ١١٨٢ . ومع ان قواته لم تكن قد وصلت بعد إلى تلك الدرجة من القوة التي تكفي لتسديد ضربة حاسمة ، فانه تأمل دون ريب في إلحاق المزيد من الخسائر بالفرنجية . لكن أساليب بغدوين الدفاعية حالت دون حصول اشتباك رئيسي ، تاركه الريف عرضة لغارات فرسان فروخ شاه ، بحيث ان القوات المسلمة انكفأت إلى دمشق قانعة بالأسلاب والمغانم خير قناعة .

كانت عملية صلاح الدين التالية من النوع الاشد جراً . لقد بدأ منذ زمن مبكر يعود إلى العام ١١٧٧ بإعادة تنظيم الاسطول المصري ، جاعلاً إياه دائرة منفصلة ومستقلة تحت أمرة رئيسه ، ومنحه السلطة لأخذ كل ما يحتاجه من المواد وتجنيد كل الرجال الذين يحتاجهم . وفي منتصف السنة ذاتها كانت اساطيل الاسكندرية ودمياط تقوم بشن الغارات ، كما قامت عام ١١٧٩ بتنفيذ هجوم جرىء على عكا والساحل الشامي . وسبقت الإشارة إلى الاستيلاء على جزيرة ارواد عام ١١٨٠ . ثم تعزّزت أكثر قوة الاسطول في عملية إعاقة التنظيم العامة التي أجراها صلاح الدين على القوات المصرية عام ١١٨١ . فراح يخطّط الآن لعملية برية وبحرية مشتركة ضد بيروت ، على أمل أخذها بالمفاجأة . وتمّ تنفيذ الخطة ببراعة فائقة (آب ١١٨٢) ، لكن حامية بيروت صدّت هجماته حتى أصبح بغدوين على استعداد لتجديدها ، فعمد صلاح الدين الذي خرج بمعدّات هجومية خفيفة فقط ، إلى حشد قواته من جسيدي في بعلبك ثم سار نحو الشمال .

لقد بقي فروخ شاه في دمشق خلال الحملات في بلاد ما بين النهرين والصراع على حلب ، وأعطى تعليمات تقضي بمجابهة غارات الفرنجة في الأراضي الإسلامية على أفضل ما يمكنه ذلك بالقوات الموجودة تحت تصرفه . ويُنقل عن صلاح الدين القول التالي في معرض سماعه بأشبار الغارات التي شتها بغدوين في حوران : « نحن نستولي على المدن ، بينما هم يتغلبون على القرى » . لكن الأنباء الواردة عن غارات رجناد على طرق التجارة في البحر الأحمر وتغلغله في الحجاز (شباط ١١٨٣) كانت أشدّ خطورة بكثير . لقد قام قائد اسطول صلاح الدين ، حسام الدين لؤلؤ ، بتلقيح المغيرين أمثلة قاسية ، لكن ذلك لم يحصل قبل أن كانت أخبار المأثرة قد بعثت موجة من السذعر والرعب في سائر أنحاء العالم الإسلامي . وأسهمت هذه الحادثة بقدر ما أسهم به أي حادث مفرد آخر في تعزيز شهرة صلاح الدين وتقوية مركزه .

أدت الحملات في النصف الثاني من العام ١١٨٣ ، وقد سبق ذكرها ، وإن لم تنته إلى نتيجة حاسمة ، إلى جعل الفرنجة يتكلمون على المواقف الدفاعية . وكذلك الحصار غير الناجح للكرك في آب ١١٨٤ والهجوم اللّاحق على فلسطين فإنهما حقّقا غرضاً نافعاً رغم كل شيء ، إذ جمعا للمرة الأولى معظم الفرق المتنوعة في جيش صلاح الدين وأتاحا لها بعض التمرّس في العمليات المشتركة . وتابع الاسطول المصري أيضاً عملياته خلال هاتين السنتين ، رغم أن تلك العمليات جرت بطرق أقلّ مثاراً للدهشة والإعجاب ، لذا فإن ريموند الصنجيل صاحب طرابلس والبارونات كانوا على استعداد كاف لطلب المساعدة التي حرّرت صلاح الدين ، في ربيع ١١٨٦ ، لشنّ حملته النهائية ضد الموصل (١٠) ..

اختلفت قوّات صلاح الدين العسكرية ، مع أنها كانت منظّمة وفقاً

للخطوط نفسها التي سارت عليها قوات نور الدين ، في ناحية هي على جانب من الأهمية . فقد كانت نسبة الأكراد في أفواجه أكبر بكثير ، بينما كان العنصر المملوكي أقلّ بزوراً . وقام الولاء المشترك له بكبح جماح التنافسات التي كان من شأنها لولا ذلك ان تسفر عن نشوب منازعات بينهم ، كما يبدو انه حافظ في انتقائه للمقطعين والولاة الأصغر شأنًا على كفتي الميزان بالتساوي تمامًا . أما في تدبير الأقاليم فإن عائلته نالت الحقّ الأول في المطالبة بها . وتمتّع نوابه وحكامه بسلطة غير مقيّدة ، شرط معاملة رعاياهم على قدم المساواة ، والمساهمة في صندوق الحرب التابع للجهاد ، والاحتفاظ بالوئهم في حسن نظام وانضباط لكي تكون على استعداد للنزول إلى الميدان متى جرى استدعاؤها . لقد منحهم جميعاً ثقتهم التامة ، وتوقع منهم ان يحضوه ولاءً مائلاً بالمقابل . كان هو نفسه لا يبالي بالمكافآت المادية للسلطة ، ويبدو انه لم يكن واعياً لتأثير السلطة والثراء المفسد على الآخرين ، فهو لم يتدخل إلا في حالات صارخة من الاستهتار بهذه الشروط . كان قليل الصبر على التفاصيل الدائمة والصغيرة ، ولكنها ضرورية ، للإدارة اليومية ، وقد نشأ الإحساس بانعدام اشرافه الشخصي داخل الأقاليم . وسارت مع هذا الضعف في حقل الإدارة جنباً إلى جنب أريحيته غير الحكيمة في التصرف بإورادته فكل شيء كان يُعطى لجميع طالبيه دونما تردد . ولقد كتب بهاء الدين يقول : « كنت أحمرّ خجلاً من حجم المطالب المستطبة منه » . إن حملاته كانت مناسبات للسخاء الأميري بقدر كونها عمليات عسكرية . وأولى نظاره عنايتهم لكي تسمّ تلبية جميع الحاجات العسكرية الراهنة على نحو كاف ، فلم يجري تكديس للاحتياطي . وهذا النقص كان من شأنه أن يبرهن عن كونه إحراجاً خطيراً خلال الحملة الصليبية الثالثة .

قام صلاح الدين لدى احتلال حلب عام ١١٨٣ في أول الأمر بتولية ابنه البالغ عشر سنوات من العمر ، الظاهر غازي ، « كسلطان » ، إلى جانب عدد

من القادة الموثوق بهم لدعمه . لكن هذا الترتيب قوبل بالتحدي من جانب العادل الذي طالب بأن يقايض حكم مصر بحكم حلب . ومهما تكن لوعات صلاح الدين لتنجية ابنه المفضل ، فإنه وافق على الأمر دون تردد ، وتمت صياغة وثيقة التعيين بعبارات من المودة الأخوية غير مألوفة في مثل تلك الوثائق الرسمية ، لكي تسبغ على العادل سلطات غير مقيدة . وخاصة للشروط المعتادة . ثم استبدل العادل في مصر ، بناء على نصيحة القاضي الفاضل ، بتقي الدين عمر ، لكنه لخوفه الذي له ما يبرره من تهوّر تقي الدين أرسل القاضي الفاضل معه على مضض لكي يمارس عليه تأثيراً اعتدالياً . وخلال مرضه الخطير بدأ العديد من أقاربه الذين توقعوا موته في إجراء تصرفات بالملكية لصالحهم . وقد عمد بسبب هذا الأمر إلى حذما ، كما بدافع لتوقه إلى توطيد ابنائسه جزئياً ، إلى إعادة توزيع المقاطعات عام ١١٨٦ . فالعادل ، بناء على اقتراحه هو ، أعيد تعيينه على مصر ، إنما ليس في ملكية تامة ، بل بصفة وصي على ابن صلاح الدين ، العزيز عثمان . ولم يتقبل تقي الدين حصته برحابة صدر ، فأخذ يتهدّد بالخروج غرباً واصطحاب قسم كبير من الجيش المصري معه . غير انه أخيراً ما لبث حتى أطاع أمر صلاح الدين بالمثل إلى دمشق ، فأعيد تعيينه على اقطاعاته في الشمال ، بالإضافة إلى ميفارقين في ديار بكر . وتمّ ردّ حلب إلى الظاهر غازي .

يجب إعطاء المكان الرئيسي في أي تقدير لحياة صلاح الدين العملية إلى الجهود التي بُنى فيها القوّة المادية التي أوشتك الآن على الانطلاق صوب الفرنجة بزخم متراكم . غير انه كانت هناك فئة أخرى ، أقلّ جلاءً ، من النشاطات التي كان يجري تنفيذها في الوقت نفسه وللغاية ذاتها . إن المدى الذي جرى إليه استخدام دبلوماسية صلاح الدين لعزل الفرنجة في بلاد الشام ولضمان كونه بقدر الإمكان على علاقات سلام ، إن لم يكن صداقة ، مع كل خصم خارجي محتمل قبل افتتاح حملته الحاسمة ، هذا المدى لم يحظ بالتقدير الكافي . لقد

توجهت دبلوماسيته على جبهتين . فالمسلمون في الشام ومصر كانوا على وعي تام بالمكانة الكبيرة التي تحتلها المصالح التجارية للجمهوريات الإيطالية في الحفاظ على الدول اللاتينية . وبالتنافس القائمة بين بيزا وجنوى والبندقية . ومنذ بداية حكمه بذل صلاح الدين جهوداً لاجتذاب تجارهم إلى مصر ، الأمر الذي من شأنه ان ينطوي على حسنة مزدوجة إذ يؤدي بالتالي إلى زيادة موارده والتقليل من قيمة التجارة الشامية . لا سيما نظراً لسيطرته على البحر الأحمر . إن أقدم معاهدة جرى التأكيد من صحتها حتى الآن كانت المعاهدة مع بيزا عام ١١٧٣ ، ولقد تبين نفعها في السنة التالية عندما قام البيزيون (البياشنة) وغيرهم من التجار الاوروبيين بمساعدة القوات المصرية ضد الصقليين في الاسكندرية . والرسالة التي بعث بها صلاح الدين ذاته إلى بغداد في هذه المناسبة تؤكد وجود المعاهدات مع جنوى والبندقية كذلك . حيث جاء فيها : « وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب إلينا باهداء طرائف أعماله وتلاده ، وكلهم قد قرّرت معهم المواصله ، وانتظمت معهم المسألة » . ثم تشير رسالة من القاضي الفاضل إلى صلاح الدين ، بعد ٣ سنوات ، بصورة عابرة إلى « رسل الشعوب المختلفة » في القاهرة ، ومما لا يرقى اليه الشك ان هذه التجارة ساعدت إلى حد كبير في اعادة بناء الأسطول المصري .

إلا أن المفاوضات مع القسطنطينية كانت أشدّ فعالية بالنسبة لغرض صلاح الدين . فالجهود التي بذلها الروم لإقناع اللاتينيين في الشام بالتعاون معهم في شن الهجمات على مصر شكلت خطراً دائماً على أمنها . وفي الوقت ذاته ، كان من الصعب التوصل إلى إتفاق معهم دون تأليب سلاجقة الاناضول ضدهم لكن الكارثة التي أنزلها كلج أرسلان بجيش مانويل عند « ميريوكفالون » عام ١١٧٦ أنهت لفترة ما الاشتباكات المباشرة بينهما ، ولدى وفاة مانويل عام ١١٨٠ أخذ حلفاؤه زمام المبادرة بفتح العلاقات مع صلاح الدين ، وهي

العلاقات التي جرى تثبيتها في معاهدة عام ١١٨١ . لقد زاد العداء المتزايد بين الروم واللاتين من نفخ هذه العلاقات وتكررها ، وهي التي كانت قائمة بين صلاح الدين وإسحق النجلوس في القسطنطينية من جهة ، وبينه وبين إسحق كومنينوس في قبرص ، من جهة ثانية . ولقد كانت مثل هذه العلاقات الودية مع أعداء الإسلام التقليديين دون ريب مبررة على نحو كافٍ في عيني صلاح الدين بلجهة منفعتها المباشرة ، لكنها زوّدتته بالرضا الإضافي في إرجاع المؤسسة القديمة للعبادة الإسلامية بالقسطنطينية ، ولو مؤقتاً فحسب ، باسم الخلافة العباسية .

كان كل شيء منظمًا ومعدّ لاستقبال الإشارة عند نهاية عام ١١٨٦ لكن صلاح الدين مازال حينئذ ملزماً بشروط معاهدة ١١٨٥ وكان عليه أن ينتظر حتى يزوّدَ بذريعة للحرب . وعرضت فرصة ملائمة مرجوة على يد النزاع الناشب بين ريموند الصنجيل صاحب طرابلس وغي ، والتحالف الناشئ بين ريموند والسلطان (١١) . فقد جرى إرسال بعض قواته بالفعل لتعزيز حامية طبريا . وعليه ، فإن نية غي الأولى ، بتحريض من فرسان الداوية (الهيكليين) ، في مهاجمة طبريا كان من شأنها أن تؤدي إلى إشعال نار الحرب . فقد ارتكب رجنالد صاحب الكرك غلظته الفادحة والممينة في مستهل سنة ١١٨٧ بمهاجمة قافلة ذاهبة من القاهرة إلى دمشق ، فحرق الهدنة ، ورفض تسليم أسلابه استجابة لتهديدات صلاح الدين أو مناشدات الملك . وأرسلت الدعوات إلى كافة نواب صلاح الدين وتابعيه ، بينما انطلق هو على رأس عساكر حرسه في ١٤ آذار لحماية قافلة للحجاج كانت عائدة إلى الديار . فالتصمت الفرقة المصرية ، التي وصلت متأخرة بعض الشيء ، إلى أعمال التخريب في أراضي الكرك وحصن الشوبك ، ثم عادت معه إلى دمشق بعد شهرين . واحتشدت في

١١ - المصدر نفسه ، ص ٦٠٥ .

تلك الاثناء عساكر دمشق وحلب وما بين النهرين والموصل وديار بكر عند « رأس الماء » ، وأغارت على طبريا . وقامت جماعة من فرسان الداوية والاسبتارية (Templars and Hospitallers) عند بلدة صفورية . غير عابثة بتعليمات ريموند ، فاشتبك مع قوة ضخمة كانت تشن غارة تظاهرية بالحرب في أيار ، وقتل رجالها أو وقعوا في الأسر حتى آخر رجل منهم تقريباً .

وعند نهاية أيار استعرض صلاح الدين الجيوش مجمعة في عشرين بحوران . فجنّدت فرق الفرسان النظامية ١٢,٠٠٠ فارس . يقابلها على الأرجح عدد مماثل من القوات الإضافية والجنود غير النظاميين . « وعيّن لكل أمير مكانه في الميمنة أو الميسرة . بحيث لا يجوز له أن يبارحه . فلا تتغيّب فرقة ، ولا يترك رجل واحد مكانه . واختار من كل كتية حراس المقدّمة من رمسة السهام . . . ثم قال : عندما ندخل أرض العدو ، هذه هي أوامر قواتنا وتلك هي مواقع كتابتنا» (١٢) . وانطلق صلاح الدين يوم الجمعة في ٢٦ حزيران إلى فلسطين ، وبعد أن توقّف لمدة خمسة أيام في الأقحوانة عند الطرف الجنوبي من البحيرة ، تقدّم نحو التلال المشرفة على طبريا . وفيما وقف الجيشان مقابل بعضهما بعضاً ، قاد صلاح الدين ، سواء بحض الصدف أم وفقاً لخطّة مرسومة . حراسه وقوات حصاره إلى طبريا يوم الخميس الموافق للثاني من تموز . وقامت كونتيسة ريموند بالصمود في القلعة لصدّ هجومه ، لكن نداءها إلى غي في طلب المساعدة أتاح له الفرصة التي حرّمت عليه طيلة هذه السنوات كلّها . ألا وهي : مواجهة مهيّأة في الميدان مع قوات مملكة الفرنجة .

لقد تجلّى الطابع الساحق للانتصار في حطين (٤ تموز ، ١١٨٧) على الفور عبر مجموع المدن والقلاع التي كانت إما قد سقطت بأيدي صلاح الدين شخصياً

١٢ - عماد الدين ، الفتح القسي ، ١٩ . وفيما يتعلق بمعركة حطين ، انظر المجلد الأول من تاريخ الحملات الصليبية ، الفصل التاسع عشر ، ص ٦٠٨ وما يليها .

(عكا والطرطون وصيدا وبيروت) أو في أيدي ألوية منفصلة تحت أمرة قادتها (مثل الناصرة وقيصريّة ونابلس ، الخ) . ثم تجاوز صور مؤقتاً لكي تنضمّ قواته إلى قوات العادل الذي كان قد اقتحم يافا ، وحاصر عسقلان التي استسلمت في ٥ ايلول بناء على وعد قطعه باطلاق سراح غي وسيد فرسان الداوية ، فوفي بوعده في نهاية الأمر ، أما القلاع الباقية في هذه المنطقة فقد تمّ الاستيلاء عليها إما في أثناء المسيرة على عسقلان أو بعدها توّاً . وأخيراً ، جمع صلاح الدين عساكره من جديد وزحف صوب هدف مطامحه : الآ وهو الاستيلاء على القدس . فاستسلمت المدينة بعد حصار استغرق أقلّ من اسبوعين في ٢ تشرين الأول وفقاً لشروط اثبتت شهرته ، اذا كانت هناك من حاجة للتثبيت ، في الكياسة والسماحة التي لا تعرف الحدود (١٢) .

شجّع انهيار مملكة القدس صلاح الدين على الأمل بأنه يمكن الاستيلاء على صور أيضاً قبل بدء الشتاء ، فضرب الحصار حولها في ١٣ تشرين الثاني . وأدى الدفاع العنيد من جانب كونراد المونتفراتي (كونورد) إلى تثبيت عزيمة الألوية الشرقية التي كانت تتوق للعودة بأسلابها إلى بلادها . بما أن الشتاء صار وشيكاً الآن . فجاءت الهزيمة المشؤومة التي لحقت بأسطول الحصار المصري عند نهاية كانون الأول لتعزز نفاذ صبرهم ، وعلى الرغم من حجيع صلاح الدين لصالح المثابرة والصمود ، وهي الحجيع التي أيدها قادة عسكر حلب ، فإن الأمراء انتزعوا رجالهم وتفرّقوا . وفي أول كانون الثاني أرغم صلاح الدين على التخلّي عن الحصار وانسحب لقضاء الشتاء في عكا ، حيث حملت إليه سفارات متتابعة تهاني جميع الامراء المسلمين ومن جملتهم منافسيه السابقين في اذربيجان وبلاد فارس .

ترك صلاح الدين عكا لكي يعاد تحصينها تحت اشراف مملوكه المؤمن بهاء

١٣ - راجع تاريخ الحملات الصليبية ، ح . ١ ، الفصل التاسع عشر ، ص ٦١٦ - ٦١٨ .

الدين قراقوش ، ورجع إلى دمشق في الربيع ، فتوقف لفترة قصيرة أمام قلعة الكوكب التي لم يتم إخضاعها بعد . وفي ١٠ أيار سار شمالاً مع حرسه لكي ينضم إلى ألوية ما بين النهرين تحت أمرة كوكبوري وعماد الدين سنجر ، بينما بقي العادل مع الفرق المصرية لحراسة الجنوب ومعالجة أمر الكرك وحصن الشوبك . فصدرت الأوامر إلى عساكر حلب وحماه بالوقوف متيظة عند طيزين من أية حركة يأتيها بوهمود . أما القوات الباقية بتصرفه فكانت خفيفة جداً حتى يُعهد إليها القيام بعمليات حصار طويلة الأمد ، لكنها كافية للاستيلاء على مدن الإمارة وقلاعها المنعزلة ، حتى تصل إلى حدودها الشمالية عند بغراس ودرساك . ومع أن انطاكية بالذات لم تكن عرضة لأي خطر حقيقي ، فقد طلب بوهمود في أيلول هديةً ونالها على مضض لمدة ثمانية أشهر ، وبعد مفاوضات الهدنة عادت ألوية ما بين النهرين إلى ديارها ورجع صلاح الدين إلى دمشق . فانضم إليه العادل هناك مع عساكره ، وجرى على الفور حصار القلعتين المتبقيتين في فلسطين : صفد والكوكب ، والاستيلاء عليهما . وعقب استسلام القلعة الأخيرة في ٥ كانون الثاني تفرقت بقية قواته ، وقام صلاح الدين بجولة تفتيشية على حصونه الساحلية من عسقلان إلى عكا (١٤) .

إن نجاح صلاح الدين الرائع في تخفيض ممتلكات الصليبيين ببلاد الشام إلى مدن ثلاث ، هي صور وطرابلس وانطاكية ، مع بضع قلاع نائية ، في غضون فترة قصيرة من ١٨ شهراً ، حمل المؤرخين المسلمين والغربيين سواء على اعتباره في الدرجة الأولى بمثابة قائد عظيم وناجح ، حيث كان الفضل في انتصاراته عائداً إلى الصفات العسكرية ذاتها والتي تعلت بها غيره مسن قادة الجيوش الناجحين . وهذه أساعة فهم تامة . حقاً إن صلاح الدين امتلك فضائل عسكرية شخصية ذات مرتبة رفيعة ، لكن انتصاراته جاءت بفضل امتلاكه لصفات

١٤- بالنسبة للعمليات من ١١٨٧ إلى ١١٨٩ ، انظر أيضاً : تاريخ الحروب الصليبية ، المصدر السابق ، ج ١ ، الفصل التاسع عشر ، ص ٦١٥ - ٦١٩ .

معنوية (أدبية) لا تشترك مع المواهب الاستراتيجية إلا في القليل . كان رجلاً يستمد وحيه من مثال أعلى ذي قوة وثبات ، ولسعد جعله تحقيق هذا المثال ينهك في الضرورة في سياسة طويلة من النشاطات العسكرية . وكانت هذه النشاطات حتى سنة ١١٨٦ موجهة نحو فرض إرادته على النظام العسكري الإقطاعي السائد وتحويله إلى الأداة التي تطلبها غرضه . فقد بينت الصفحات السابقة إن الناحية العسكرية قد احتلت في ذهنه وعلى صعيد الممارسة إلى حد كبير مرتبة أدنى من توحيد القوى السياسية لآسيا الغربية ، على غرض واحد ، وصيغها بشيء من عناده وتفردية نظره . وبهذه الوسائل ، وليس بفضل مقدرة استراتيجية متفوقة ، نجح صلاح الدين في حشد ذلك الجيش الذي قدّر له أن يقضي على مملكة القدس اللاتينية . حتى إن الحملات اللاحقة للنظر عامي ١١٨٧ و ١١٨٨ لا يمكن اعتبارها كبرهان على إن صلاح الدين امتلك براعة عسكرية بارزة . فالتحصن حطين كان بفضل أخطاء الفرنجة بقدر ما هو مدين لاستراتيجية صلاح الدين ، حتى عندما يُمنح كل تقدير إلى البراعة التي جرى فيها اختتام الفرصة . مثلما يدلّ الأنبياء اللآحق للدفاعات الداخلية في القدس وانطاكيا على الضعف الأساسي في الدويلات الصليبية ، وليس بالأحرى على العبقرية العسكرية لدى الفاتحين ، وهذه نقطة تشدد عليها حقيقة كون العديد منها قد سقطت بأيدي قوات صغيرة منفصلة .

وعلاوة على ذلك ، فإن هذه النجاحات تمّ إحرازها إلى حد كبير بفضل ممارسة الصفات التي ميّزته أشد تمييز عن معاصريه العسكريين . فبلا شيء يسترعي الانتباه في المصادر أكثر من مناشدته المتكررة من انتقادات ضباطه لمبادئ الشرف ، وحسن النية ، وإيمان ديني راسخ الأركان . وعندما جاء دور المدين والقلاع المسيحية فقد استسلمت هذه بتلك السهولة لسبب رئيسي يعود إلى شهرة صلاح الدين في المراعاة الدقيقة للعهود التي يأخذها على نفسه وفي سماحة النفس التي لا تعرف المكر والحيل . أما أولئك النقاد الذين عابوا عليه

السماح لتلك الأعداد الكبيرة من الفرسان والتجار بالعثور على ملجأ في صور ، وبذلك تستنى له ان يبني رأس جسر هناك للهجوم المضاد ، فإنهم قد انفقوا عموماً في اعتبار ما سيكون عليه مجرى الحملة الصليبية الثالثة لو أنها وجدت صلاح الدين لدى وصولها ما زال منهمكاً في مهمة اخضاع قلاع الداخل . قلعة تلو الأخرى . دون ان يتمتع بحرية تامة في الحركة وان يأمن مؤخرته أماناً تاماً . وفي انه لم يستول بالواقع على صور كذلك . فقد كان هذا إلى حد ما نتيجة للصعوبة بوصول كونراد . وإلى حد ما بسبب نفاد الصبر وعصيان الأوامر لدى الألوية الشرقية .

ويمثل السبب الثاني بوضوح على العيوب المستمرة لدى القوات التي كان عليه ان يجابه بها الصراع المتأخر مع الصليبيين . لكن هذا الأمر كان لا يزال رهن المستقبل . ومن غير التاريخي ان نتصور صلاح الدين وكأنه يعدّ الخطط ويوزع قواته للتصدي للهجوم الوشيك من الغرب . لقد انصبّ تفكيره منذ البداية على الحرب الهجومية ، وليس على الدفاعية منها . من أجل هذا الغرض قام بنساء جيوشه ، ذلك الآن إلى حد كبير وبصورة رائعة . ومع انه حزن لانعدام قوة الصمود لدى تابعيه امام صور ، ومرة ثانية أمام انطاكية عام ١١٨٨ ، فهو لم ير في هذه الأمور أكثر من مجرد قيود عابرة ، وتوقع ببلء الثقة ان يعوّض عنها في حملات لاحقة . وصلته الإشارة الأولى عن الهجوم القادم من الأميرال الصقليتي مارغاريت في اللاذقية في خريف ١١٨٨ ، فلم ينزعج من التقرير كثيراً حتى انه منح يوهنوند هدنة لغاية أيار ١١٨٩ فقط ، وشغل نفسه خلال الشتاء بإعداد العدة لمهاجمة انطاكية وطرابلس .

لذا فإنه فوجيء على الأرجح عندما وصلت الطلائع الاولى ونجحت قوات غي في السير على عكا ومحاصرة المدينة في ٢٧ آب ، ١١٨٩ . ومنذ تلك اللحظة تحول دوره ، فصار يواجه مهمة جديدة أشدّ تعقيداً ، وهي مهمة لم يحاولها أبداً أي قائد اسلامي من قبله طيلة قرون : مهمة الإبقاء على جيش في الميدان

لمدة سنوات ثلاث ، وذلك وسط كافة الظروف المثبطة للعزيمة . فلو انه لم يكن سوى مجرد قائد للجيوش ، لما استطاع إنجازها . ولكانت قواته الاقطاعية قد تلاشت وتركزت ميدان المعركة للفرنجية . لكن عظمة صلاح الدين الحقيقية والقوة الداخلية للأداة التي أوجدها تم وضعها على المحك في هذا الاقتران غير المتوقع كلياً . لقد كان عليه ان يخوض نزاعاً مزدوجاً : الصراع الخارجي مع الصليبيين ، والصراع الداخلي مع النزعات الانقسامية ومع تقلبات الجيوش الاقطاعية . فالعقيدة العسكرية لم تلعب سوى دور ضئيل في مجموع الصفات التي حارب بها الهجمة الصليبية لكي يوقفها تماماً . والحملة الطويلة كانت تلاحقاً غير متقطع من الانتكاسات والكوارث العسكرية تقريباً . كان قواده يهاهرون بالنقد ، وغالباً ما تمرد عساكره . لقد ألهم صلاح الدين تلك المقاومة العنيدة التي أنهكت الغزاة في نهاية الأمر بقوة شخصيته الخالصة وفي جذوة الايمان المتقدة بداخله ، وفي القدوة التي أرساها عن الصمود الثابت .

الفصل السادس

جيوش صلاح الدين*

١ - الجيش المصري

لما شنّ شيركوه حملته الثالثة على مصر ، أعطاه نور الدين هبةً بقيمة ٢٠٠,٠٠٠ دينار ، عدا الأسلحة والثياب والدواب ، وسمح له في انتقاء ألفي فارس من عسكره النظامي ، كما أعطى نور الدين لكسل فارس من هؤلاء العسكر ٢٠ ديناراً لإنفاقها أثناء تجهيز الحملة (١) . فاستأجر شيركوه بالمبلغ ستة آلاف فارس من فرسان البركان ، يُحتمل أنهم كانوا من قبيلة « ياروق » ، لأن قائدهم كان عين الدولة الياروقي (٢) . وأضيف إلى هذه الآلاف الثمانية من الفرسان ، عساكر شيركوه العاملين في خدمته ، بصفة كونه أمير إقطاع حمص ، والبالغ عددهم خمسمائة مملوك وكردى (٣) ، وربما انضم إلى هؤلاء

Gibb, H.A.R. : « The Armies of Saladin », **Cahiers d'Histoire égyptienne**, série 3, fasc. 4 (Cairo, 1951). pp. 304 - 320

١ - ابن الأثير ، التاريخ الباهر في الدولة الاتاكية (R.H.C., Hist. Or., II. ii)، ص ٢٤٩ وما يليها وانظر الصيغة المختصرة في كتاب الكامل (طبعة تورنبرغ) ج ١١ ، ص ٢٢٢-٢٢٣ .

٢ - فيما يتعلق بقبيلة الياروقي التركمانية وعلاقاتها مع نور الدين ، انظر كتاب كلود كاهن **La Syrie du Nord** (باريس ، ١٩٤٠) ، ص ٣٧٨ .

٣ - ابن أبي طي في المجلد الأول من تلخيص أبي شامة (القاهرة ، ١٢٨٧ هـ) ص ١٧٣ . وهو يورد هذا الرقم على أنه عدد « الأسدية » ، أي الفرقة الشخصية لأسد الدين شيركوه في مصر .

كلّهم عددٌ غير محدود من الأجناد الاضافيين . وبعد أن احتلّ مصر ، «أقطع البلاد لعساكره » الذين جساؤوا معه (٤) وترك المصريين ، في الوقت نفسه ، يحتفظون بما في أيديهم(٥) .

أدّى تعيين صلاح الدين خلفاً لشيركوه إلى انسحاب التركمان وعدد من أمراء نور الدين الاثراك مع فرسانهم . ومن جهة ثانية ، فإن (فرقة) الأسديّة التي أنشأها شيركوه وغيرها من فرسان الاكراد ظلّوا يعملون في خدمته ، وقبل انقضاء سنة واحدة كان قد شكّل فرقة خاصة من الحرس ، تدعى الصلاحية ويقودها الأمير أبو الهيجا (٦) . وعلى الرغم من انخفاض عدده ، فقد شرع يستبدل الامراء المصريين المقطعين بمن بقي معه من العساكر(٧) . فازداد حجم جيشه باستمرار خلال السنوات الخمس التالية عن طريق التجنيد في الفرق التابعة

٤ - ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٥٣ (الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٢٤) . ويقول ابن الاثير في التاريخ الباهر ص ٢٤٩ (راجع الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٢٢) إن العاصد كان قد وعده بتحويله صلاحية القيام بهذا العمل قبل غروجه في الحملة إلى مصر .

٥ - ابن ابي طي في المجلد الأول من تلخيص ابي شامة ، أسفل الصفحة ١٧٢ .

٦ - المصدر نفسه ، ص ١٧٣ . عماد الدين في المصدر نفسه ، ص ١٧٨ (راجع الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٢٩) . إن قوات المشاة الوحيدة التي ذكرها صلاح الدين خلال هذه الفترة المبكرة هي « نقابة الخلبية » (انظر الحاشية رقم ٧٧ أدناه) ، وقد جرى استخدامها في الهجوم على غزة عام ١١٧٠ : كتاب القاضي الفاضل (ابوشامة ، ج ١ ، ١٩٣) .

٧ - عماد الدين في تلخيص ابي شامة (ج ١ : ١٧٨) . ويضيف ابن الاثير (ج ١١ : ٢٢٧) عبارة « وأهل » . وكانت هذه المناقلة (التي يبدو انه قد صاحبها الكثير من الفوضى والمصادرة القسرية ، انظر : ابن ابي طي في تلخيص ابي شامة ، ج ١ : ١٩٧ ، ٢٨ وكذلك ٢٠٠ ، ١٠) . وعماد الدين ، المصدر نفسه ، ٢١٩ ، ٢٤ (إحدى الشكاوى التي رفعها الامراء المصريون إبان الثورة عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م (ابن ابي طي ، تلخيص ابي شامة ، ج ١ : ٢٢٠ ، ٨) . ويقول كتاب بستان الجامع (طبعة كاهن ، في B.E.O. VII - VIII, p. 138) من شتاء ١١٦٩ - ٧٠ ما يلي : « غرق في تلك السنة صكر المصريين في بحيرة الأشنوع وهلك أكثرها وكانت آخر سعادتهم » .

له وتحت لواء أمرائه . لما حل العام ١١٧٤ ، وهو العام الذي خرج فيه توران شاه بحملته على اليمن ، استطاع صلاح الدين تزويده بجيش قوامه ١٠٠٠ فارس عدا الفرسان الذين سيّرهم من حلقته الخاصة (٨) .

إن المصادر التي في متناولنا لا يبدو عليها أنها تورد أية تفاصيل عن توزيع الإقطاعات العائدة للعساكر أو لصلاح الدين نفسه ، وهو الذي يفترض أنه ورث إقطاعات الوزراء المصريين وإيراداتها (٩) . فالمعلومات التي نملكها تتعلق فقط بالإقطاعات المعطاة لأفراد أسرته . وعندما وصل والد صلاح الدين إلى مصر عام ٥٦٥ هـ - ١١٧٠ م أقطعه هذا الاسكندرية ودمياط والبحيرة (١٠) . وفي الوقت نفسه أقطع أخاه توران شاه الأقاليم الجنوبية من صعيد مصر (قوص وأسوان وعين شمس) ، بعبارة بلغت قيمتها ٢٦٦,٠٠٠ دينار . ثم تسلّم أخوه بعد أشهر قليلة علاوة على ذلك إقطاعات بوش وأعمال البحيرة وسمنود (١١) وعندما وصل ابن أخيه تقي الدين عمر في السنة ٥٦٧ هـ - ١١٧٢ م ، بصحبة فرقته الخاصة و ٥٠٠ جندي ، تقررت حوالتهم في النفقة عليهم على كورة البحيرة (١٢) .

٨ - ابن أبي طي ، تلخيص أبي شامة ، ج ١ : ٢١٧) . والمباراة الأخيرة هي « خارجاً عن سيره من حلقته » . ما يترك مجالاً لبعض الشك فيما إذا كانت لفظة « حلقته » تعود إلى صلاح الدين أم إلى توران شاه . ويبدو أنها المرة الأولى التي يستخدم فيها هذا الاصطلاح .

٩ - جاء في كتاب السلوك للمقريزي (ج ١ ، ص ١١) بأن المتحصلات في « الديوان الخامس السلطاني » عام ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م (أي عند نهاية حكم صلاح الدين) تقررت بمبلغ ٣٥٤,٤٤٤ ديناراً .

١٠ - ابن أبي طي ، في تلخيص أبي شامة (ج ١ ، ١٨٤) . وبلغت قيمة إقطاع البحيرة ٤٠٠,٠٠٠ دينار (انظر المقريزي ، المصدر السابق ، ص ٩١ ، حاشية ٣) .

١١ - ابن أبي طي ، المصدر نفسه ، ١٨٤ ، ١٩٢ . ويقول المقريزي (في المكان نفسه من السلوك) إن عبدة بوش وملحقاتها بلغت ٧٠,٠٠٠ وعبدة سمنود وملحقاتها ٦٠,٠٠٠ دينار .

١٢ - المقريزي ، السلوك ج ١ ، ٤٨ : « تقررت حوالتهم في النفقة عليهم على كورة البحيرة » . ويذكر مؤلف البيان (ص ١٣٩ وما بعدها) أنه تم استخدامهم فوراً في الحملات على برقة والمغرب . ومن المحتمل أن يكون ذلك بديلاً عن إقطاعهم البلاد .

ويظهر من ملاحظة ذكرها ابن الاثير ان الاقطاعات في نظام نور الدين الإقطاعي كانت متوارثة ، وقد جرى الاحتفاظ بسجل للعدة والرجال مما التزم كل تابع بتقديمه (١٣) . ويبدو ان نظام صلاح الدين كان على غرارهِ تماماً (١٤) . فالأمراء والأجناد الرئيسيون كان لكل واحد منهم إقطاع ، وتسلم ممالكهم «جامكية» أو عطاءً معيناً ، أو تعينت لهم إقطاعات أو حصص في إقطاع (١٥) ، ونفقات ، أي المؤن ، والعلف (العليق) عينا (١٦) . أما الجنود الذين لم يتسجلوا على لوائح العطاء والنفقات في الدواوين العائدة للأجناد فقد عُرفوا بتسمية «البطالين» (١٧) .

١٣ - ابن الاثير ، التاريخ الباهر في الدولة الاتيكية ، ٣٠٨ .

١٤ - إن منشور تعيين ابن المقدم والياً على دمشق في ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م اشترط عليه القيام بمرض «العسكر وإلزامهم بمدة أجنادهم وعدة رجالهم» : عماد الدين ، البرق الثاني ، ج ٥ ، الورقة ٤٧ أ .
١٥ - يبدو من هذا المنشور نفسه ان « الاقطاعة » أو « الجامكية » تجوز مقاستها بين أمير وملوكه ، لأنه يأمر الولي بحظر الأمراء عن « الحيف على رجالهم في القرار والإقطاع » (المصدر نفسه ، ٤٧ ب) . وقارن ابن المسماي ، قوانين الدواوين (١٩٤٣) ، ٣٦٥ : ٣٦١ . وقارن أيضاً ابن الاثير (الكامل ، ج ١١ : ٣٥٠) ، حيث يعرف الجنود النظاميين بعبارة « من له الإقطاع لا الجامكية » .

١٦ - ابن أبي طي (تلخيص أبي شامة ، ج ١ : ٢١٩) : « فأراه جرائد الأجناد بمبالغ إقطاعهم وتعيين جامكيتهم وراتب نفقاتهم » . راجع أيضاً ابن المماتي ، المصدر السابق ، ص ٣٥٤ و ٣٥٥ ، حيث يعطي رقم ١٦٠٠٠ دينار كقيمة نموذجية للجامكية السنوية . وراجع الفقرات المذكورة في الحاشية ١ أعلاه ، حيث يستبدل ابن الاثير عبارة « من القرار الذي له » بقوله « من جامكيتته » . وحين يقول المقرئ (السلوك ، ج ١ ، ٦٥) عن صلاح الدين عقب معركة تل الخبز (تل الرملة) بأنه « قطع أخياز جماعة من الأكراد » ، فمن المرجح ان «شيز» تعني هنا « العطاء » وليس « الإقطاع » ، كما جرت العادة في العرف المملوكي المتأخر . قارنه أيضاً بابن أبي طي (تلخيص أبي شامة ، ج ١ : ١٩٦/١٩٧) .

١٧ - ابن أبي طي (تلخيص أبي شامة ، ج ١ : ٢٠٩) : « أنفذ معه جماعة » من الأكراد البطالين » . وخلال حصار عكا بذل صلاح الدين جهوداً لتجنيد عدد من البطالين لقاء وعود بمنحهم العطاء والنفقات (عماد الدين ، الفتح ، ص ٣١٣ - ٣١٤) .

لم يتمتع المُقطَّع أو صاحب الإقطاع بحق التصرف في الإيراد ككله المتحصل من إقطاعه، إلا بموجب إذن خاص . وعليه، فعندما تعيّن تقي الدين نائباً لعمه في مصر عام ٥٧٩ هـ - ١١٨٣ م فإنه أقطع الاسكندرية ودمياط ، لكنه أعطي بالإضافة إلى ذلك البحيرة والفيوم وبوش بمثابة «خاصة» له (١٨) . ويمكن الاستنتاج من إشارات متفرقة بأن المُقطَّع كان مسؤولاً عن إيلاء عنايته لحراثة الأرض وسقيتها على وجه كاف (١٩) ، وعن صيانة السدود (٢٠) ، والاهتمام بجمع الخراج نقداً أو عيناً عن كل محصول (٢١) . أما المرحلة التي كان عندها المقطع يقوم بجمع إيراده المحدد نقداً وعيناً ، فلا يرد ذكرها ، هذا إذا كان حقاً يقوم بذلك على الإطلاق . إلا أنه بخلاف المقطعين المتأخرين، فقد أشرف كل مُقطَّع بشخصه على الغلال في فصل الربيع . وجرى اختيار موعد المؤامرة الفاطمية في شهر نيسان من سنة ١١٧٤ ، باعتباره الوقت الذي تكون فيه «العساكر متباعدة في نواحي إقطاعاتهم وعلى قرب من موسم غلاتهم وانه لم يبق في القاهرة إلا بعضهم» (٢٢) . وحين قام الاسطول الصقلي بمهاجمة

١٨ - ابن أبي طي (تلخيص أبي شامة ، ج ٢ : ٥٣ . ويقول المقرئ (السلوك ١ : ٨٢) : « ارجع (الملك المظفر تقي الدين) عن العادل إقطاعه بمصر ، وهو سيمائة ألف دينار في كل سنة . لكنه يضيف إلى هذا القول في أحد المواضع اللاحقة (ص ٩١ ، هامش ٣) ما يلي : « كان إقطاع المظفر تقي الدين عمر البحيرة جميعها ، وهي بأربعمائة ألف دينار ، والفيوم بثلاثمائة ألف دينار ، وقاي وقايات وبوش وهي بسبعين ألف دينار » . يستتبع عن هذا أنه يستخدم لفظة « إقطاع » بمعنى « خاصة » . ويذكر على نحو مماثل في الخطوط (ج ١ / ٨٧) بأن إيرادات (عوائل) « الديوان العادل » في سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م بلغت ٧٢٨٠٣٤٨ ديناراً .

١٩ - ابن عاتق ٣٦٦ .

٢٠ - المصدر نفسه ٢٢٢ - ٢٢٣ .

٢١ - المصدر نفسه ، ص ٢٥٨ - ٢٧٦ .

٢٢ - من رسالة القاضي الفاضل استشهد بمقاطع منها أبو شامة (ج ١ : ٢٢١) . ويقول أبو شامة أيضاً عن جنود نور الدين إنهم هجموا الفرنجة الثالث على مصر : « وعسكر الشام متفرقون ، كل منهم في بلد حافظ لما في يده » (ج ١ : ١٥٤) .

الاسكندرية عند نهاية تموز من العام نفسه ، تمّ تعزيز المدافعين ، على جناح السرعة ، بمدد من الفرسان الذين كانوا في إقطاعاتهم بالحوار (٢٣).

وفي حاشية موجزة وناقصة ، ملحقة بكتاب ابن ممي ، تُدرج معدلات العطاء والنفقات العينية لكل فئة من الجند ، على أساس العبرة المقدّرة لكل إقطاع (٢٤) . فالتقدير جرى على حساب النقد المسمّى «دينار حندي» . وتلقّى الجنود النظاميون من الاتراك والأكراد والتركمان عطاءهم بالمعدل الكامل . أما الفئة الثانية فقد تألّفت من الكثانية (٢٥) والחסود السابقين مسن عسقلان (العساقلة) (٢٦) ومن عساكر أخرى ماثلة كانت مسجلة في الديوان المصري

٢٣- ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ٢٧٢ . وفي خريف سنة ١١٧٥ أرسل صلاح الدين العساكر المصرية إلى بلادها ، وأمرهم بالعودة متى جمعوا حاصلات إقطاعاتهم (« إذا اشتغلوا »)
المعاد الاصغهاقي في تلخيص أبي شامة ، ج ١ ، ٢٥٢ .

٢٤- ابن الممالي ، ص ٣٦٩ .

٢٥- الكثانية هم الأمراء وغيرهم من المقطعين من قبيلة كنانة العربية ، هاجروا من جنوب فلسطين بعد سقوط عسقلان عام ١١٥٣ ، وأسكنهم الوزير ملائح بن رزيك في دمياط وجوارها (القلقشندي ، ج ١ : ٣٥٠) . وفي الحملة على تل الجزر (جنوب شرقي الرملة) كان القاضي الفاضل مصحوباً « بالكثانية والأدلاء » (كتاب البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٥ ب . قارن هذا مع أبي شامة ، ج ١ : ٢٧٣ - ٣٠) ، مما يدلّ بوضوح على كون عرب بني كنانة حسيّ الاطلاع على مناطق الحدود . انظر أيضاً المقرئزي : الخطط ، ج ١ ، ٨٧ ، السلوك ، ج ١ ، ٧٥ . وأجمع الخطط (طبعة Wiet ، ج ٤ ، ٢ ، ص ٦١) حول أمراء الكثانيين بدمياط في القرن التالي . لكنّ في بعض الفقرات قد يكون من المشكوك فيه ما إذا كانت الكلمة يجب ألا تقرأ ب « كثانية » .
انظر هذا الصدد ما يلي :

Gaudefroy - Demombynes, *La Syrie à l'époque des Mamelouks*
(1923), p. xxxiii, n.5

حيث ترد هذه العبارة :

« ممالك صغار قيد التدريب للدخول في خدمة السلطان » .

D. Ayalon in J.A.O.S. vol. 69, No. 3 (1949), p. 141, No.36

٢٦- يبدو من السجل المقتبس في خطط المقرئزي (ج ١ ، ٨٧) بأن العساقلة كانوا يقيمون أيضاً كجند الحاميات في دمياط وتيس .

(الفاطمي) . وتقاضى هؤلاء نصف العطاء . بينما تقاضت الفئة الثالثة . وهي المؤلفة من عساكر الاسطول و «قوادهم» (٤) . ربع العطاء (٢٧) . واخيراً . كانت هناك فئة «العربان» التي تقاضى جنودها ، إلاّ في بعض الحالات الشاذّة ، ثمن (١/٨) العطاء الكامل . ويذكر ابن مماتي القول التالي : « والسعر الكامل عبارة عما يُطلق في حوالة الأجناد وهو عن كل دينار واحد اردب واحد وثلاثا اردب قمح وثلاث اردب شعيراً . والحوالة على بيت المال في مستحقّ الأجناد كل دينار جندي ربع دينار عيناً على سبيل المصالحة ، ومنهم من أحيل عسّن عن الدينار بثلاثي دينار عيناً وبثلاث دينار على ما يؤمر به » (٢٨) . يبدو من هذا القول أن كل واحد من الفرسان النظاميين تلقى نقداً بما لا تقلّ نسبته ابداً عن ربع العبرة المقدّرة لإقطاعه ، وأخذ كميّة من الحبوب بمعدل اردب واحد لكل دينار من العبرة المقدّرة . وتلقّت الفئات الدنيا كميّات أقلّ من خلال الحبوب . إلاّ أنه يتعدّر علينا استخلاص شيء اكد من هذا القول بصدد عطائها نقداً .

لقد حفظ لنا المتريزي سجلّين من مفكرة القاضي الفاضل — « المتجدّات » وهما يعطيان أرقاماً لعدد الجيش المصري أيام صلاح الدين (٢٩) . فالسجلّ الاول يذكر بأن صلاح الدين أقام عرضاً لجميع عساكره : قديمها ومحدثها ، بحضور رسل الروم والفرنجة ، يوم الثامن من محرّم ٥٦٧ هـ (١١ ايلول : ١١٧١) . وكان العدد الإجمالي للطلّيب المعروضين ١٧٤ طلّباً ، وتغيّب منهم

٢٧ — يذكر المتريزي في السلوك (ج ١ ، ٤٥) بأن صلاح الدين قام في سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧٢م برفع معدل دينار الاسطول من خمسة أثمان الى ثلاثة أرباع المعدل الكامل . لذا يبدو من المشكوك فيه أن « غزاة » في هذا المقطع تعمل المعنى المعتاد لجنود البحرية . من المحتمل ان يتقرر المعنى الدقيق بواسطة لفظة « قواد » المربوطة بها ، وهي لفظة عجزت عن تعيين مدلولها .

٢٨ — لست متأكداً من المعنى الدقيق لبعض العبارات المستعملة في هذه الفقرة .

٢٩ — الخطوط ، ج ١ ، ٨٦ . ويرد السجل الثاني بصيغة مختصرة في كتاب السلوك ، ج ١ :

عشرون طلباً . «والطلب في لغة العزّ هو (وحدة مؤلفة من) الأمير المقدم الذي له علم معقود وبوق مضروب ، وعدة من مائتي فارس إلى مائة فارس إلى سبعين فارساً» (٣٠). لقد بلغ مجموع هؤلاء الفرسان قرابة ١٤,٠٠٠ فارس ، أكثرهم من «الطواشية» (٣١) والباقي من «القره غلامية» (٣٢) وفي الوقت نفسه

٣٠ - انظر الحاشية المطولة في كتاب كاترمير **Histoire des Sultans Mamlouks**

(2 - 271 ; I, i, 34 - 5 ; حيث يفسر « غز » بأنها تعني الاكراد .

٣١ - يعرف المتريزي « الطواشي » في هذه القرينة بأنها « من رزقه من ٧٠٠ إلى ١,٠٠٠ أو ١,٢٠٠ (دينار) (ويرد الرقم الأخير في النص الأصلي بمائة وعشرين ديناراً) ، وما بين ذلك ، وله برك من عشرة رؤوس إلى ما دونها ما بين فرس وبرفون وبغل وجبل وله غلام يحمل سلاحه » . ومهما يكن أصل هذه اللفظة ، فإنها لا تعني ، هنا على الأقل ، (كما لاحظ كاترمير في المصدر السابق ، ج ١ : ١٣٢) « الخصي » . ويساوي بولييك (في كتابه عن الاقطاعية ، ص ٢١ ، ساشية ١ من الترجمة العربية) بين « الطواشية » وباليك الأمراء . قارن مع ابن عاتقي ٣٥٦ : ١ ، ٢ . إلا أنه يتضح من هذه الفقرة بأن « الطواشي » في هذه الفترة كانت تدل على جندي ينتمي إلى الرتبة الأعلى من رتبتي الجند النظاميين ، والرتبة الأدنى كانت تدعى بالقره غلامية (انظر الحاشية التالية) . هذا ما يؤكد الوصف الشهير الذي وصفه غليوم الصوري لجيش صلاح الدين إبان حملة عام ١١٧٧ . (xxii, cap. 23) وفي الترجمة المطبوعة بنوييررك ، ١٩٤٣ : 1 - 430 (ii) . ويقول فيه : « وكان من بين هؤلاء ثمانية آلاف يدعوهم الطواشية بالفتح ، والباقيون هم ثمانية عشر أيضاً يدعوهم قره غلامية » (

(ويشير المترجمون ، في المصدر ذاته ، إلى التفسير غير الموفق الذي أعطاه تولدك هذه اللفظة في : (Roehricht, G.K.J., 377, n.1) . إن غليوم الصوري يشمل حرس صلاح الدين ضمن « الطواشية » (فيقول عن الحرس : « ألف من أشجع الفرسان ») . وفي الواقع إن صلاح الدين يخاطب سنقر الخاطمي الشهير بكلمتي « يا طواشي » (ويقول عنه عماد الدين في تلخيص أبي شامة ، ج ٢ : ١٤٩ ، السطر الخامس من الأسفل : « أعصى ممالك السلطان وأخلصهم وقد قدمه على ممالكه » . انظر أيضاً ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة (طبعة القاهرة ، ١٩٣٦) ، ص ١٢ : ١٤٠١ .

٣٢ - إن لفظة « قره غلام » لا يمكنها أن تعني « عبداً أسود » بالمعنى الحرفي . فغليوم الصوري (انظر الحاشية ٣١) يصف القره غلامية بمثابة « جنود عاديين » ، ومن المؤكد أنه كان يلاحظ هذا لو أنهم كانوا سودانيين . لذا فإن تفسير ستانلي لين - بول (في كتابه عن صلاح الدين ، ص ١٥٤) : « ما لا ريب فيه أنهم يمثلون فرقة المشاة المصرية القديمة ، ذات السلاح الثقيل والمتحدرة »

عرّض السلطان عرب بني جذام العاملين في خدمته ، فبلغ عددهم ٧,٠٠٠ فارس ، « واستقرت عدتهم على ١,٣٠٠ فارس ، لا غير » .

غير أن مؤسسة عسكرية في هذا الحجم كان لا بدّ لها من إجهاد موارد مصر الماليّة ، وهذا ممّا يعلّل تدمير نور الدين من أنّه لم يثقل أيّة مساهمة من مصر في نفقات الجهاد ، وإيفاده من يقوم بتدقيق حسابات صلاح الدين « بعمل حساب البلاد واستعلام اخبارها وارتفاعها وأين صرفت أموالها » (٣٣) . والحقّ يقال ان صلاح الدين ذاته اتخذ خطوات لتخفيض الاعباء والنفقات ، أولاً بواسطة إرسال فرقة كبيرة من الجند إلى اليمن سنة ١١٧٤ (٣٤) ، كما سبق ذكره ، ثم في إقدامه على «قطع أخياز جماعة من الأكراد» سنة ١١٧٧ بحجة مسؤوليتهم عن هزيمة السلطان وعسكره عند تل الخزر (الرملة) (٣٥) . وأخيراً ، في سنة ٥٥٧ - ١١٨١ فإنه أعاد تنظيم القوات النظاميّة في مصر ، على النحو المذكور في المقتطف الثاني من «متجدّات» القاضي الفاضل (٣٦) . «إلى أن

من السودان » ، يقع في خطأ مزدوج . فاللفظة التي يبدو أنها سقطت من الاستعمال خلال العهد الأيوبي ، كانت تطلق في الظاهر إما على الماليك من ذوي الرتبة الوضيعة ، أو ، كما يبدو ان الأعداد هنا تدل عليه ، على رجال الحياة من غير الماليك . والفرق المصرية السابقة كانت - كما سوف يتبين أدناه - في سجلات منفصلة . وعلى أيّة حال ، ينبغي عدم الخلط بين « قره غلام » والفتلة المنولية المتأخرة « قره غول » (انظر Dozy, Supplement s.v.)

٣٣ - صناد الدين (تلخيص أبي شامة ، ج ١ : ٢٠٦) .

٣٤ - جرى في السنة ذاتها تسريح القسم الأكبر مما تبقى من الجيش الفاطمي بعد فشل المؤامرة ، (انظر القاضي الفاضل في تلخيص أبي شامة ، ج ١ : ٢٢١ ، ٢٨ - ٢٩) مع ان بعض فرق هذا الجيش - كما سيتبين أدناه - جرى إما إدماجها في قوات صلاح الدين أو إعادة تشكيلها داخل تلك القوات .

٣٥ - المقرئزي ، السلوك ، ج ١ : ٦٥ .

٣٦ - المقرئزي . الخطط ، ج ١ : ٨٦ . وهناك صيغة أوجز في السلوك ، ج ١ : ٧٥ .

استقرت العدة على ٨,٦٤٠ فارساً ، منهم أمراء مائة وأحد عشر أميراً .
و ٦,٩٧٦ طواشياً ، و ١,٥٥٣ غلاماً من القره غلامية . والمستقر لهم جميعاً من
المال ٣,٦٧٠,٦٠٠ دينار . وذلك خارج عن المحلولين من الأجناد الموسومين
بالحوالة على العشر (٣٧) ، عن عدة العربان المقطعين بالشرقية والبحيرة ، وعن
الكتائين (٣٨) والمصريين (أي الفاطميين) : والفقهاء والقضاة والصوفية ، وعما
يجري بالدينار ، ولا يقصر مجموعه عن ألف ألف دينار .

وبلي هذا المقتطف في كتاب الخطط مقطع آخر من المتجددات يتضمن
تفاصيل الحسابات («استقرار العبرة») في شهر شعبان من السنة الهجرية
٥٨٥ (تشرين الاول ، ١١٨٩) . فقد بلغ مجمل «العبرات» ٤,٦٥٣,٠١٩ .
منها ما مجموعه ١,١٩٠,٩٢٣ ديناراً جرى تخصيصها للأغراض المعينة ، ومن
المرجح أنه تم تخصيص الرصيد المتبقي ، وهو ٣,٤٦٢,٠٩٦ ديناراً ، للجنود
النظاميين . وتوزعت مستقرات العبرة بالنسبة للأغراض المعينة على النحو
التالي :

الديوان العادلي السعيد	٧٢٨,٢٤٨ ديناراً
الأمراء والأجناد المرسوم بإبقائهم في إقطاعاتهم	
بالأعمال المسجلة خارج العبرة	١٥٨,٢٠٣ ديناراً
ديوان السور المبارك (سور القاهرة) والأشراف	١٣,٨٠٤ دنائير

٣٧ - « المحلولين من الأجناد الموسومين (اقرأ: المرسومين (lege marsumina) بالحوالة
على العشر » .

٣٨ - ترد لفظة « الكتائين » في نص كتاب الخطط . انظر الحاشية رقم ٢٥ أعلاه . وقد
القاضي الفاضل (في رسالة إلى صلاح الدين) إيرادات الكتائين من الإقطاعات والرواتب بأنها
تتجاوز ٢٠٠,٠٠٠ دينار ، أو ربما بلغت ٣٠٠,٠٠٠ دينار . انظر : ابا شامة ، عيون (المتحف
البريطاني ١٥٣٧ ، الورقة ١46 v) .

العربان	٢٣٤,٢٩٦ ديناراً
الكنائنة	٢٥,٤١٢
القضاة والشيوخ	٧,٤٠٣
الجند القيمارية والصالحية والأحفاد المصريين	١٢,٧٢٥
الغزاة والعساقله المركزة بدمياط وتينيس وغيرهم	١٠,٧٢٥ ديناراً

غير أنه مما لا يجب افتراضه ان صلاح الدين كان قادراً على استخدام الجيش المصري كله في حملاته الشامية . فالظروف المحيطة بتوطيد مركزه في مصر ، والحملات البحرية اللاحقه التي شنتها الصليبيون ، أقنعتهم بان الفرنجة لم يتخلوا أبداً عن الأمل في الاستيلاء على مصر بواسطة هجوم مباغت . ولذا فقد تعدّر عليه توفير النصف من القوات المصرية العاملة في خدمة حاميات الحراسة بمصر . أما المناسبة الوحيدة التي يبدو فيها ان صلاح الدين قاد نسبة اكبر من الجيش المصري إلى بلاد الشام فكانت إبان الحملة على الرملة في العام ١١٧٧ (٣٩) ، ومن المرجح أن تكون الكارثة التي أسفرت عنها تلك الحملة عند «تل الجزر» قد أثبتت قراره بعدم المجازفة مرة ثانية . ويقال ان عدد فرسانه بلغ ٦,٠٠٠ فارس خلال حملته الأولى على بلاد الشام (١١٧٥ - ١١٧٦) ، وعقب احتلال دمشق . لكن بما ان هذا الرقم شمل عسكر دمشق (انظر ادناه) وحرسه الخاص ، يمكن تقدير الفرقة المصرية برقم لا يتجاوز ٤,٠٠٠ (٤٠) . ويذكر عمساده الدين بالضبط أن صلاح الدين عندما خرج مسن مصر ٥٧٧هـ - ١١٨٢م

٣٩ - يمكن استنتاج هذا الأمر من أقوال غليوم الصوري (انظر الحاشية رقم ٢١ أعلاه) . مع العلم بأن أرقامه مبالغ فيها ، على الأقل بالنسبة للفره غلامية . لكن صلاح الدين استطاع الخروج إل بلاد الشام على رأس قوات جديدة عقب ثلاثة أشهر فقط .

٤٠ - ابن الأثير . الكامل ج ١١ ، ٢٨٤ . ويقول عماده الدين (تلخيص أبي شامة ، ج ١/ ٢٤٨) بأن القوات المصرية تألفت من ١٠ مقدمين ، بينهم فروخ شاه وتقي الدين .

«استصحب نصف العسكر وأبقى النصف الآخر لحماية الحدود» (٤١). هذا ما تؤيده أعداد القوات الإسلامية في معركة حطين ، كما سيتبين أدناه . ولقد انطوت هذه السياسة على حسنة إضافية كذلك ، حيث ان صلاح الدين كان قادراً بهذه الوسيلة على الاحتفاظ بمدد من الجند المفعم بالنشاط في الميدان وعلى إرجاع الذين انهكهم المعارك لأخذ قسطهم من الراحة وتجهيز أنفسهم مسن جديداً في مصر (٤٢) .

٢ - الفرق الشامية والعراقية .

لقد أضاف صلاح الدين إلى النواة المصرية لقوته العسكرية على نحو تدريجي العساكر النظاميين لدى أمراء الشام وما بين النهرين . وعليه ، فإن المهمة التالية هي إجراء تقييم لقوة هذه الأجناد .

دمشق : انشقت القوات الإقطاعية لحيش نور الدين عقب وفاته فانقسمت بين دمشق وحلب وبعض الإمارات الصغرى (مثل حمص وحماه وحران ، الخ) . ولا يرد ذكر ، على ما يبدو ، للقوة الإجمالية التي كان عليها عسكر نور الدين في أي مصدر موجود لدينا ، لكن المرجح على ما يظهر هو ان النسبة الأكبر من عسكره (وربما بلغت الثلثين ، على سبيل التخمين) انضمت أصلاً إلى الملك الصالح في حلب . أما الذين بقوا في دمشق ، فوُضعوا تحت أمرة قائد نور الدين ، شمس الدين ابن المقدّم ، الذي أقطع بعلبك أيضاً (٤٣) . وخلال العصيان المؤقت الذي أعلنه ابن المقدّم ، من جرّاء رغبة توران شاه في الحصول

٤١ - أبو شامة ، ج ٢ ، أسفل ٢٧ .

٤٢ - يبدو ان المناسبة الأولى جاءت عام ١١٧٩ . انظر : عماد الدين (تلخيص أبي شامة .

ج ٢ ، حاشية ٦ ، ص ٢٨ وحاشية ٨ : ٢٤ .

٤٣ - يقول عماد الدين (في تلخيص أبي شامة ، ج ٢ : ص ٢) عن صلاح الدين ما يلي : «وكان السلطان ... أنعم بها عليه (أي على ابن المقدّم) ورد أمرها إليه ، فأقام بها مستقراً ولا خلاف أصالها مستدراً» .

على بعلبك لنفسه ، قام صلاح الدين بتعيين ابن أخيه فروخ شاه قائداً لعسكر دمشق ، وأوفده مع هذا العسكر لمجابهة القوة المهاجمة للقرنجة بقيادة همفري (همفري) الطروني في العام ٥٧٤ هـ - ١١٧٨ م . إن رسالة القاضي الفاضل التي تتحدث عن النصر الذي أحرزه فروخ شاه بهذه المناسبة تذكر على وجه التخصيص بأن حجم عسكره كان «لا يبلغ ألفاً» (٤٤) . وبما أن الجند الخاص لابن المقتدر كان دون ريب يدافع عن قلعة بعلبك حينذاك ، يمكن تقدير مجموع عسكر دمشق بـ ١٠٠٠ جندي أو ما يربو عن ذلك بقليل .

حمص : عقب حملته الأولى في شمال بلاد الشام (١١٧٥ - ١١٧٦) أقطع صلاح الدين ابن عمه لأبيه نصير الدين محمد بن شيركوه على حمص ، بالإضافة إلى إقطاع الرحبة التي كان مقطوعاً عليها قبل ذلك (٤٥) . ولدى وفاة القاهر محمد هذا ، في ٥٨١ هـ - ١١٨٦ م ، أبقى صلاح الدين إقطاعه على ولده شيركوه البالغ من العمر إثني عشرة سنة ، وعيّن أميراً كردياً ، هو الحاجب بدر الدين ابراهيم الهكاري ، آمراً للحصن (٤٦) . فالمصادر لا تذكر أية أرقام لعدد أجنادهم ، لكن عسكر شيركوه الأكبر ، كما سبقت الإشارة ، بلغ تعدادة إبان توليه إمارة حمص ٥٠٠ رجل ، ويمكن اعتبار هذا الرقم بمثابة الرقم التقريبي .

حماء : كان الحاكم الأول الذي ولاه صلاح الدين على حماه (١١٧٦)

٤٤ - عماد الدين في البرق ، ج ٣ ، الورقة ١١٧ أ : « وهو في عدة من عسكرنا المنصوري لا يبلغ ألفاً » . وترد الإشارة في الرسالة نفسها (الورقة ١١٧ ب) إلى هؤلاء الجند بعبارة « ماليكنا الترك » . كانت التعليقات المغطاة لهم تقضي بتعقب القرنجة غلبة وإبلاغ الخبر إلى صلاح الدين ، لكي يعمد بدوره إلى حشد الأجناد المحليين لموازرتهم (« ونحن نجمع عليهم من الأطراف إلى أجناد الأجناد » .

٤٥ - عماد الدين (تلخيص أبي شامة ، ج ١ : ص ٢٥٠ حاشية) .

٤٦ - المصدر نفسه ، ج ٢ : ٦٩ .

شهاب الدين محمود الحارم (الخارمي) (٤٧) ، وقد خلفه بعد وفاته (٥٧٤ هـ - ١١٧٩ م) ابن أخيه صلاح الدين ، تقي الدين عمر (٤٨) . وأشرك مع تقي الدين القائد السابق في دمشق ، ابن المقدّم ، كقطع على بعين وكفرطاب ورعيان (٤٩) ، والمقدّم الكردي المشهور سيف الدين المشطوب . ثم ترتب على تقي الدين وابن المقدّم ، عقب ذلك فوراً ، ان يزحفا صوب الشمال للدفاع عن رعيان (حصن) ضد سلطان السلاجقة الروم . وتذكر المصادر ان قواتهما المشتركة في هذه الحملة قد بلغ عددها ١٠,٠٠٠ رجل (٥٠) . وبناء عليه ، يمكن اعتبار هذا الرقم ممثلاً لقوة عسكر حماه بالإضافة إلى القوات التي احتفظ بها قادة القلاع والحصون ضمن إقليم حماه ، ومن جملته شيزر (٥١) .

حلب : إن القسم الأكبر من عسكر نور الدين ، كما سبق ذكره ، انضم على الأرجح إلى الملك الصالح ودعمه في الدفاع عن حلب ضد صلاح الدين . غير انه كان يحقّ لصلاح الدين ، بموجب الاتفاق المفقود بينه وبين الملك الصالح عام ١١٧٦ ، في ان يستنفر خدمات عسكر حلب ضد الاعداء الخارجيين ، ولقد خدم هذا العسكر تحت أمرته في العمليات التي شنتها ضسد الأكرمن في كيليكية عام ٥٧٦ هـ - ١١٨٠ م (٥٢) . ومما أدّى إلى تخفيض موارد حلب هذا

٤٧ - المصدر نفسه (حاشية رقم ٤٥) . توفي هو وابنه تكش ، ابن شال صلاح الدين ، في جمادى الثانية ، عام ٥٧٣ هـ (المصدر نفسه ، ج ١ : ٢٧٥) .

٤٨ - المصدر نفسه ، ج ٢ : ٨٤٢ .

٤٩ - المصدر نفسه ، ج ٢ : ٩٤٥ .

٥٠ - يتضح ذلك أشد الانضاح من كتاب البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٣٨ أ : « وهما في ألغين »
٥١ - البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٢٢ أ : « و صاحب شيزر بمكره محتسباً في موارد ومصادره » . ويضيف عماد الدين : « وأمرهم بالاستكثار من الرجال » والظاهر ان يكون هذا الاستكثار بواسطة تجنيد التركمان ، الذين يشار إليهم في الجملة التالية .

٥٢ - بهاء الدين (طبعة Schultens) ٤٧ . راجع ما يقوله عماد الدين في تلخيص أبي شامة ج ١ : ٢٦١ ، وابن الاثير في التكميل ، ج ١١ : ٢٨٦ .

التخفيض الكبير ، انفصال حماء وغيرها من المناطق الواقعة إلى الجنوب عنها ، بالإضافة إلى مناطق واقعة على الفرات (٥٣) ، حتى أنه يبدو مستبعداً أن تكون حلب قادرة على القيام بنفقة ما يتعدى فرقة نور الدين الخاصة من الحراس ، النورية ، والقوات الصغيرة للأمراء الباقين . لا تتوافر لدينا أية أرقام دقيقة ، لكن إذا كانت النورية تعدّ أصلاً ١,٠٠٠ فارس (كما يبدو أنه كان مألوفاً) ، فلا يحتمل أن يكون مجموع قوات حلب النظامية قد تجاوز هذا الرقم كثيراً . إن صلاح الدين عقب احتلاله لحلب في سنة ٥٧٩ هـ - ١١٨٣ م ، أعطاها أولاً لابنه الظاهر ، ثم إلى أخيه العادل في السنة نفسها ، وأخيراً إلى الظاهر مرة أخرى عام ٥٨٢ هـ - ١١٨٦ م ، لكن لا يوجد ثمة دليل على حصول أية زيادة ملحوظة في عدد الجنود النظاميين .

الموصل والجزيرة : يدلي ابن الاثير ، في روايته عن حملة الموصل ضد صلاح الدين عام ٥٧١ هـ - ١١٧٦ م ، ببيان قيم حول حجم قواتها . فقد كان عسكر الموصل في هذه الحملة مصحوباً بأجناد كل الولايات التابعة ، ومن جعلتها حصن كيفا وماردين . ويقول ابن الاثير ، في دحض موجه لعبارة عماد الدين التي جاء فيها ان قواتهم كما ذُكر عنها قد بلغ عددها ٢٠,٠٠٠ محارب ، - يقول بأنها بلغت «على التحقيق» أقلّ من ٦,٥٠٠ بقليل . ثم يضيف : «فأنني وقفت على جريدة العرض وترتيب العسكر للمصاف ميمنة وميسرة وقلباً وجأليشة وغير ذلك . وكان المتولي ذلك والكاظم له أخي مجد الدين . . . ثم يا ليت شعري كم هي الموصل وأعمالها إلى الفرات حتى يكون لها وفيها عشرون ألف فارس» (٥٤) .

٥٣ - تم الاستيلاء على بزاغة عقب الهزيمة الثانية لجيوش الموصل عام ٥٧١ هـ : ١١٧٦ م ، وأقطع عليها عز الدين عوشتارين الكردي (ابن أبي طي) في تلخيص أبي شامة ، ج ١ : ٢٥٦) . وقد لعب عوشتارين هذا دوراً بارزاً في معركة مرج عيون (٥٧٥ هـ : ١١٧٩ م) ، فأمر باليان الأصغر (ابن بارزان) : عماد الدين ، البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٢١ أ .

٥٤ - الكامل ، ج ١١ : ٢٨٤ .

خلال حملته الأولى في الجزيرة (٥٧٨ هـ - ١١٨٢ م) ضمن صلاح الدين انتقال السيادة اليه في إمارات حرّان (وصاحبها مظفر الدين كوكبوري ، بالإضافة إلى الرها) ، وحصن كيفا وآمد (وصاحبها الارتقي نور الدين بن قره ارسلان) ، وسنجار ودارا ونصيبين ، وغيرها من الولايات الصغرى . فانتقلت سنجار في السنة التالية إلى عماد الدين زنكي مقابسل تنازله عن حلب . وفي ٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م قبلت اربيل وأعمالها بسيادة صلاح الدين عليها بعد أن كانت مقطعة لزين الدين ، أخيه كوكبوري (٥٥) ، ثم رضخت له ماردين وميافارقين أيضاً في العام ٥٨١ هـ - ١١٨٥ م ، فأقطع ديار بكر بكاملها لملوكه حسام الدين سنقر الخلاطي (٥٦) .

ويمكن تقدير العدد الاجمالي لهذه القوات المحليّة التي أخذت منذ ذلك الحين فصاعداً تأتمر بأوامر صلاح الدين مباشرة في قرابة ٤,٠٠٠ رجل (٥٧) . بناء على ما تقدّم ، فإنّ عسكر الموصل الذي خضع لأمره صلاح الدين بموجب معاهدة ٥٨١ هـ - ١١٨٦ م ، يكون عدده حوالي ٢,٠٠٠ من الجند النظاميين .

هذه الأرقام ، وإن تكن إلى حدّ ما مجرد تقديرات بسيطة ، تثبتّها من كافّة الجوانب الأرقام الواردة في روايات الحملات التي جرت العام ٥٨٣ هـ -

٥٥ - يستشهد عماد الدين (تلخيص أبي شامة ، ج ٢ : ٦٠) بنشور القبول أو شروط الولاية .

٥٦ - عماد الدين (تلخيص أبي شامة ، ج ٢ : ٦٤) .

٥٧ - مما يجوز ذكره أن البيان الذي يورده ابن شداد لإيرادات حرّان في سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م (وقد استشهد به كلود كاهن في R.E.I. VIII, III) يشتمل على نفقات مؤن عينية لـ ١٠,٠٠٠ فارس . لكن بما أن الإيرادات السنوية الاجمالية كانت حوالي مليوني درهم ، فلا بد من كون العسكر أقل من ١٠,٠٠٠ بكثير - والمراجع أن عددهم قد تراوح بين ٣٠٠ و ٤٠٠ فارس إلى أبعد حد . ويذكر ابن الاثير في الكمال (ج ١١ : ٢٢٢) أن عسكر البصرة بلغ عدده ٢٠٠ خيال في سنة ٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م .

١١٨٧ م . ففي شهر مُحَرَّم (آذار) ترك صلاح الدين ابنه الأفضل لكي يعمل على تجميع الأجناد الشمالية عند رأس الماء ، وقاد بنفسه حلقة حرسه متجهاً صوب الجنوب لشن حملة هناك بالاشتراك مع العسكر المصري . وعلى أساس أرقامنا ، تكون هذه القوات التي سار على رأسها قد بلغت ١,٠٠٠ فارس ، يضاف إليهم ٤,٠٠٠ من الأجناد الذين يؤثفون نصف الجيش المصري النظامي (٥٨) . في تلك الأثناء ، احتشد عند رأس الماء فرسان الجزيرة ، والشرقيين (أي : عسكر الموصل) وديار بكر ، بقيادة كوكبوري ، وعسكر حلب تحت إمرة دلدرد بن ياروق ، وعسكر دمشق تحت راية صارم الدين قايماز النجفي . وخلال غياب صلاح الدين قامت هذه الجيوش مجتمعة بشن غارة تظاهرية على أراضي طبريا وسحقت قوة من الداوية (الفرسان الهيكليين) عند صفورية. إن المصادر الغربية تقدّر عدد تلك الجيوش بـ ٧,٠٠٠ فارس (٥٩) . وأخيراً ، رجع صلاح الدين مع جنده من الجنوب وعرض القوة كلها ، والبالغ عددها ١٢,٠٠٠ رجل من الفرسان ، عند عشترا قبل خروجه في الزحف الذي انتهى به إلى حطّين (٦٠) . يمكن توزيع هذه القوات بناءً على ذلك ، تقريباً على النحو الآتي : ١,٠٠٠ من الحرس ، ٤,٠٠٠ من العسكر المصري ، ١,٠٠٠ من عسكر دمشق ، و ١,٠٠٠ من عسكر حلب وشمال بلاد الشام (كما يترك هناك ١,٠٠٠ جندي للحراسة) ، و ٥,٠٠٠ من الجزيرة والموصل وديار بكر .

٥٨ - انظر الفصل الذي يتناول كتاب البرق الشامي من كتابنا هذا .

٥٩ - 146 Ergoul (وي بعض المخطوطات يرد الرقم ٦,٠٠٠) . Libellus ، كما استشهد به لين - بول في كتابه عن صلاح الدين ، ص ٢٠١ حاشية . للإطلاع على تركيب القوة الشرقية المفيرة ، راجع عماد الدين : الفتح ١٤ ، وقارن بأبي شامة ، ج ٢ : ٧٥ .

٦٠ - عماد الدين (في تلخيص أبي شامة ، ج ٢ : ٧٦ . راجع ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ : ٣٥٠ .

٣ - القوات الإضافية

اشتملت جيوش صلاح الدين ، بالإضافة إلى العساكر النظامية من رماة النبال الراكبين وحَمَلَة الرماح (الرمّاحة) ، على أعداد متغيرة من الجند الإضافيين : من راكبين وراجلين .

التركان : لقد استخدم نور الدين ، كما سبقت الإشارة إليه ، التركمان الإضافيين على نطاق واسع ، وتابع صلاح الدين هذه الممارسة . وهكذا ، قبل الهجوم النهائي على الحصن الواقع عند « محاضة الأحزان » (Jacob's Ford) في السنة ٥٧٥ هـ - ١١٧٩ م ، فإنه «سَيَّر إلى التركمان وقبائلها وإلى البلاد لجمع رجالها ألوفاً مصريّة تفرّقوا في جموعهم وحشودهم وتطلق لهم فوائسده وفودهم...» وأمر بتوزيع كميات كبيرة من الدقيق على التركمان ، وتزويدهم في سخاء بكل ما يحتاجونه من الضروريات (١١) . فالتركان من قبيلة الياروقي لعبوا ، في الواقع ، دوراً بارزاً في الحرب الصليبيّة الثالثة ، لأن وصولهم في لحظة حرجية وهجماتهم على خطوط تموين القوات الصليبيّة خلف القدس هو الذي أسهم إلى حد كبير في انسحاب ريتشارد (ريكاردوس) .

الأكراد : كانت هناك ، بالطبع ، أعداد كبيرة من الأكراذ الذين انخرطوا ، على غرار الأسرة الايوبيّة ذاتها ، كأعضاء في سلك العساكر النظامية ، وتسلّموا إقطاعات أو «جامكيّات» مثل الممالك الأتراك . فلم يكن ليعثر عليهم في قوات نور الدين النظاميّة فحسب ، بل وفي قوات غيره من الأمراء الزنكيين والأرتقيين

٦١ - عباد الدين - البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٣٩ ب . وخلال المجاعة في العام الأسبق ، ٥٧٣ هـ : ١١٧٨ م . كتب القاضي الفاضل إلى صلاح الدين ناصحاً بإياد بعدم استدعاء العساكر « وحشد جميع الكتائب واستدعاء أعداد الأجناد . وأحسب أن هذا القول يعني : « وحشد جنود الفرسان التركمان ، واستدعاء التعزيزات من القوات المحلية » .

أيضاً (١٢) . إلا أنه كان يوجد ، بجانب هؤلاء ، عددٌ وفير من الجنود الأكراد المغامرين والمرترقة ، وعلى الأخص ، وهذا ما يجوز افتراضه بحق ، في خدمة الأمراء الأيوبيين . إن وجودهم في مصر تشهد عليه مقاطعٌ عديدة (١٣) ، ويشير عماد الدين إلى رجال القبائل الأكراد في جيش نور الدين الأرتقي صاحب حصن كيفا (١٤) . وخلال حصار الموصل الثاني ، في العام ٥٨١ هـ - ١١٨٥ م ، قام صلاح الدين بإرسال سيف الدين المشطوب وغيره من أمرائه الأكراد إلى كردستان لاحتلال الحصون والقلاع هناك (١٥) ، ومن المفترض أيضاً ، للقيام بدور عملاء التجنيد من أجل عملياته المرتقبة في بلاد الشام . غير أن العداء الطويل الأمد والشامل الذي نشب بين الأكراد والتركمان في ديار بكر وما بين النهرين عند أواخر السنة نفسها (١٦) وضع حداً ، على وجه التأكيد تقريباً ، لأية آمال معقودة على تدبير جنود أكراد من هذه الأقاليم .

العرب : اشتملت القوات النظامية أيضاً على عدد من الخيالة العرب ، وأبرزهم في مصادرها بنو منقذ أصحاب شيزر (١٧) . ويرد ذكر القبائل البدوية في الشام ومصر تكراراً ، وإن لم يكن هذا الذكر إطنائياً دوماً فكما سبق

٦٢ - بهاء الدين (طبعة شولتنز) ٢٢٩ و ٢٣٠ .

٦٣ - انظر الحاشيتين رقم ١٦ و ٣٥ أعلاه .

٦٤ - البرق ، ج ٥ ، الورقة ١٤ أ : « ومن جنوده قبائل الكرد » ، ثم يضيف : « والأكراد اكدار الورد » ، مما يوحي بعدم انضباطهم . ومن المرجح أنهم استخرجوا بالطريقة نفسها التي استخرج بها رجال التركمان .

٦٥ - عماد الدين (في تلخيص أبي شامة ، ج ٢ : ٦٢) .

٦٦ - « غياث السوري » ترجمة شابر ، III ٤٠٠ - ٢ وبهاء الدين : ٦٣ وابن الأثير ،

ج ١١ : ٣٤٢ .

٦٧ - لعب إثنان من أبناء هذه الأسرة ، وهما شمس الدولة المبارك بن كامل وأخوه سلطان (كذا في مخطوطة البرق) دوراً بارزاً في صفوف الجنود الأيوبيين باليمن : أبو شامة ، ج ١ : ٢٦٠ و ج ٢ : ٢٥ - ٢٦ . انظر أيضاً الحاشية ٥١ أعلاه .

الحديث عنه ، كان رجال القبائل مُقطّعين على مناطق معينة من الشريعة والبحيرة ، وانخرط ١٣٠٠ رجل من بني جُذام في صفوف الجيش . لكن صلاح الدين أمر ، في العام ٥٧٧ هـ - ١١٨١ م ، بمصادرة أراضيهم في الشريعة . وأمرهم بالانتقال إلى البحيرة ، بسبب تهريبهم للمدمن للحبوب إلى الفرنجة (٦٨) . وبعد ثلاث سنوات تطلّب الأمر إرسال جيش إلى البحيرة لإخماد الاضطرابات بين رجال قبيلة بني جذام (٦٩) . أما رجال القبائل في جنوب فلسطين وشرقي الاردن فكانوا مصدر ازعاج دائم . وقام صلاح الدين بحملته على الكرك سنة ٥٦٨ هـ - ١١٧٣ م لتطهيرهم من المنطقة والحيلولة دون مساعدتهم للفرنجة بالعمل كادلاء لهم (٧٠) ، حتى أنهم نهبوا بقايا عسكره وامتنعهم (٧١) في اعقاب هزيمته عند تل الجزر (أرض الرملة) . إلا أن الفضل يُذكر لبسود الشام في أنهم زودوا صلاح الدين بقوات إضافية للإغارة على العدو ، وقد استخدمها بشكل فعال في عدّة مناسبات ، أبرزها عمليات سنة ٥٧٤ هـ - ١١٧٩ م . وكان «يسير قبائل العرب إلى بلد صيدا وبيروت حتى يحصلدغلات العدو ، وما يبرح مكانه (في بانياس) حتى يعودوا بحملهم وأحمالهم موثقة

٦٨ - المقرئزي ، السلوك ج ١ ، ٧١ . ويبدو من ملاحظة أخرى في المصدر نفسه ، ص ٧٤ أنه كان لهم أسطول للقرصنة في بحيرة المنزلة ، وقد حاول صلاح الدين القضاء عليه لكنه لم ينجح في ذلك .

٦٩ - المصدر نفسه ، ٨٧ .

٧٠ - عماد الدين (في تلخيص أبي شامة ، ج ١ ، ٢٠٦ . ويؤكد على ذلك غليوم السوري (XX. 28 (tr. ii, 390) . ورد في التعليمات الصادره إلى والي دمشق (البرق ، ج ٥ : الورقة ٤٧ ب) أمر يقول : « ومن يترك من العرب في بلد الفرنج قلة إنهاض السكر إليه وشن الغارة عليه حتى يتنظروا في سلك الطاعة رغبة ورهبة .

٧١ - غليوم السوري (XXi. 24 (tr. ii, 433) . وفي البرق (ج ٣ ، الورقة ٧٠ أ) يشهد عماد الدين أيضاً بملاحظة حادة أبدأها القاضي الفاضل ، حيث قال : « العرب كالخنظل كلما زيد سقياً بالماء الحلو أفرطت مراوة تمرته وغرت نفاوة خضرته » .

بأنقالها (٧٢) . وفي أثناء الحروب النهائية مع ريكاردوس على طريق القدس أسهم العرب بتقديمهم الخيالة وعساكر للإغارة» (٧٣) .

الأجناد : يجري استخدام هذه اللفظة في المصادر على معاني ثلاثة . فهي تستخدم بصيغة الجمع من «جندي» للدلالة على أي جنود ، ومنهم الفرسان في القوات النظامية . وتستخدم في صيغة اسم الجمع للدلالة على القوات العسكرية كلها في منطقة ما (وكل من هاتين الصيغتين في استخدامها قد جاءت بطبيعة الحال ملائمة لأسلوب النثر المسجع الذي اعتمده القاضي الفاضل و عماد الدين . غير أنه توجد هناك آثار لاستعمال أقدم وأكثر تخصيصاً في الدلالة على القوات المحلية أو قوات المليشيا ، التي تميّزت عن العساكر في أنها لم تكن من رماة النبال الراكبين ، بل قاتلت بالرمح والسيف (٧٤) . ومن المحتمل ، مع مجيء هذا الوقت ، أن تكون تنظيمات المليشيا القديمة في بلاد الشام قد أخذت في

٧٢ - عماد الدين (في تلخيص أبي شامة ، ج ٢ : ٨) (البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٢٤ أ) ، وراجع غلبوم الصوري ، المصدر السابق (xxi.28 ; tr. ii, 440, 441) . كان والي دمشق « يحكم في جميع قبائل العرب وعشائرهم ... وهو يتولاها ويحرمهم على معتادهم في رسمهم ومعيشتهم وعدادهم (في المخطوطة : وإعدادهم وجباية الرسوم المتأداة منهم) . راجع كاترير وبشان « أعداد » : ج ١ من « السلاطين المماليك » ، القسم الأول ، ص ١٨٩ ؛ البرق ، ج ٥ ، الورقة ٤٧ أ ب .

٧٣ - بهاء الدين ، ٧١٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ . وفي الفقرة الثانية يجري تمييزهم على نحو ذي مغزى بأنهم « عرب الإسلام » .

٧٤ - انظر ذيل تاريخ دمشق ، المقدمة ، ص ٣٦ - ٣٧ ، والحاشية رقم ٦١ أعلاه . ويستخدم المقرئ (السلوك ، ج ١ : ٦٩) اللفظة بهذا المعنى أيضاً في صيفته للفقرة الأولى المذكورة في هذه الحاشية : « كتب إلى التركمان وأجناد البلاد » ، حيث تحمل « أجناد » محل لفظه « راجل » التي يستعملها عماد الدين . وكذلك في رواية المحاولة الثانية لاغتيال صلاح الدين ، خلال حصار أرمراز عام ٥٧١ هـ : ١١٧٩ م ، فإن الحاشية تحفروا « في زي الأجناد (والكتائب ليس في موقع السجع هنا) أي أنهم تسلكوا بين صفوف الجنود الإنسانيين

الزوال ، نتيجة الاستخدام المتزايد للعساكر الأتراك ومن جراء قمع الإمارات المحلية (٧٥). وحل محلهم بصفة كونهم من الجنود الإضافيين في جيش صلاح الدين المتطوعون (المطوعة) الذين توافدوا من كل مكان للمشاركة في الجهاد. فمن النادر ان ترد إشارة خاصة لهم في روايات الأخبار ، لكن عماد الدين يستجّل حضورهم في المعارك عند «مخاضة الأحرار» في العام ٥٧٥ هـ - ١١٧٩ م ويقول بأن «بعض الغزاة المطوعة في الجهاد» كانوا هم الذين قاموا بإشعال النار في العشب اليابس يوم معركة حطين (٧٦) .

المشاة (الراجلون) : استنشت الحركة السريعة لحملات الخيالة استخدام جنود المشاة في المجرى العادي للقتال ، ولا يأتي ذكر هؤلاء في المصادر إلاّ مقروناً بعمليات الحصار ، سواء كمدافعين أو مهاجمين (٧٧) . ففي الحالة الأخيرة

(المقاتلة) الذين كانوا يديرون آلات الحصار (عماد الدين في تلخيص أبي شامة ، ج ١ : ٢٥٨ حاشية ٤ . ويقول ابن أبي طي ، المصدر نفسه ، ١ : ٢١ ، « جازوا بزي الأجناد ودخلوا بين المقاتلة ») . فمن غير المرجح جداً أنهم انتحلوا شخصية العساكر . وبطريقة ماثلة ، يوجد في رواية ابن أبي طي ، حملة قراقوش على برقة (تلخيص أبي شامة ، ج ١ : منتصف ص ٢٦٠) تتميز بين « أجناد » تقي الدين و « ماليكة » . فالأجناد هم على الأرجح من الأكراد والعرب .

٧٥ - حتى فترة متأخرة تعود إلى حصار عكا كانت تصحب الكنايب القادمة من حمص وشيزر « جموع من الأجناد والأعيان وحشود من العرب والتركمان » : عماد الدين ، الفتح ، ٢٤١ : ٢ - ٣ .

٧٦ - أبو شامة ، ج ٢ : ١١ (وفي كتاب البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٤٣ ب) : « الغزاة وصفحة ٧٦ : « يدو مطوية المجاهدين » .

٧٧ - كان مشاة (رجالة) حلب يشتهرون خاصة « كزارعي أنعام » (نقابين) . انظر الحاشية رقم ٦ أعلاه . واستخدم ريكاردوس « نقابين » من حلب في حصار الدارون : جاء الدين ٢٢٧ . وفي المنشور الذي اقتطع العادل على حلب عام ١١٨٣ (البرق ، ج ٥ ، الورقة ١٢٤ أ - ١٢٦ ب) ، طلب إليه تقديم عدد محدد من المشاة (الراجلين) ، وفي العام ١١٨٧ ، كان عسكر حلب مصحوبين في الواقع بجنود الحصار (الفتح ٧٥) . كما يأتي كتاب الفتح ٤١٣ ، على ذكر كتبية من الجسامين جاءت من الموصل .

يجري تصنيفهم كصُنَاع : أو تقنيين . وهناك ثلاث طوائف منهم يرد ذكرها ذكرها مراراً : «الحجّارين» : وهم الذين أشغلوا المنجنبيقات والعرادات . و «النقّابين» الذين تقبوا الحفر تحت الاسوار ، و «الحراسانية» ، الذين قاتلوا في «الدبابات» (٧٨) . وإلى جانب هؤلاء يرد ذكر «الحانديّة» (٧٩) ، الذين يملكو عليهم من دلالة القرينة ، أنهم كانوا من المولحين بعمليات الحصار .

٤ - الأعتدة والمؤن (٨٠)

كان الجيش النظامي . كما لاحظنا أعلاه ، منتظماً في أطلاب عيسدة (طُلبخانات) يتراوح عدد أفراد كل طُلب منها بين ٧٠ و ٢٠٠ رجل تحت قيادة أمير . وقبل الخروج في الحملة كان يجري توزيع الدروع والأسلحة المخزونة في «الزردخانه» على الجنود . ويُعطى لهم عطاء خاص لانفاقه في أمور الحملة . وأخذ معه كل أمير وجندي كميات من المؤن والعلف (العليق) ، إما كجزء من عطائه العيني من الحبوب أو مشتراة على حسابه الخاص . أما المؤن الإضافية فقد تمّ ابتياعها من التجار («السابلة») الذين مارسوا البيع والشراء عند قاعدة العمليات أو لحقوا بالحملة . ويحدثنا عماد الدين أنه عندما وصل الجيش إلى «السدير» إبان الحملة على الرملة سنة ٥٧٣ هـ - ١١٧٧ م ، نودي في المعسكر بأن على جميع الجنود ان يتزودوا بمؤونة تكفيهم لعشرة أيام أخرى

٧٨ - البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٤٢ أ : « جمع عليه الصناع النقاين والحجارين وجاء الحراسانية وراء الخفائي جارين وإثقالها جارين » . وهناك روايات أكثر شمولاً لعمليات الحصار في آمد (البرق ، ج ٥ ، الورقة ١٥٤ أ - ١٤٤ ب ، وفي صور (الفتح ، ج ٧٥) .

٧٩ - البرق ، ج ٢ ، الورقة ١٤٢ أ : « حضر الحانديّة والصناع » . وعلى نحو مماثل ، عندما قام صلاح الدين بمهاجمة طبريا قبل معركة حطين ، فإنه أرسل في طلب « الحانديّة والنقاين والحراسانية والحجارين » : عماد الدين في تلخيص أبي شامة ، ج ٢ : ٧٦ .

٨٠ - للإطلاع على وصف كامل للأسلحة للدروع ومدفعية الحصار زمن صلاح الدين ، انظر ما يلي : G. Cahen, « Un Traité d'armurerie composé pour Saladin ». in *Bull. d'Etudes Orientales*, T. XII (Beirut, 1948), pp. 108 - 163

«زيادة للاستظهار ولإعواز ذلك عند توسط ديار الكفتار» . ثم يتابع قائلاً : «فركبت إلى سوق العسكر للابتياح . وقد أخذ السعر في الارتفاع . فقلقت لغلامي : قد بدا لي ، وقد خطر الرجوع من الخطر ببالي . فأعرض للبيع أحمالي وأثقالتي ، وانتهاز فرصة هذا السعر العالي» (٨١) . وعندما كان صلاح الدين منهمكاً في حصاره الأول للموصل ، عام ٥٧٨ هـ - ١١٨٢ م . قام الجنود في سنجار بقطع السبيل «ومنعوا السابلة من جلب الميرة في الكثير والقليل» (٨٢) . ويحدثنا غلبوم الصوري في روايته لحصار الكرك الثاني . عام ٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م فيقول بأن «الذين قاموا بدور الطهارة والخبازين في جيش العدو . والذين زودوا السوق بكافة انواع السلع . . . تابعوا عملهم بحرية وسط تسهيلات من كسل الوجوه» (٨٣) .

خلال الحملة الفعلية لم يتمكن الفرسان من التحرك بعيداً عن «أثقالهم» . التي ما كانت تضم مبرتهم فحسب بل دروعهم ايضاً . فالدرع لم تلبس إلا متى كان هناك احتمال فوري لنشوب القتال . ومن هنا جاء العائق في أن يؤخذ العسكر على حين بغتة ، أي ما مؤداه بالفعل ان يُفاجأ وهو غسير مسلح (أعزل) (٨٤) . لقد جرى القيام من حين إلى آخر بحملات قصيرة و «جريدة»

٨١- أبو شامة ، ج ١ : ٢٧١ ، وهو مختصر عن البرق ، ج ٣ ، الورقة ٨ ب .

٨٢- البرق ، ج ٥ ، ٢٣ ب . تدعى قافلة العلف والمؤن في رسالة للقاضي الفاضل ب «أطالاب المسيرة» (ذكرها أبو شامة ، ج ٢ : ٢٨ - ٩) ، وقد كانت تسير تحت أمرة أحد الامراء من ذوي الرتب العالية . راجع ايضاً ابن جبير : (G.M.S., V) p. 299 .
٨٣- XXii. 30 (trans., ii, 503)

٨٤- في رسالة من رسائل القاضي الفاضل تعزى («كسرة») هزيمة صلاح الدين عند تل الخزر (الرملة) عام ١١٧٧ بصورة رئيسية إلى تشتت الجنود : «وخلو من الأسلحة التي احتاجت في لباسها إلى لحاق أثقالها» (البرق ، ج ٣ : ١٧) .

أي بدون أنقال، ولذا كانت بدون دروع واسلحة ثقيلة للفرسان . وتطلق
لفظة «جريدة» ذاتها على القوات الخفيفة أسلحتها في معسكرت الشتاء (٨٥).

* * *

٨٥- ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ٣٢٢ ، حاشية ٧ . من الامثلة على استخدامها بالمعنى
الأول : الحملة على بيروت في ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م (عماد الدين ، في تلخيص أبي شامة ،
ج ٢ : ٢٩ ، ج ١ : ٢٥ . الزحف على الكرك في سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م) (ابن الأثير
الكامل ، ج ١١ ، ٣٤٩) والترجمة الموجودة في Recueil, Hist. Or. I, 678 هي غير
صحيحة (قارن أيضاً مع معجم دوزي s.v. **Supplément aux dictionnaires arabes**)

الفصل السابع

مآربي صلاح الدين *

تتجه النزعة الحديثة لدى المدارس ، في جهودهم الرامية للنفاذ إلى ما وراء الظواهر الخارجية من تاريخ شخص ترتكز شهرته على بعض الانجازات العسكرية ، نحو القيام بتحليل لمركب الظروف التي اكتنفت أعمال ذلك الشخص ، مع الإيحاء الصريح أحياناً بأن الفرد هو صنعة الظروف وليس بالأحرى صانعها ، أو على نحو أكثر إنصافاً ، بأن إنجازات هذا الفرد يجب تفسيرها في ضوء التكيّف المنسجم من جانب عبقريته مع الظروف التي أحاطت بأعمال هذه العبقرية . ولا حاجة إلى الجدال في صحة هذا الأمر بوجه عام . لكن التاريخ ، ولا سيما تاريخ الشرق الأدنى ، يحفل بالملوك الفاتحين الذين لا يبدو أنهم مدبّرون لظروفهم بشيء سوى امتلاكهم لحيش قوي والضعف الذي كان عليه أخصامهم . فالسؤال الذي تطرحه حياة صلاح الدين العملية هو فيما إذا كان مجرد واحد من أولئك الفاتحين . أم ان سيرته قد انطوت على عناصر مناقبية مميزة ، مما أضفى بدوره صفة فريدة على انتصاره الأولي وصراعه اللاتحق مع الحملة الصليبية الثالثة . ولا يكفي انه حارب ضد الصليبيين في سبيل

Gibb, H.A.R., « The Achievement of Saladin », **Bulletin of** *
the John Rylands Library, 35, no. 1 (Manchester, 1952), pp. 44-60

نصرة الإسلام للإجابة بالإيجاب على الشق الثاني من السؤال . لا بل ربما كان هذا الأمر غير وثيق الصلة بالموضوع . ولنضع المسألة بصورة دقيقة ، فنتساءل : هل كان صلاح الدين واحداً من أولئك القادة العديدي الضمير . إنما مسن المحظوظين . الذين كان باعثهم المحرك لهم هو الطموح الشخصي وشهوة الفتح . وجلّ ما فعلوه أنهم استغلّوا الشعارات والعواطف الدينية لتحقيق مآربهم الخاصة ؟

فالمشكلة ، إذن . هي مشكلة تنطوي على إطلاق حكم في مسائل داخلية تتعلق بالشخصية والدوافع . ومن النادر حقاً أن نجد بتصريحنا في تاريخ القرون الوسطى مواداً موثقة بحيث يمكننا أن نستخلص منها نتائج إيجابية بشأن الدوافع التي حرّكت أعلام التاريخ البارزين . وإن تصمد هذه النتائج أمام النقد التاريخي الصارم . لذا يلزمنا . قبل الدخول في مجال البحث إطلاقاً . التأكيد من أن بعض مصادرها . على الأقل . هي من النوع الذي يتيح إمكانية التوصل إلى جواب . وفيما يتعلق بحياة صلاح الدين ومنجزاته ، نحن نمتلك : لحسن الحظ ، خمسة مصادر عربية معاصرة . منها ما هو كامل أو جزئي ، إلى جانب الإشارات العابرة التي وردت في كتابات الرحالة وغيرهم . ثمة مصدر واحد فقط . من بين هذه المصادر الخمسة ، لم تصلنا منه سوى الشذرات والنتف . هذا المصدر هو تاريخ ابن أبي طيء ، وبصفة كون مؤلفه شيعياً من حلب ، فالمرء يتوقع أن يحده معادياً لصلاح الدين (مثلما كان على عداء واضح لسلفه نور الدين) ، لكن الأقوال المقتبسة من أعماله في كتب غيره من المؤرخين تظهره على ميسل إطرأي بالأحرى نحو صلاح الدين .

والمصادر التاريخية الثلاثة الأخرى وضعها كلّها مؤلفون مشرقيون ، ليس بينهم واحد من الشاميين . وأشهر هؤلاء المؤلفين هو ابن الأثير المؤرخ الموصل ، وسليل أسرة إقطاعية كانت على صلات وثيقة بأمراء الموصل (الأتابكة) من آل

زنكي ، وقد وضع في تخليدهم كتابه المعروف بتاريخ اتابكة الموصل «التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية» . إن تصويره لصلاح الدين يعكس بشيء من الاعتدال عداء أنصار الزنكيين له في بداية الأمر ، ثم ما قبلوه به لاحقاً من إعجاب متكلف وولاء تشوبه الضغينة . وفيما عدا هذا الموقف السيكولوجي ، لا يشكّل كتاب ابن الأثير مصدراً مباشراً . لقد استقى كل رواياته المتعلقة بصلاح الدين ، أو معظمها تقريباً ، من مؤلفات عماد الدين الأصفهاني ، كاتب صلاح الدين ، وأعاد كتابتها بتحريف بعضها أحياناً أو بمزجها في أحيان أخرى بشيء من تصوّراته الخيالية (١) . إلاّ أنه من الجليّ ، بغض النظر عن موقفه الشخصي بأنه لا يمكن الاعتماد على جامع ومصنّف للأحداث التاريخية ، حتى ولو كان معاصراً ، في حلّ المسائل المتعلقة بالشخصية والدوافع الداخلية . فلو لم يتوفّر لدينا شيء باستثناء المصنّفات التاريخية لكلّ من ابن أبي طي وعابن الأثير ، لما توفرت لدينا أيّسة وسائل لاستكشاف الصفة الحقيقية لمجزات صلاح الدين .

وتضاهي هذين المصدرين من حيث الشهرة سيرة حياة صلاح الدين التي وضعها قاضي عسكره ، بهاء الدين بن شدّاد ، وهو من الموصل أيضاً . فقد أصبح بهاء الدين منذ سنة ١١٨٨ فصاعداً هو المؤتمن على أسرار صلاح الدين وصادقه الحميم . وتاريخه المكتوب بأسلوب سهل وصريح يصدّر لنا صلاح الدين في شخصيته كإنسان تصويراً يعجز عن بلوغه أيّ مصنّف عادي للتاريخ . ربما جاز لنا اعتبار بهاء الدين غير ممحّص للأخبار والروايات ، لكنّه لم يؤخذ بعبادة الأبطال . بل كان إعجابه بصلاح الدين هو إعجاب الصديق المستقيم

١ - انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب ، وحيث ترد الإشارة إلى دراسة المؤلف «المصادر العربية عن حياة صلاح الدين» ، والمنشورة أصلاً في مجلة *Speculum*, XXV, no. i, pp. 58 - 72 (Cambridge, Mass., 1950).

والتزييه الذي لا يُكْتَم عنه شيء . وما لا ريب فيه أنه لم يتعمد إخفاء الحقيقة أو تحريفها في روايته لأخبار السنوات الخمس الأخيرة من حياة صلاح الدين . ومن الأمور النادرة حقاً ، أن يتوفر وجود مثل هذا المصدر عن تاريخ أي أمير من أمراء القرون الوسطى . بيد أن الصورة التي يقدمها لنا ابن شداد هي صورة صلاح الدين في ذروة نجاحه وفي غمرة الصراع المستميت ضد الحملة الصليبية الثالثة . ولذا فإن سيرة صلاح الدين لابن شداد تزودنا بالسير من الأدلة المباشرة على الكفاح الطويل الشاق الذي خاضه صلاح الدين لكي يشيد صرح سلطانه . ومن حسن الحظ الذي لا يُصدّق إزاء هذه الظروف ، أن يكون مصدرنا الرابع على درجة مماثلة تقريباً من الجدارة بالاعتماد والقبول ومن معاينة الأحداث عن كثب ، فهو يتناول (في نصّه الأصلي أو في مختصرات يمكن التعويل عليها) مجمل حياة صلاح الدين العملية . هذا المصدر هو مؤلفات الكاتب عماد الدين الأصفهاني . فقد انتمى عماد الدين إلى تلك الطبقة الجديدة نسبياً من موظفي الخدمة المدنية الذين تدربوا في المدارس ، ودخل أول الأمر في خدمة السلاطين السلاجقة والخلفاء في بغداد ، ثم ارتفع إلى رتبة عالية بدمشق في خدمة نور الدين ، وأصبح أخيراً كاتب صلاح الدين الشخصي في سنة ١١٧٥ . لقد وضع عماد الدين ، بالإضافة إلى المجلد الذي دوّن فيه تاريخ الحملات بين عامسي ١١٨٧ - ١١٨٨ وأخبار الحملة الصليبية الثالثة (٢) ، مؤلفاً كبيراً يقع في سبع مجلدات بعنوان «البرق الشامي» ، وتناول فيه تلك الفترة من حياته العملية في خدمة نور الدين وصلاح الدين عسلى التوالي . ولم يصل إلينا من هذا المؤلف سوى مجلدين بالأصل ، لكن أبا شامة الدمشقي (توفي ١٢٦٧) لخص الكتاب كله بعناية وافية .

Conquête de la Syrie et de la Palestine, ed. Carlo de Land - ٢
berg (Leyden, 1888).

ولم يستخدم مؤرخو الحروب الصليبية هذا النص إلا لما حتى الآن

كان عماد الدين واحداً من أشهر كتّاب عصره ، وقد اعتمد في تأليف كتبه أسلوب النثر المسجّع على ترميق وزخرفة ، وهو الأسلوب الذي اعتنت به طائفة الكتّاب . على أن رواياته الواقعية للأحداث ، رغم كلّ اهتمامه في إظهار براعته اللفظية ، تأتي وافية على الدوام وحافلة بالدقّة والصراحة . فلا تلوح عليه أية دلائل بأنّه يحرف الوقائع ، سواء كان التحريف لتغطية ضعفه أو لستر ضعف الآخرين أو من أجل التقيّد بمسئزمات السجع ، ولا بأنّه يفرق في المديح ، لكنّه في كتاباته ينتقد أفعال الرجل وأحكامه أحياناً ، ويبدو حقاً أنّه قد انتقد صلاح الدين بحضوره الشخصي . كان على أطيب ما تكون الصلات مع رئيسه الرسمي في الديوان الصلاحي ، القاضي الفاضل ، ومن الواضح أنّه شديد الإحساس بمؤهلاته وبالأمانة الملقاة على عاتقه ، فابتعد عن الزلفى ولم يلجأ إلى كتمان الحقيقة . ويحوز لنا القول إن كتابه «البرق الشامي» هو تقريباً سيرة ذاتية للمؤلف بقدر ما هو تاريخ لصلاح الدين . ونتجلى أهمية هذا الكتاب في أنّه يقدم لنا صلاح الدين من زاوية رجل إداري مدرب ، وعلى صلة وثيقة ويومية بالرجل ، وإن كانت تقلّ حميمية عن علاقة بهاء الدين به .

أما المصدر الخامس بين مصادرنا ، فإنه من بعض الوجوه أكبرها قيمة . وهو يتضمّن المكاتبات والرسائل التي أنشأها كاتب الديوان الصلاحي ومشير صلاح الدين الذي تبوّأ المنزلة العليا من موضع ثقته ، القاضي الفاضل الفلسطيني . ولقد وصلتنا بعض آثار القاضي الفاضل كاملةً أو بصورة مقتبسات في مؤلفات عماد الدين وإني شامة ، وفي مجموعات مختلفة من الوثائق . ويمكن للمرء ان يحسّ بالمودة الحميمة التي سادت علاقات الرجلين من خلال الرسائل المخلصة والودية التي وجهها القاضي الفاضل إلى صلاح الدين ، ولا سيّما في أثناء الحرب الصليبية الثالثة ، على سبيل شدّة أزره في الملمات أو لتقديم النصيح والملامة في بعض المناسبات . وإذا كان على المؤرّخ التزام كل ما يقتضيه الأمر من الحذر في معالجة الرسائل الديوانية العامة التي أرسلها القاضي الفاضل بالأصالة

عن صلاح الدين إلى الخلفاء وغيرهم من الرؤساء ، فإن المثانة التي يعبر بها القاضي الفاضل عن بعض الأفكار والموضوعات في تلك الرسائل يجب اعتبارها بأنها تعكس شيئاً ، على الأقل ، من أهداف صلاح الدين ومثله الحقيقية .

تقوم شهرة صلاح الدين . كما أسلفنا القول ، على إنجازاته العسكري الذي تبدى في معركة حطين سنة ١١٨٧ وفي استيلائه على القدس مجدداً بعد ذلك . وعليه ، فإن كتاب التاريخ ، المسلمين منهم والمسيحيين ، يعتبرونه في المقام الأول قائداً ، وفي المقام الثاني مؤسساً لأسرة حاكمة . إنه لمن الطبيعي ان تكون النظرة الأولى هي نظرة المصادر الغربية عن الحملة الصليبية الثالثة ، وبما يشجعها في هذا الموقف تصوير ابن الأثير لصلاح الدين بمثابة رجل استخدم مواهبه العسكرية لإشباع مطامح أسرته الحاكمة وبناء امبراطورية شاسعة الأطراف .

ومن هذه الزاوية ذاتها تجري مقارنته أو مقابلته مع سلفه نور الدين . غير اننا ، لسوء الحظ ، لا نملك عن شخصية نور الدين شيئاً من المواد يضاهي ما نملكه منها لدراسة صلاح الدين ، حتى نتمكن من تقدير شخصية السلف . وذلك لأن جميع المذونات الإسلامية المعاصرة (باستثناء النوادر العابرة) هي مصنقات تاريخية تعكس في نغمتها الإطرائية السائدة موقف الأوساط السنية من خدمات نور الدين ، ليس في تنظيم الدفاع عن بلاد الشام ضد الصليبيين فحسب ، بل وفي (وربما فاقت الخدمات الأولى) نشر مذهب السنة أيضاً بما أسسه الرجل من معاهد دينية (كالحوامع والمدارس ومحاريب الصلاة والرباطات الصوفية) (٢) وما حبسه عليها من أوقاف ، وبما فعله لقمع الشيعة والتشيع . حتى أن مصنقات التاريخ المتأخرة ، باستثناء المقتطفات التي وصلتنا من مؤلفات

٢ - انظر N. Elisséeff, « Le Monuments de Nur ad-Din » in **Bulletin d'Etudes Orientales**, t. xiii (Damascus, 1951), pp. 5 - 43

الكاتب الشيعي الحلبي ابن أبي طيء ، تفوقها في الثناء على نور الدين . لكن عندما تتفق أحكام مؤلف مسيحي مثل غليوم الصوري مع موقف أهل السنة ، يمكننا ان نكون على يقين بان تلك المؤلفات تعكس صورة أمينة لحياة نور الدين العامة . وهو افتراض لا مسوغ له ، إزاء ما بطلنا من شواهد ، ان نعتبر هذه الإجراءات بقدر ما تحققت عن طريقها مصالح نور الدين السياسية ، لم يكن الباعث عليها تعلق نور الدين الذاتي المخلص بما فيها من أهداف ومثل عليا .

الآن أنه توجد هناك بعض الفروق الأساسية بين الظروف التي قام فيها كل من نور الدين وصلاح الدين بتنفيذ مهمته . فقد عمل نور الدين «من داخل» بنية السياسة في عصره . ومنذ تفكك السلطنة السلجوقية عند نهاية القرن الحادي عشر ، تمّ اقتسام آسيا الغربية بين عدد من الأسر الحاكمة المحلية ، وهي أسر أسسها جميعاً (باستثناء بضع إمارات نائية) قادة من الأتراك أو زعماء من التركمان ، وتميّزت كلها بمظهرين مشتركين . كان المظهر الأول هو روح المنفعة الشخصية والتوسع الفردي ، وهي الروح التي حدثت أفعال تلك الأسر وعلاقاتها السياسية . ويكاد يكون من المتعذر علينا — كما يبدو — ان نكتشف في العلاقات بين الأمراء الأتراك أو بين زعماء التركمان الواحد منهم مع الآخر — حتى عندما كان المتنازعان من أبناء الأسرة الواحدة — أي احساس بالولاء أو أي ضبط للنفس في استغلال الواحد منهم لضعف الآخر ، ناهيك بذلك التضامن الذي تجلّى ، مثلاً ، لدى الإخوة البويهيّين في بلاد فارس خلال القرن العاشر . فلا توجد نهاية لقصص المؤامرات والثورات والمحالقات السريعة الزوال وضروب الخيانة والغدر المتعمد والخلع عن العروش . وفي هذا المناخ العام من الانهيار الخلقي السياسي تعذر حتى على أشد الأمراء صلابة وأكثرهم تجرداً — من المبادئ الخلقيّة — سواء كانوا ينتمون إلى آل زنكسي أو تكش — ان يبقى ثابت القدمين .

أما المظهر الثاني فهو التركيب الذي تألفت منه قواتهم العسكرية . لقد كان

الأساس الذي استندت إليه قوة كل أمير من الأمراء هو فرقة دائمة من الحرس أو عسكر من المماليك الأتراك ، وثالثت الفرقة أو العسكر من عبيد أترك ثم شراؤهم في سنوات صباهم وجرى تدريبهم كفرسان محترفين ، ثم أعتقوا في حينه وأُعيلوا بمنحهم إقطاعات عسكرية ، فاستقوا من هذه الإقطاعات عائلاتهم النقدية والعينية . وألقي عبء القيام بالحروب المتواصلة بين الإمارات والدويلات على عاتق هؤلاء الجنود المحترفين الذين منحوا ولاءهم الشخصي الشديد لقائدهم المباشر ، ولذا كانوا يسرون في ركاب تمرده أو يبدلون ولاءهم كلما بدّل القائد ولاءه غير عابئين كثيراً بمصالح أميرهم . ولما كانوا من البلوش المحترفة ، فقد جاءت نفقاتهم باهظة ، وكانت أعدادهم بالتالي صغيرة . ومن أحد الأسباب القابعة وراء جهود الأمراء المتواصلة للاستيلاء على أراضي جيرانهم ، كان تطلّحهم على وجه الضبط للحصول على وسيلة يزيدون بها حجم قواتهم . علاوة على ذلك ، فإن تلك القوات لم تكن تستطيع المضي في حملاتها الحربية أطول من فترة معينة في كل مرة ، وهي إذا استطاعت ذلك لم تكن راغبة فيه . فمن جهة ، لم يكن الأمير قادراً على تحمّل نسبة عالية من التبدد في النفقات ، ومن جهة أخرى ، كان الشغل الشاغل للعساكر انفسهم هو العودة إلى إقطاعاتهم للتمتّع بعوائدها فور انتهاء مدّتهم في خدمة الحملة (وتسمّى هذه المدّة «البكار» في المصادر العربية) (١) . أما عساكر التركان ، فإنهم اختلفوا قليلاً عن الآخرين رغم كونهم من العساكر البدوية غير النظامية . لقد كانوا هم أيضاً يخرجون في الحملة لفترة محدودة من الزمن فحسب ، لكن هذه الفترة

٤ - إن هذا الاجراء لم يخله الاعتبارات الشخصية وحدها ، بل أملت أسباب اقتصادية سليمة . فقد كان كل عساكر القوات النظامية « ان يحولوا انفسهم وتابعيهم خلال الحرب بالميرة والمطوعة من مالهم فاذا طالت الحرب كلفتهم مصروفاً كبيراً بل وتحملوا الدين (راجع عباد الدين في تلخيص ابي شامة ج ١ : ٢٧١ والفتح : ٣٩٢-٣ ، ونبأ الدين (طبعة شولتر) : ٢٠٠ ، ٢٢١ .

امتدت بهم طالما أنهم كانوا قادرين على العيش من السلب أو ما داموا يثقلون المال والمؤن مقابل خدماتهم (٥) .

كان نور الدين ابن عسكري تركي محترف ، ولذا فإنه لم يفهم هذا النظام فحسب ، بل كان هو نفسه يؤلف جزءاً منه ، ولو افترضنا أنه كان يهدف إلى خلق سلطة عسكرية مركزية لها من القوة ما يكفي لمعالجة أمر الصليبيين ، وليس بالأحرى إلى تعظيم شأنه هو شخصياً ، فإننا نجد مع هذا أن أعماله العسكرية والسياسية جاءت منسجمة كل الانسجام تقريباً مع النهج المتبع في ذلك العصر (حتى وإن كانت أعماله قد جاءت على مستوى أخلاقي أرفع) . ثم نجد من جهة أخرى بأن منافسيه وتابعيه قبلوا به كممثل طبيعي للنظام السائد حينذاك ، بفضل صلاته العائلية ، واحترموه بسبب النجاح الذي أحرزه في تشغيل ذلك النظام ، بصفة كونه رجلاً دبلوماسياً وقائداً للجيوش على السواء . حتى أن حملته في سبيل ما تجوز لنا تسميته «إعادة التسليح الخلفي» ، وذلك بمنح الزعماء والإحيائيين الدينيين كل تأييد من جانبه ، لم تكن الحملة الأولى من نوعها ابداً . والحق يقال إن نور الدين أقام سياسته الخاصة على أساس ما كان قد تم تحقيقه بهذه الطريقة في امبراطورية السلاجقة ونسج على منواله . وجلّ ما يمكن أن يُعزى له هو أنه كان أكثر نزاهة وأعمق إخلاصاً من بعض أسلافه في تبيينه لتلك السياسة ذاتها .

وقصارى القول ، فقد أظهر نور الدين ، بصفة كونه قائداً وإدارياً على السواء ، بصيرة ومقدرة ارتفعتا عن المستوى المألوف في زمانه ، إنما دون أن يتعارض ذلك مع النظام القائم . وليس هناك من أدنى ريب في أنه لو طالت حياته أكثر ، وجرى رأب الصدع المؤقت بينه وبين صلاح الدين ، لكان الهجوم

٥ - انظر ابن الأثير (طبعة تورنبرغ) ، ج ١٠ : ٤٠٠ وصاد الدين ، البرق ، ٣ ، الورقة ١٣٩ ب .

المضاد على الصليبيين قد جاء على نحوٍ أسرع وأشدّ عنفاً في اندفاعه مما جاء عليه في واقع الأمر . إن حقيقة هذا الحفاء بينه وبين صلاح الدين لا يمكن إنكارها ، لكن اسباب ذلك تتضح بصورة كافية لكل من يقوم بدراسة المصادر دون الوقوع تحت تأثير التحامل الذي تحدّثه تفسيرات ابن الأثير الخبيثة . ولم يكن فتح مصر يعني لدى نور الدين سوى زيادة مباشرة وجسهرية في الموارد العسكرية والمالية من أجل مواصلة الحرب في بلاد الشام . أما صلاح الدين فقد شعر ، إزاء مواجهته لوضع خطير في مصر ، بأن مسؤوليته الأولى هي تعزيز القوات المحلية لكي تقوم بحماية مصر ضد خطر التواطؤ بين العناصر المؤيدة للفاطميين في الداخل وهجمات الفرنجة من الخارج . وكان محتملاً ، عقب فشل الحملة الصليبية على الاسكندرية سنة ١١٧٤ م ، أن يستقرّ الوضع العام في مصر إلى درجة تكفي لإعادة التفاهم التام بين نور الدين وصلاح الدين ، لكن نور الدين كان قد توفي حتى قبل وصول الحملة .

كانت النتيجة القوية لوفاة نور الدين أن السلطة العسكرية المركزية التي رفع صرحها تهاوت إلى أجزاء مبعثرة ، بمقتضى السير العادي للنظام العسكري السياسي . فاستولى أقاربه في الموصل على ولايات الجزيرة ، وانشقت قواته الشامية تحت وطأة المنافسات بين القواد المحيطين بابنه القاصر ، الملك الصالح . وكان لا بدّ من الشروع في تنفيذ المهمة كلها من جديد ، وعلى أساس مختلف كل الاختلاف . وبما انه لم يكن ثمة أمل هناك في العثور على خلف شرعي لنور الدين بين أبناء البيت الزنكي ، فإن كل محاولة لأحياء البنيان الذي أوجده نور الدين ، من أية ناحية جاءت ، لا بدّ لها من البدء في التصدي للإمارات الزنكية القائمة . وإذا كان لزعيم تلك المحاولة ، شرط كونه من الطراز المطلوب ، أن يأمل في نهاية الأمر بكسب تأييد حركة «إعادة التسليح الخلفي» ، فمن المؤكد انه كان سيواجه معارضة من ممثلي تلك الحركة في المرحلة الابتدائية ، بدافع شعورهم بالإخلاص للذكرى نور الدين .

وعليه ، ما دامت هذه الظروف والملابسات قد جعلت المهمة في إعادة إنشاء سلطة عسكرية مركزية ببلاد الشام مهمة مختلفة عن المهمة التي واجهت نور الدين وأصبح منها في بعض الوجوه ، فلا بد أن تختلف أساليب وصفات الرجل الذي يقوم بأعباء تلك المهمة عن أساليب نور الدين وصفاته . كان جائزاً ألاّ تتحقق المهمة على الإطلاق . ولكن إذا لم يكن بدّ من إنجازها ، فلم يوجد هناك ، بقدر ما نستطيع ان نحكم على ذلك ، إلاّ اعتماد واحد من اسلوبيين : الأسلوب الأول كان يشير إلى استيعاب البنيان الزنكي كلّه في امبراطورية عسكرية قوية من الخارج (كأن نقول مثلاً) : سلطنة سلجوقية موسّعة في بلاد الأناضول ، أو امبراطورية جديدة في الشرق . فكلاهما كان أمراً ممكناً في ذلك الحين) . والأسلوب الثاني كان في البناء على أسس الوحدة الأخلاقية التي أرساها نور الدين ، وتقوية تلك الأسس إلى درجة بالغة بحيث تؤدي إلى إرغام البنيان الزنكي على العمل في خدمة أهداف تلك الوحدة . كانت طريق صلاح الدين ، من زاوية المظاهر الخارجية المحضة ، هو اعتماد الأسلوب الأول . ويعود سرّ نجاحه في الواقع إلى انه كان قد تبنّى الاسلوب الثاني وقام على تنفيذه . وتطلّب هذا الأمر ، على وجه اليقين ، بناء امبراطورية شاسعة الأطراف تمتد من كردستان وديار بكر إلى بلاد النوبة واليمن . لأن من أراد بلوغ مثل هذه الغاية كان عليه ان يوجد الوسائل لها ، ولم تكن الظروف التي اكتنفت مهمته وزمانه لتتطلّب شيئاً أقلّ من هذا . لكن مكانة صلاح الدين ومناقبه الشخصية ، والروح التي تصدّى بها لمهمته ، والأساليب التي استخدمها كانت تختلف كل الاختلاف عما امتلكه مؤسسو الامبراطوريات العسكرية العظمى ، وعما أظهره من مكانة ومناقب وأساليب .

ولنبداً في القول أولاً ، بان صلاح الدين لم يكن تركياً بل كردياً . فإذا كان الاتراك قد احتقروا جميع الأجناس الإسلامية الأخرى ، بسبب ذلك الشعور بالاستعلاء الذي غرسه في نفوسهم تقاليدهم العسكرية وبسبب احتكار امرائهم

احتكاراً يكاد يكون كاملاً للسلطة السياسية في المشرق الإسلامي ، فإن اتراك الموصل وشمالى بلاد الشام نظروا نظرة احتقار شديد إلى جيرانهم الأكراد (٦) . ولما زحفت عساكر الموصل ضد صلاح الدين للمرة الأولى سنة ١١٧٥ م ، فلم يهتم أهانوه وهزأوا به ودعوه ؛ « كلب يعوي على سيده » (٧) . ثم بعد سبعة عشر عاماً ، يروى عن أحد العرفاء في جيش الموصل انه لما رأى صلاح الدين يلقي مساعدة في ركوب حصانه أثناء الدفاع عن القدس ، قال ما يلي : « ما تبالي يا يا ابن أيوب أي موة تموت يركبك ملك سلجوقي وابن اتابك زنكي ! » (٨) فالفارق في اللهجة بين المذمتين قد يمثل على نحو كاف تماماً مدى وحدود التغيير في الموقف منه بين صفوف الذين كانوا أشد وعياً لعنصرهم والذين أظهروا مقاومة أشد للمثل العليا التي كافح من أجلها .

ثانياً ، مع ان صلاح الدين ووالده وعمه وإخوته كانوا جميعاً منخرطين في سلك قوات نور الدين الإقطاعية ، فهو لم يكن من المبرزين كفأزة عسكري أو بمثابة مخطط استراتيجي على الاطلاق . وقد يبدو هذا الأمر على تناقض ظاهري في حال الرجل الذي خرج منتصراً من حطّين . لكن صلاح الدين كان تكتيكياً جيداً . وبواسطة الحركات التكتيكية البارة أحرز انتصاره في حطّين ، مثلما انتصر مرتين في السابق على جيوش الموصل ، فكانت هذه الانتصارات الثلاثة هي معاركه الوحيدة في ميدان المعركة . وأروع عملياته العسكرية كان استيلاؤه على قلعة آمد (ديار بكر) التي اشتهرت بمناعة حصونها ، في سنة ١١٨٣ م ، وبعد حصار استغرق ثلاثة أسابيع فقط ، وهو حدث أغفلته كتب

٦ - يتجلى هذا بصورة حية وإسهاب نموذجي حتى عند عماد الدين الذي يخصص أكثر من صفحة للحط من قدر المناقب غير العسكرية التي كان يتحل بها الأكراد في الجيوش الارتقية ، مقابل فضائل عسكر صلاح الدين واتزانهم : « لبرق » ج ٥ ، الورقة ٥٧ ب وما بعدها .

٧ - هذا إذا صدقنا ما يقوله تهايل الشامي ، تحرير وترجمة شاو ، ٣ : ٣٦٥ .

٨ - ابن الأثير ، ج ١٢ : ٥٠ .

التاريخ الغربية بوجه عام . ومما يسترعي الانتباه تكرّر المناسبات التي أعرب فيها أمراء جيوشه عن عدم ثقتهم في قيادته ، أيس بدون مبرر دائماً ، حتى وإن كانت معارضتهم لتكتيكه وخططه الحربيّة قد أضاعت عليهم فرصاً سانحة للغاية أحياناً خلال الحرب الصليبيّة الثالثة .

ولا كان صلاح الدين إدارياً بارعاً . فالبادي عليه انه لم يسلِ اهتمامه الشخصي للتفاصيل الإداريّة إلاّ قليلاً ودون أن يتعدّى ذلك محاولة القضاء على المفساد . وقد استند في إدارة الأماكن التابعة له ألبما استناد إلى أخيه العادل سيف الدين ورئيس ديوانه القاضي الفاضل . أما إدارة الولايات فقد عهد بها كلياً إلى الولاة واشترط عليهم أمرين : ان يتبعوا قدوته في القضاء على المفساد ، وان يمدّوه بالعساكر (وبالمال إذا دعت الحاجة) من أجل الجهاد ، عندما يطلب إليهم ذلك .

إن الشهادات المستقلّة والمتفقّة التي تمدّنا بها وثائق ثلاث وصلتنا من أقرب المقربين إليه ، وهم القاضي الفاضل وعصام الدين وبهاء الدين ، تزوّدنا بتفسير حقيقي للنجاح الذي أحرزه . فهو بالذات لم يكن محارباً ولا حاكماً بفضل التدريب أو الميل ، لكنّه هو نفسه الذي ألهم جميع العناصر والقوى التي استهدفت وحدة الإسلام في وجه الغزاة وقام بجمعها حوله . ولم يحقّق هذا الأمر عن طريق القدوة التي تجلّت في شجاعته وعزمه الدائنين — وهما من سجاياه التي لا سبيل إلى نكرانها — بقدر ما حققه من خلال نكرانه للذات وتواضعه وكرمه ، ودفاعه المعنوي عن الإسلام ضد أعدائه وضدّ من ينتمون إليه في الظاهر فحسب ، على حد سواء . ولم يكن صلاح الدين رجلاً ساذجاً ، لكنّه ، مع ذلك ، كان غاية في البساطة ورجلاً نزيهاً للدرجة الشفافيّة . لقد أوقع أعداءه ، الداخليين والخارجيين ، في حيرة من أمره ، لأنهم توقعوا ان يجدوا الخوافز التي تحرّكه على غرار خوافزهم ، وتوسّموا فيه ان يمارس اللعبة السياسيّة على طريقتهم

هم . كان يرثى كل البراعة ، فلم يكن يتوقع ابداً ان يفهم المكر عند الآخرين .
وقلما فهمه — وهذا ضعف استغلّه في بعض الأحيان أفراد أسرته وغيرهم ،
لا لشيء (كفائدة عامة) إلا لكي يصطلحوا في نهاية الأمر بصخرة إخلاصه
الموطة العزم على خدمة مثله العليا ، وهو إخلاص لم يتهياً لأحد من الناس أو
لشيء من الأشياء أن يزعه من مكانه .

وفي رأيي ، إن الطبيعة الحقيقية لتلك المثل العليا لم تحط حتى اليوم بفهم
وتقدير من جانب الدارسين . فالمهمة العاجلة التي وجد نفسه مدعواً لحمل عبثها
كانت في طرد الفرنجة من فلسطين وبلاد الشام . هذا هو الجانب الذي أدركه
معاصروه ، وافترضت الأجيال اللاحقة بأنه كان كل غرضه . ومن الطبيعي ،
حين يقوم أحد الناس بإنجاز عمل عظيم ، ان نحسب ذلك بمثابة الهدف السني
وضعه نصب عينيه . فالواقع ان ما ينجزه الإنسان من أعمال ليس في غالب
الأحيان سوى جزء مما عقد العزم على إنجازه في البداية . ولعله لم ينجح في تحقيق
ما يخططه إلا لأنه وضع نصب عينيه هدفاً أبعد من أن ينجزه بكثير .

يصدق هذا ، في رأيي ، على صلاح الدين بصورة بارزة . فسلن مخطّطه
الأوسع لم يكن إلا مخطّط رجل يتصف بطموح لا يعرف حدوداً أو ببساطة
غير محدودة . ولقد اتصف صلاح الدين ، من أحد الوجوه ، بهذين الأمرين ،
لكن طموحه نشأ عن بساطة خلقه وسداد نظره . فقد رأى بوضوح ان ضعف
الجسم السياسي الإسلامي ، وهو الضعف الذي أفصح المجال لقيام الدويلات
الصليبية واستمر في إفساحه أمام بقائها ، كان نتيجة للانحطاط في الخلق السياسي .
وعلى هذا الانحطاط ثار صلاح الدين . فلم تكن هناك سوى طريقة واحدة لوضع
حدّ له : وهي إعادة الكيان السياسي الإسلامي إلى سابق عهده وإحياء هذا
الكيان في ظلّ امبراطورية واحدة موحّدة ، ليس تحت حكمه هو ، وإنما
بعودة الحكم إلى كنف الشريعة تحت إشراف الخلافة العباسية . فالنظرية القائلة
بأن الخليفة يولي الولاية على الأقاليم بمنشور صادر عنه ، رأى فيها الأمراء الآخرون

حينذاك زيفاً ملائماً لغرضهم ، أما صلاح الدين فقد اعتبرها حقيقة إيجابيّة وضرورية . واعتبر نفسه مجرد قائد لجيوش العباسيين ومساعد للقائد ، مثلما انه أصبح لفترة وجيزة في السابق وزيراً للخلفاء الفاطميين وقائداً لجيوشهم . أما انه دُعي «سلطاناً» فهذا كان مجرد لقب ورثه حين عمل وزيراً للفاطميين ، ولا علاقة لهذا اللقب بنظرية السلطنة السلجوقيّة أو بادعاءاتها ، مثلما انه لم يظهر أبداً في عهده أو على مسكوكاته النقديّة . ويروي عماد الدين حادثة وقعت خلال حصار عكا ، وهذه الحادثة دلالة خاصّة لأنها إحدى المناسبات التي يوجّه فيها العماد الكاتب لوماً إلى صلاح الدين على بساطته (٩) . فقد وافق صلاح الدين ، بناء على طلب رسول من دار الخلافة ، ان يحوّل منطقة شهرزور في كردستان إلى ملكيّة الخليفة . وعندما رأى علائم الغضب والحنق على وجوه امرائه بسبب قرار موافقته هذا ، أجاب قائلاً : «السلطان الخليفة ملك الخليفة ، وهو مالك الحق والحقيقة ، فإن وصل إلينا أعطيناه هذه البلاد فكيف شهرزور؟»

بيد ان الحجّة لا تستند إلى حادثة عابرة من هذا النوع ، مهما يكن مبلغها من الصديق . فالهدف الذي نتحدث عنه يؤلف الموضوع الصريح لكثير من رسائله إلى بغداد . وقد قال في إحدى الرسائل : «وهذه المقاصد الثلاثة : الجهاد في سبيل الله ، والكفّ عن مظالم عباد الله ، والطاعة لخليفة الله ، هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها ومغتمه من الدين إذا منها والله العالم ... (انه) لا يريد إلاّ هذه الأمور التي قد توسم انها تلزم ولا يتوي إلاّ هذه النية» (١٠) . كما يتبدّى هذا مرّة أخرى في اندهاله لعجز الخليفة ورجاله ببغداد عن فهم دوافعه وعن مدّة بالدعم المعنوي على الأقلّ . فجاء في رسالة ثانية : «ولا فليُنظر هل يشقّ على الكفار مزيد أحد سواه من ولاية الإسلام؟» (١١) . ويبدو هذا الهدف

٩ - الفتح القسي (طبعة لا ندبرغ) : ٢١٨ - ٢١٩ .

١٠ - عن أبي شامة ، ج ٢ : ٤٨ ، عقب احتلال آمد .

١١ - عن أبي شامة ، ج ٢ : ٤١ ، بعد فتح آمد .

في التدقيق الذي يتوسّل به الخليفة لكي يمنحه « منشور الولاية » على البلدان الجديدة قبل أن يمارس أعماله فيها ، كما يبدو في احتجاجاته على ادعاءات آل زنكي بأن الجزيرة لهم « إرثاً » لعدم وجود تقليد بالولاية ، وفي استنكاره لاستيلاء الزنكيين على حلب (١٢) . وأخيراً ، يبدو هذا الهدف في عزوه الاستيلاء على آمد بسرعة إلى نفوذ الخليفة وسلطته (١٣) ، مثلما يبدو في رسالته الصريحة إلى كلج ارسلان سلطان الأناضول عام ١١٧٨ م ، إذ يقول فيها : « وهيهات أن نترك المسلمين يقصد بعضهم بعضاً أو نرى أحداً منهم إلاّ في سبيل الله ودّاً أو بغضاً . . . وقد توفر اجتهدنا على أن نستميل كلا إلى الجهاد ونجمع شملهم على الاتفاق والاتحاد » (١٤) .

وخضعت مثاليته ، في الوقت ذاته ، لنير حس عمليّ قوي . فالوضوح الذي كان يقدر به كل خطوة من خطواته صوب غايته وكلّ حالة لدى نشوئها ، هذا الوضوح بمدّنا بفتح السّرّ لتوسّع سلطانه المستمرّ . ولما كان يعرف أن المشكلة التي واجهها لم تكن سياسية فحسب ، بل هي أيضاً ، وإلى حدّ اكبر ، مشكلة أخلاقية ونفسية ، وأن التصديّ لها على مجرد المستوى السياسي والعسكري من شأنه أن يؤدي إلى الإخفاق في حلّها ، فقد أدرك صلاح الدين أنه إذا شاء الحصول على نتائج فعّالة ، فمن الجوهري أن يعزّز الولاء السياسي بحوافس وروادع أخلاقية ونفسية . إن الصعوبة التي اكتنفت هذه المهمة — وحتى

١٢ — انظر ابا شامة ، ج ٢ : ٣٤ ، ٣١ . ويمكن الادعاء بحق أن مثل هذه الفقرات تقابلها فقرات ماثلة في المكاتبات المتكلفة التي تداولها الأمراء الآخرون مع دار الخلافة . لكن اعتبارها نفاقاً على غرار رسائل الأمراء لا يتفق إطلاقاً مع كل ما نعرفه عن خلق صلاح الدين . وإذا كان جل ما عنته لديه لا يبدو كونه مجرد تلاصق بالألقاظ ، فما الذي حدا به إلى متابعة ارسال هذا السيل من التوسلات والاعتراضات إلى بغداد ؟

١٣ — أبو شامة ، ج ٢ : ٤٠ — ٤١ .

١٤ — البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٢٣ أ .

اليأس الظاهر منها - في الظروف السائدة يومذاك هي أمر واضح ، لكن صلاح الدين وجد طريقاً لمجابهتها ، مما أثار غالباً الحيرة أو الدهشة في نفوس أصدقائه ومستشاريه .

كان المبدأ الأول الذي سار عليه في التعامل مع الامراء ، سواء كانوا مسن الاصدقاء أم الأعداء ، هو الصديق في قوله والوفاء المطلق به . حتى مع الصليبيين كانت الهدنة تعني له هدنة . ولا يحوي سجله حالة تقصص فيها العهد معهم ، أما الذين نقضوا العهد معه فلم يصفح عنهم ، وهذا ما تعلمه أرناط (رجينالد أوف شاتيون) والداوية بمثابة درس لاحق . أما تجاه منافسيه المسلمين ، فإلى قرن الاخلاص بالكرم . ففي أعقاب اتفاقه مع الملك الصالح سنة ١١٧٦ م (وحادثة استرداد أعزاز المشهورة) ترك حلب وحدها إلى أن توفي الصالح ، مع انه كان يحمل منشوراً من الخليفة بتقليده ولايتها (١٥) . وقام بضرب الحصار حول آمد لأنه كان قد وعد بها الأمير الارتقي صاحب حصن كيفا ثمناً لمحالفته ، وبعد ان استولى عليها ترك لخليفه كل كنوزها المائلة على حالها - وذلك تصرف انطوى على الوفاء بوعد قطعه على نفسه ، فلم يسبق له مثيل حتى انه كان مشاراً للدهشة (١٦) .

إلا أنه كان على صلاح الدين من أجل تحقيق هدفه ، ان يعزز قوة أفعاله وقدرته بخلق تيار خلقي ونفسي يعمل لصالحه ويكون قوياً إلى درجة تتعدى معها مقاومته . ولهذا الغرض احتاج إلى حلفاء ، ولا سيما بين الطبقة النافذة من «فقهاء المدارس» الذين كانوا قادة الرأي العام . كان هذا الأمر من أشد

١٥ - أبو شامة ، ج ٢ : ٣٤ .

١٦ - كان تصرفه من هذه الناحية متأسفاً ، وبخفاً لأعدائه إلى درجة كان من الضروري عندها أن يصار إلى افتعال حادثة تماثلها ، وقد سجل هذا في حيته ابن الأثير (فاظهر قدراً كبيراً من عدم التحيز) : الكامل ، ج ١١ : ٣٤١ .
راجع الفصل الثالث من كتابنا هذا .

الصعوبات التي واجهها خطورة ، لأن هؤلاء الفقهاء — كما سبق ذكره — كانوا يمثلون على وجه الضبط تلك القطاعات التي عبّأها نور الدين لتأييده . وبما أن صلاح الدين ظهر في أول الأمر كمنصب جاء يتحدثى ورثاء نور الدين ، فإن أولئك الفقهاء ومعهم أهالي بلاد الشام بوجه عام عارضوه في البداية ، أو على الأقل اتخلّوا منه موقفاً متحفّظاً . ولا تقدّم لنا المصادر العربية سوى إشارة ضئيلة إلى التحول التدريجي الذي طرأ على موقفهم ، لكن التواريخ وروايات المعاصرين (١٧) تحفل بالشواهد الواضحة في دلالتها على أنه استطاع بصدقه وإخلاصه أن يفوز في نهاية الأمر باحترامهم وإعجابهم . إن رعايته للمتصوّفة ، وهي رعاية نسج فيها أيضاً على منوال نور الدين ، كانت على الأرجح ذات أهمية خاصة من أجل نشاطه «التبشيري» — لو جاز لنا هذا التعبير — بين أهالي بلاد الشام . إلاّ أن أشد الأمور فعالية في اجتذاب الأهالي بوجه عام ، كان من المرجح صادراً عن إصراره على إزالة الرسوم والاعباء الجائرة في كافة البلاد الخاضعة لحكمه وسيادته ، حتى وإن لم يكن من المؤكد أبداً بأن مرؤوسيه كانوا دوماً يبادرون على الفور إلى تنفيذ تعليماته في هذا الصدد . وبمّا يسترعي الانتباه ، أخيراً ، أن الشيعة المشايخين في حلب وشمال الشام ، والذين ظلّسوا على معاداتهم لنور الدين ، لم يمتنعوا عن إقلاق راحة صلاح الدين فحسب (بعد محاولات الحشاشين الباكّة لاغتياله) بل ساعدوه بشكل إيجابي خلال فتحه البلاد لاسترجاعها (١٨) .

ويقدّم لنا عماد الدين الكاتب مثالاّ لافتاً للنظر على هذه الناحية من ديبولواسية

١٧ - انظر ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٩٧ - ٢٩٨ ، عبد اللطيف البغدادي في ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ج ٢ : ٢٠٦ (كلاهما قد ترجم في R.H.G.or. , iii: 435 sqq.)

١٨ - G. Cahen, *La Syrie du Nord à l'Époque des Croisades* - ١٨ (Paris, 1940). pp. 428 - 429

صلاح الدين) (١٩) ، وذلك عندما حاول اتابك الموصل الزنكي ومستشاروه ان يستغلوا ولاء صلاح الدين لدار الخلافة بان طلبوا إلى ديوان الخليفة إرسال شيخ شيوخ بغداد للتوسط مع صلاح الدين سنة ١١٨٤ ، ولعلمهم اننا لا نرى إلا الاعتماد بالطاعة للأمر المطاع . ومع ان سلوك رسول الموصل جعل أمر التسوية أشبه بالمستحيل ، فان صلاح الدين أسلم أمره في النهاية دون تحفظ لمشيشة شيخ الشيوخ . فما كان من رسول الموصل حتى صده مرة أخرى عندما راح يهدد علناً بإقامة تحالف بين الموصل وبين عدو الخليفة طغرل الثاني ، سلطان فارس السلجوقي . ويضيف عماد الدين بان هذا هو ما جعل صلاح الدين يوطد العزم على معالجة النزاع مع الموصل بحزم ، بعد ان كان متلكناً قبل ذلك في متابعته . ومما يؤكد على خلو رواية عماد الدين من المبالغة هو ان تصرف صلاح الدين في تلك المناسبة كان بداية صداقته للقاضي بهاء الدين ، الذي جاء ايضاً في حاشية رسول الموصل . وبهاء الدين يؤيد في روايته للحادثة النقاط الرئيسية فيما ورد على لسان عماد الدين (٢٠) .

كان اتساع امبراطورية صلاح الدين في آسيا بين عامي ١١٨٢ و ١١٨٦ عائداً في الواقع إلى تأثير هذه العوامل اكثر منه إلى العمل العسكري (فيما عدا الاستيلاء على آمد (وربما حتى بالنسبة إلى آمد كذلك) . وكانت حملاته على أبواب الموصل وحلب أقرب إلى التظاهرات منها إلى الحصار . فقد عمد صغار أمراء الجزيرة من تلقاء انفسهم إلى وضع انفسهم تحت حمايته ، لثقتهم من خيلق الرجل . وبعد أن قام قادة عسكر نور الدين في حلب بحركات لا تكاد تتجاوز التظاهر بالمعركة (٢١) ، توافدوا عليه بمجموعهم لتقديم أصدق الخدمات

١٩ - البرق ، ج ٥ ، الورقة ١٢٩ وما بعدها .

٢٠ - طبعة شولتزر ، ص ٥٧ .

٢١ - عماد الدين ، البرق ، ج ٥ ، الورقة ٨٩ ب وما بعدها (ابوشامة ، ج ٢ : ٤٣ -

٤٤) .

وأشدّها إخلاصاً . وحتى في الموصل ، كما يقول ابن الأثير في روايته للأحداث (٢٢) ، فإن صلاح الدين وجد المؤيدين هناك بين أمراء الجيش ، وهؤلاء الأمراء هم الذين أرغموا الاتابك الزنكي في نهاية الأمر على الخضوع والتسليم عام ١١٨٦ م . وربما كان علينا ألاّ نبالغ في تقدير مدى التأثير الذي مارسه الفقهاء على العساكر ، لكن مصادرنا تحوي أمثلة عدّة من تدخلهم الخاسم ، وعلى وجه التأكيد ، فإنهم شكّلوا عاملاً مساعداً . وأبرز الأمثلة كلها هي قضية شاه أرمن خلّاط القوي ، فقد كان هذا من أشدّ خصوم صلاح الدين عناداً ، ولكنّه قبل انتهاء الحرب الصليبيّة الثالثة مباشرة قدّم لصلاح الدين ولائه وعساكره طائعاً مختاراً (٢٣) .

ومن المعلوم جيداً ، إلى أي حدّ أسهمت شهرة صلاح الدين ، بالإخلاص المطلق لكلمته وبالكرم ، في استرجاع فلسطين وبلاد الشام الداخليّة خلال السنة ونصف السنة التي أعقبت معركة حطين . فسلو ان الضرورة دعت إلى الاستيلاء على كل قلعة وبلدة محصّنة بواسطة حصار منتظم ، لما كان أكثر من عشرها قد سقط قبل استهلال الحرب الصليبيّة الثالثة ، ولكان بالتالي تاريخ تلك الحرب مختلفاً كل الاختلاف لو أن الصليبيين قد حصلوا على الدعم من حاميات عسكريّة تعمل وراء جيوش صلاح الدين ، في المؤخرة .

إن متانة البنيان الذي شيّده صلاح الدين كان مقدراً لها ان تتعرّض لامتحان قاس إلى أقصى حدّ على يد الحملة الصليبيّة الثالثة . فقد تكشفّت هذه الحملة عن نوع من النزاع لم يسبق له أبداً توقّعه ولا أعدّ له العدّة قبل وقوعه . وبدلاً من متابعة المضيّ في تحقيق حلمه النبيل ، وإن كان حلماً مثاليّاً ، في

٢٢ - طبعة تورنبورغ ، ج ١١ : ٣٣٨ ، ٣٤٠ . راجع أيضاً الحادث الهام الذي جرى مع حامية حارم (اقتبه غروسيه ، ٢ : ٧٢٠) .
٢٣ - بهاء الدين ، ٢٦٠ .

إعادة حكم الشريعة داخل العالم الإسلامي ، أنهك في صراع من أشد الصراعات مرارة وإيلاماً في واقعه . ولكن بما أنه قد سعى لتحقيق حلمه بواسطة إنكار الذات والعدل والإخلاص ، فإنه استطاع الاضطلاع بأعباء المملكة الملقاة على عاتقه والتي لم يسبق لها مثيل بسبب هذه الأسس الأخلاقية وحدها دون سواها . فخلال قرون طويلة لم يسبق لأمر من أمراء المسلمين أن جابه مشكلة الإبقاء على جيش في الميدان بصورة متواصلة لمدة ثلاث سنوات وضدّ عدو نشيط ومغامر . والنظام الإقطاعي العسكري كان غير ملائم تماماً لمثل هذه الحملات والحرب ، حتى ولو أمكن إنشاء نظام محدود لتبادل الخدمة العسكرية (البندك) بين الفرق المصرية وفرق ما بين النهرين .

لقد كشف النزاع عن مواطن الضعف المادية وحتى الأخلاقية منها في امبراطورية صلاح الدين واحدة تلو الأخرى ، وهي التي ظلت تحققة خلال حقبة النصر . ولم يسبق لصلاح الدين أن اكثرت المال أو اهتم بإدارة إيراداته إدارة حكيمة . «فقد أنفق المولى مال مصر في فتح الشام ، وأنفق مسال الشام في فتح الجزيرة وأنفق مال الجميع في فتح الساحل» (٢٤) ، ثم وجد نفسه الآن بلا موارد كافية لسد تكاليف الأسلحة والمؤن والعلف والمعدات وعطاء الجند الإضافي . وعليه ، لم يستطع الإتيان بشيء يذكر لتخفيف الضائقة عن العساكر الاقطاعيين ، الذين أرغمتهم الظروف إمّا على الوقوع تحت طائلة الديون أو على إكراه فلاحهم ومزارعيهم لاستخراج ما بأيديهم (٢٥) . ربما كان هذا الأمر يفسّر ، حتى أكثر مما يفسره بقاء الأحقاد القديمة ، بممانعة بعض العساكر الشرقية وتردّدها في الإسهام بدورها في الحرب . أضف إلى ذلك ،

٢٤ - القاضي الفاضل في أبي شامة ، ج ٢ : ١٧٧ .

٢٥ - أبو شامة ، ج ٢ : ١٧٧ ، ١٧٨ و ٢٠٣ . الفتح : ٢٠٧ ، ٣٩٢ - ٣٩٣ ، ٤٤٣ .
جهاد الدين : ٢٠٠ - ٢٢١ الخ .

أن جميع المعدات العسكرية من مصر وبلاد الشام كانت محتجزة في عكا (٢٦) التي أعاد صلاح الدين تحصينها لتكون بمثابة قاعدته الرئيسية في عمليات المستقبل . ولذا فإن حصار عكا وفقدانها أحدث شللاً خطيراً في القدرة الهجومية للجيش الإسلامي .

وعلاوة على ما تقدم ، فإن الخنادق المحصنة التي حفرها المحاصرون الصليبيون أوقعت الحيرة في تكتيك العساكر النظامية وتقاليدها القتالية . فقد صمد العساكر الأتراك صموداً حسناً في أثناء القتال المكشوف ضد الفرسان الغربيين في السهول ، مع أن حرس صلاح الدين من الأكراد اظهروا ثباتاً أقل (في أرسوف مثلاً) . ولكن عندما تبين أن النجاح المتكرر في الميدان المكشوف لم يكن ذا أثر على الإطلاق في تخفيف وطأة الضغط عن عكا ، كان ردّ الفعل الطبيعي هو التواني في بذل المجهود ولبدء التذمر من صلاح الدين . فلم يلبث التذمر ، ما أن بدأ ، حتى صار عادة وتطور إلى نقد ومعارضة ، لا سيما في المرحلة المتأخرة من الحرب ، عندما بدأ سقوط عكا كدليل يبرهن على الضعف في قيادة صلاح الدين العسكرية .

على أن هذا لم يكن ، في نهاية الأمر ، إلاّ شأنًا ثانويًا بالمقارنة إلى الأذى الذي أنزله بصلاح الدين أقاربه وأصيب به القضية كلها التي كان يدافع عنها . هنا قبع موطن ضعفه البالغ ، وليس في أي مكان آخر . فقد تسببت له شهوات عدد من إخوته وسائر أقربائه (٢٧) — وهي شهوات قلما لاذت بالتستر — بتأعب كثيرة في الماضي ، لكنّه استطاع أن يكبح جماحها تقريباً . غير أن ابن أخيه ، تقي الدين ، تعمّد عصيان أوامره في ديار بكر وهو في ذروة صراعه مع الصليبيين ، وأتاح بعصيانه المجال أمام سلسلة من المنازعات وأعمال

٢٦ — بهاء الدين : ١٧٤ .

٢٧ — لقد سم القاضي الفاضل صورة حية لهذا في رسالة استشهد بها ابوشامة ، ج ٢ : ١٧٨ .

التمرد التي أدت بدورها إلى أضعاف صلاح الدين على نحو شديد الخطورة خلال الحملة في فلسطين بعد سقوط عكا . ولم يؤدّ هذا الأمر إلى غياب عساكر تقي الدين الخاصة وعساكر ديار بكر عن ساحة المعركة خلال المدة الباقية من القتال الفعلي فحسب ، بل أدّى كذلك إلى مزيد من الانقسامات داخل أسرته ، وإلى نزاعات بين عساكره المجهدة أيّما إجهاد ، خلال الشهور الأخيرة الحرجة .

هذه هي العوامل التي سلبت صلاح الدين فرصة إحراز الانتصار التام في صراعه مع ريكاردوس . بيد أنها عوامل تُبرز بجلالة أكثر خاصيّة من خصائص الحملة كلّها هي أشدها ماثراً للدهشة وأبعدها مغزى ... وذلك ان عساكر الموصل كانت تعود إلى الخدمة الفعلية سنة بعد سنة حتى وإن تلاكأت أحياناً في الطريق . وفي مثل تلك الظروف السائدة لم تكن مسألة الإكراه المادّي واردة في الحسبان ، مثلما أن صلاح الدين لم يكن قادراً على كبحهم (كما يبرهن ذلك حادث تقي الدين) عن إعادة إحتلال الجزيرة ، وهو الشيء الذي حاولوا القيام به في الواقع عقب وفاته فوراً . فلا يوجد تفسير لهذا التصرف الذي صدر عنهم سوى ان الشعور بالولاء الشخصي لصلاح الدين ، حتى في الموصل ، كان قوياً إلى حدّ يكفي للتغلب على ممانعة الأفراد أو مقاومتهم . وتوجز لنا عبارة صلاح الدين المتواضعة التي خاطب فيها بهاء الدين بقوله : «إني لو حدث بي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر» (٢٨) ، الطبيعة الحقيقية لما أنجزه . ففسد استطاع ان ينتشل الإسلام طيلة فترة وجيزة ولكنّها حاسمة ، من وهدة الانحطاط الاخلاقي السياسي ، وذلك بما أوتي صلاح الدين من طيبة محضّة وثبات في الخلق . وسحين دافع بعناد عن مثل أخلاقي أعلى ، وجسّد هذا المثل في حياته الخاصة وأعماله ، أوجد حوله حافزاً للاتحاد كان كافياً ، رغم انه لم يكتمل تماماً أبداً ، لمجابهة التحدي غير المرتقب والذي ألقته الأقدار في طريقه .

الفصل الثامن

❖ الأيوبيون

كان صلاح الدين خلال فترة حياته قد وزع الولايات التي جرى إدماجها في امبراطوريته على أفراد عائلته الخاصة ، مانحاً لإيّاهم سلطات فعلية لممارسة السيادة . فتوالى ثلاثة من أبنائه الحكومات الرئيسية في مصر وبلاد الشام :

Gibb, H.A.R. : « The Aiyūbids » chapt. XX of **A History of * the Crusades** Vol. II, ed. K.M. Setton, Philadelphia 1962 c by the Regents of the University of Wisconsin, pp. 693 ~ 714

ملاحظة : لم يقدّم الباحثون حتى الآن بدراسة مفصلة للعصر الأيوبي ، ولا يزال العديد من المصادر الرئيسية المعاصرة مخطوطة ، لا سيما تاريخ ابن واصل الحموي (الذي اقتبست أجزاء منه في تاريخ أبي الفداء) ، وتاريخ سبط ابن الجوزي (طبعة مصورة عن الأصل ، شيكاغو ١٩٠٧) ، وتاريخ كمال الدين ابن العديم الحلبي (ترجمة لـ . بلوشيه ، باريس ، ١٩٠٠) . وثقل عنها من حيث الأهمية المصادر التالية : الكامل لابن الأثير (المجلد ١٢ ، ليدن ١٨٥٣ . وهناك أقسام منه حررت ونشرت مترجمة في R.H.C, or, II.I ، وهو ينتهي في سنة ١٢٣١ م) ، وثمّة كتاب الروضتين لأبي شامة (القاهرة ، ١٩٤٧ . وهناك أقسام منه حررت مترجمة في R.H.C, or, V) ، وغيرهما من المصنفات التاريخية الثانوية التي ما تزال باقية . ثمة مواد من مصادر لم تعد موجودة ويمكن العثور عليها في كتب التاريخ العام المتأخرة ، ولا سيما في مؤلفات الذهبي والمقريزي . أما بخصوص المؤلفات الأوروبية العامة التي تتناول العصر الأيوبي ، فانظر قائمة المراجع الملتبقة في ختام الفصل الخامس عشر .

الأفضل علي ، وهو أكبرهم ، في دمشق ، والظاهر الغازي في حلب ، والعزير عثمان في مصر (١) . أما الحكومة الرئيسية الرابعة في الجزيرة وأعلى ما بين النهرين وديار بكر (التي كانت عاصمتها في ميفارقين) فقد تولّاها أخوه العادل سيف الدين ، بينما تولّى المعظم عيسى (وهو ابن العادل) حكم ولاية أبيه الثانية في الكرك وشرقي الأردن كنائب له . وتولّت طائفة أخرى من أقاربه ثلاث ولايات أصغر شأنًا في بلاد الشام : ولاية حماه التي تولّاها المنصور محمد (وهو ابن تقي الدين ، ابن أخي صلاح الدين) ، وولاية حمص التي أقطعها صلاح الدين لابن عمّه المجاهد شيركوه الثاني ، ثم ولاية بعلبك التي أقطعت للأشجد بهرام شاه (وهو ابن فروخ شاه ، ابن أخي صلاح الدين) (٢) .

لما توفي صلاح الدين (في ٤ آذار سنة ١١٩٣ م) تعطلت الوحدة التي فرضها بشخصيته وسلطانه ، وأصبحت كل الولايات (ما عدا ولاية الكرك) في الواقع إمارات مستقلة ومنفصلة . فترتب على ذلك منح بلاد الشام نوعاً جديداً من الكيان السياسي . وجاء هذا الكيان في المظهر الخارجي مشابهاً في تجزئته لفترة ما قبل السلاجقة . ومما يضيف على تاريخ هذا العصر الأيوبي مظهر الفوضى المضطربة هو تلك الاضطرابات السطحية التي سببتها المناهضات داخل الأسرة الأيوبية والمطامح لدى بعض أبنائها ، والصراعات التي خاضها أمراء دمشق

١ - نعت جميع الأمراء الأيوبيين بصفة أعقبت لقب « الملك » ، (ويعامل أسمي) للتبجيل مركب مع كلمة «الدين» ، ثم جاء اسم العلم بعد ذلك . ولقد ارتأينا على سبيل الإيجاز والسوق أن نورد أسماهم على الشكل المذكور أعلاه (فنقول ، مثلاً ، الأفضل علي بدلاً من الملك الأفضل نور الدين علي بن يوسف) ، فيما عدا حالات قليلة حيث يكون اللقب المركب هو الاستعمال الأكثر شيوعاً ، ومنها حالة صلاح الدين نفسه (واسمه الكامل : الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب) وأخوه العادل سيف الدين (واسمه أبو بكر بن أيوب) .

٢ - لم تقدم الولاية الأيوبية التاسعة في جنوبي شبه الجزيرة العربية (اليمن) إلا حتى سنة ١٢٢٩ ، وكان استمرارها بوجه عام في ظل السيادة المصرية ، لكن ولاية أخرى أنشئت في حصن كيفا من بلاد ما بين النهرين ، ودامت هذه الولاية حتى الفتح المشائي للعراق على عهد سليمان القانوني .

وحلب في سبيل الحفاظ على استقلالهم ضد اقربائهم الذين كانوا أشدّ منهم قوة في مصر وما بين النهرين . بيد ان الكيان المذكور كان في الواقع محكم الترابط في أجزائه بفعل تضامن عائلي اسامي عزّزته التزاوجات مثلما عزّزه التأشير الملطّف الذي مارسه يبروقراطية دينيّة قويّة في قيامها بمتابعة التقاليد التي سار عليها نور الدين وصلاح الدين . فقد لعب صغار الامراء ، ولا سيما أمراء حماه وحمص منهم ، دوراً هاماً في الحفاظ على التوازن بين القوى المتنافسة (في المقام الأول ، من أجل حفظ إماراتهم من الابتلاع) . وحتى عندما أزيل الايوبيون انفسهم من الوجود لدى وقوعهم بين حجري الرحي من المماليك والمغول ، فإن الكيان الذي أوجدوه بقي مستمراً في مؤسسات دولة المماليك .

وينبدي استقرار الحكم الايوبي كذلك من خلال النمو السريع الذي شهده الازدهار المادي في بلاد الشام ومصر ، والاتساع البارز في مجالات الثقافة ، من أدبيّة وفنيّة وفكريّة . فالأول جاء إلى حدّ كبير بفضل السياسة المستنيرة التي انتهجها الأمراء في تشجيع التطور الزراعي والاقتصادي وفي رعايتهم للعلاقات التجارية مع دول المدن الإيطاليّة . وكانت النتيجة الطبيعيّة لهذه السياسة هي الحفاظ على علاقات سلميّة ، بقدر الإمكان ، مع دويلات الفرنجة في بلاد الشام ، حتى انه لا توجد هناك سوى مناسبات قليلة ، هذا إن وُجدت ، خلال الفترة كلّها حيث قام الامراء الايوبيّون بأخذ المبادرة في الهجوم ضد الفرنجة .

وكان ثمة عامل آخر من عوامل الاستقرار ، في المدى البعيد على الأقلّ ، هو ظهور عضو رئيسي من أعضاء الأسرة في كل جيل ، بحيث استطاع هذا العضو أن ينجح في الوقت المناسب في فرض سلطته على الآخرين جميعاً أو على معظمهم ، وإن يكن هذا النجاح قد تمّ على حساب تزايد أعمال العنف والمعارضة في الأجيال المتلاحقة . وفي الجيل الأول كان حجر العقدة في البنيان الايوبي كلّهُ هو أخو صلاح الدين ، العادل سيف الدين ، الذي احتلّ منصب المستشار الرئيسي لصلاح الدين خلال حكمه ومثل الشخصية الأقوى والأقدر بعد صلاح الدين

داخل الأسرة . فلم يتمتع العادل سيف الدين بنفوذ كبير فحسب - مقابل صغر سن أبناء صلاح الدين وقلّة عمرهم - بل سبق له في أوقات مختلفة ان تولّى حكم مصر وحلب والكرك فأصبح ملجأ بالأوضاع الداخلية لكل الإمارات . وبصفة كونه أميراً على الجزيرة فقد انطوت مهمته المباشرة عقب وفاة صلاح الدين على إحباط المحاولة التي قام بها اثنان من آل زنكي ، هما عز الدين صاحب الموصل وعماد الدين صاحب سنجار ، لاستغلال الفرصة من أجل استرجاع ممتلكاتهما السابقة في بلاد ما بين النهرين . فأرسي الوضع داخل الولايات الشرقية على الاستقرار بمساعدة أبناء أخيه في حلب ودمشق ، رغم ان الزنكيين استعادوا لفترة ما استقلالهم داخل أراضيهم .

وخلال السنوات الست التالية قام العادل بتوسيع رقعة سلطانه وتوطيد دعائم سلطته في بلاد الشام ومصر . كان ينظر من التحارب ، ولذا كانت الديبلوماسية والمكيدة هما سلاحه الرئيسي ، فأتاحت له المنافسات بين أبناء صلاح الدين مجالاً واسعاً لاستخدام هذا السلاح . وجرى اعتبار الأفضل علي في دمشق بمثابة رأس البيت الأيوبي بصفة كونه الابن الأكبر ، لكن سوء حكمه وضعفه أدياً إلى تأليب عساكر صلاح الدين ضده وبالتالي إلى قيام العزيز من مصر بتسيير حملة ضد دمشق في أيار ١١٩٤ . فانضمّ العادل إلى تحالف الأمراء الشاميين ضد العزيز ، ولدى انسحاب هذا الأخير بقي العادل مع الأفضل في دمشق . ثم قام العزيز بمحاولة ثانية سنة ١١٩٥ ، وهذه المرة بالاتفاق مع الظاهر صاحب حلب . وبعد ان حطّم العادل بكيدة تحالف العزيز والظاهر ، لحق بالعزيز إلى مصر وبقي معه هناك حتى السنة التالية ، عندما تضافرت جهود عساكرهما لطرد الأفضل من دمشق (حزيران ١١٩٦) . فظلّ العادل في دمشق كنائب للعزيز . ولذا ، فلما تجددت الحرب مع الصليبيين سنة ١١٩٧ استطاع ان يخرج إلى ميدان المعركة على الفور ، وان يستولي على يافا (٥ ايلول) ويرسل العساكر لتعزيز دفاع مصر ضدّ غزو مرتقب . وعقب ان استسلمت بيروت على يد

قائدهما للصليبيين الألمان الذين قاموا بمحاصرة «تورون» في نهاية تشرين الثاني ، استحصل العادل على تعزيزات (مدد) من مصر ومن جميع الأمراء الشاميين. فأرغم الصليبيين على رفع حصارهم (٢ شباط ، ١١٩٨) ، وفاوضهم على عقد صلح جديد في حزيران لمدة خمس سنوات ونصف السنة (٣) . ثم استتاب عنه ابنه المُعَظَّم عيسى في دمشق ، وعاد إلى الجزيرة لإكمال استعادة السيطرة الأيوبيّة في الشرق .

ولمّا توفي العزيز (٢٩ تشرين الثاني ، ١١٩٨) تاركاً وراءه ابناً قاصراً فقط هو المنصور محمد ، حدث انشقاق في القوات الأيوبيّة . فاستدعت الفرقة الأسديّة الأفضل (ليكون وصيّاً) ، وقام أمراء الفرقة الصلاحية في تلك الأثناء باستدعاء عمّة العادل من بلاد ما بين النهرين ، بينما زحف الأفضل على دمشق بتحرير من أخيه الظاهر وتأييد منه . فلم يكّد العادل ان يجد الوقت الكافي للانضمام إلى المدينة بنفسه حتى كان الأفضل قد ضرب حصاراً حولها ، واستمرت محاصرتها طيلة ستة أشهر إلى حين وصول ابنه الكامل محمد على رأس عساكر ما بين النهرين ، فقام العادل حينئذ بتعقّب الأفضل إلى مصر وهزمه في وقعة بلبس ، ثم دخل القاهرة (٥ شباط ، ١٢٠٠).

ونودي رسمياً في ٤ آب بالعادل سلطاناً على مصر وبلاد الشام . فاعترف به جميع أمراء البلاد ما عدا الظاهر أمير حلب ، الذي انضمّ الآن إلى الأفضل في محاولة أخيرة لإثبات دعوى بيت صلاح الدين . وبعد ان قامت عساكرهما في ربيع سنة ١٢٠١ بالاستيلاء على منبج وقلعة نجم ، ارتكب الإثنان غلطة بهجومهما على حماه ، لكنّهما إذ أخفقا في الاستيلاء عليها زحفاً على دمشق في شهر آب ،

٣ - تقول رواية المقرئزي إن تحصينات عسقلان أزيلت في السنة ذاتها بناء على اتفاق بين العادل والعزيز . راجع بخصوص هذا الصلح ما يلي :

A History of the Crusades, Vol. II, Chapt. XV, pp. 530 - 531.

بدعم من عساكر الفرقة الصلاحية في فلسطين ، حيث انضم هؤلاء إلى الأفضل بدافع استيائهم لتخلع المنصور محمد الصغير على يد العادل . فنجح العادل مرة أخرى في تفكيك عرى التحالف بالمكيدة عند نهاية شهر أيلول ، ولما استعاد ولاء قطاع من الفرقة الصلاحية ، عقد العزم على المضي في انتهاز فرصته السانحة . وقام في تعقب الظاهر بدعوة من المنصور أمير حماه ، ثم هدده بمحاصرة حلب إلى ان يوافق على الاعتراف بالعادل سلطاناً (آخر كانون الثاني ، ١٢٠٢) . فأبقى الظاهر لقاء اعترافه مالكا على حلب بلامنازع ، وأعطى الأفضل إقطاعة سميحاً للثانوية ، حيث توفي سنة ١٢٢٥ . وبقيت كل من حماه وحمص تحت ولاية أميرها ، بينما جرى توزيع الولايات الأخرى على أبناء العادل : فأعطيت دمشق للمُعظم عيسى ، ومصر للكمال محمد ، والجزيرة للأشرف موسى ، وديار بكر للأوحد أيوب ، وقلعة جعبر للحافظ ارسلان .

ومع انه تم بذلك تفادي وقوع القطيعة النهائية بين أبناء صلاح الدين وبين العادل ، فقد استمر الارتياح بأمر الظاهر الذي عزز الشكوك بأعمال التحصينات التي قام بها ، وأبرزها إعادة بناء أسوار حلب وقلعتها المشيعة ، وتعمير الحصون الحدودية في قلعة نجم على الفرات وأفاميا على نهر العاصي . أما المسرح الرئيسي لنشاطات العادل فكان بلاد ما بين النهرين ، حيث لم يدخل ابنائه في نزاع مع الزنكيين فحسب ، بل مع أهالي (الكرج) جورجيا كذلك (عقب احتلال الأوحد لأخلاق سنة ١٢٠٧) . وفي سنة ١٢٠٩ قاد العادل جيوش الأيوبيين مجتمعة في هجوم على سنجار ، إلا أن حدوث تحالف بين الأمراء الشرقيين ووصول أوامر مباشرة من الخليفة تأمره بالانسحاب حملاه على عقد الصلح . ومما زاد في استعداده لعقد الصلح هو ان الظاهر كان عرضة للإغراء في ضم جهده إلى آل زنكي والانضمام إليهم من أجل استبدال سيادة العادل بسيادة سلطان الروم السلجوقي . لكن البليورجيين (الكرج) منبوا بهزيمة ساحقة (١٢١٠) على يد الأوحد ، قبل عودة العادل إلى بلاد الشام ، وأجبروا على توقيع تعهد بالحفاظ

على السلام لمدة ثلاثين عاماً . وبهذا النجاح تأكدت سيادة الايوبيين في بلاد ما بين النهرين على نحو واضح مجدداً ، وعقب وفاة الأوحّد بفترة وجيزة تمّ وضع الإقليم كلّهُ تحت ولاية الأشرف .

ولعبت هذه الإنهكاكات كلّها دوراً كبيراً في تقرير سياسة الايوبيين نحو الفرنجة . فأدّى تخفيض ممتلكات الفرنجة النائية ، وخاصة في الجنوب ، إلى إزالة أي خطر حقيقي يمكن لقواتهم المحليّة أن تهدّد به . وكان الخطر الوحيد الذي يُخشى منه (وقد بقي هذا الخطر ماثلاً للعادل بصورة حيّة ، ومقترناً بذكرياته عن الحملة الصليبيّة الثالثة) هو احتمال قدوم حملات صليبيّة جديدة من وراء البحار . فانصبّ اهتمام العادل الرئيسي ، على غرار صلاح الدين من قبله ، على مصر (وما لا ريب فيه ان هذا القلق عزّزته الغارات البحريّة على رشيد سنة ١٢٠٤ ودمياط سنة ١٢١١) وكانت عساكره المصريّة معظم الوقت محتجزة في خدمة الحاميات بمصر . حتّى ان خوفه من تحريك هجومات جديدة ، إلى جانب نفوره المعتاد لثلاثٍ يصبح متورطاً في تحارب جدّي ، حمّله على تقديم التنازلات من أجل السلام ، مثل تخلّيه عن يافا والناصرّة سنة ١٢٠٤ . وعلى غرار ما فعله صلاح الدين ، فقد عطف العادل على المصالح التجاريّة للدويلات الإيطاليّة ، مستهدفاً من وراء ذلك تحقيق غرض مزدوج : زيادة إيراداته الخاصّة وإمكانيّاته الحربيّة من جهة ، وثني تلك الدويلات عن محاولة تقديم الدعم للحملات صليبيّة مستحدثة . هناك دلائل تشهد على إبرام معاهدات تجارية مع البندقيّة وبيزا بين عامي ١٢٠٧ - ١٢٠٨ ، وعندما جرى اعتقال التجار الفرنجة في الاسكندريّة سنة ١٢١٢ كتدبير احترازي ، فإن عددهم كان يبلغ ٣,٠٠٠ تاجر . واشتمل القسم الأكبر من حكمه على سلسلة من اتفاقيات الهدنة مع مملكة الفرنجة (١١٩٨ - ١٢٠٤ و ١٢٠٤ - ١٢١٠ و ١٢١٢ - ١٢١٧ و ١٢١٧) ، فأعيد خلال هذه الفترات تنظيم دفاعات القدس ودمشق ، وكان أبرزها تشييد قلعة جديدة على جبل الطور ، وهي التي بوشر العمل فيها سنة

١٢١١ . وانحصر معظم القتال الفعلي في اثناء هذه الفترة بين استنارية قلعة الحصن (أو حصن الأكراد) أو بوهموند صاحب انطاكية وطرابلس وبين أمراء حماه وحمص . الذين كان في استطاعتهم ان يعتمدوا . فيما لو دعت الحاجة . على تأييد الظاهر . ولم ينجح العادل نفسه إلى التدخل الفعلي إلا مرة واحدة في سنة ١٢٠٧ . وذلك عندما استولى على القلعة وحاصر حصن الأكراد وتقدم حتى أسوار طرابلس قبل أن يعقد صلحاً مع بوهموند لقاء دفع جزية .

وكانت في تلك الاثناء للظاهر صاحب حلب دواعيه الخاصة للحفاظ على السلام مع انطاكية . فقد تنبه إلى خطر تزايد قوة الأرمن في كيليكيا . وتطلع دوماً للبحث عن حلفاء محتملين ضد عمه . كما سبق له ان استجاب دون تردد لنداء بوهموند صاحب طرابلس بتقديم التعزيزات له في حربه ضد الأرمن سنة ١٢٠١ . وكان له اثره الكبير كذلك في الدفاع عن انطاكية ضد ليون الثاني في سنة ١٢٠٣ وبين عامي ١٢٠٥ - ١٢٠٦ (١) . فالحجوم على كيليكيا السدي اشتركت فيه القوات السلجوقية والحلبية سنة ١٢٠٩ كان قد أرغم ليون على التماس شروط الصلح ، لكن الصراع استمر في انطاكية ومن أجلها ، وقام البابا اينوشنتيوس الثالث نفسه بمناشدة الظاهر في سنة ١٢١١ أن يدعم فرسان الداوية . وكان الظاهر أيضاً على علاقات بمستوى المعاهدة مسع البنادقة في اللاذقية ، فسمح لهم بإقامة «فندق» في حلب . (fondaco) والفنادق أو القياسر كانت مخصصة للتجار الغرباء ينزلون فيها ويستعملون الجناح الأسفل منها سوقاً لحزن بضائعهم وتصريفها . المترجم) .

إلا أن العادل كان قد استنكر منذ أمد طويل تحالف ابن أخيه مع بوهموند وحاول إحباطه بالوسائل الدبلوماسية . وقام بوهموند بشن هجوم مشترك على

٤ - فيما يتعلق بهذا التحالف انظر

A History of the Crusades Vol. II, Chapt. XV, pp. 533 - 537.

حصن الخوافي الاسماعيلي في سنة ١٢١٤ . بعد مقتل ابنه الأكبر ريموند على يد الحشاشين في طرطوس . فاستنجد الحشاشون بالظاهر ، الذي أرسل لحسم التعزيزات (النجادات) وجنّد تأييد العادل للقيام بهجوم مضللّ في الجنوب . وأدّى هذا الأمر إلى إنهاء التحالف ، وعندما دخل ليون إلى اللاذقية في شباط سنة ١٢١٦ ، فإن الظاهر اضطرّ إلى رفض دعوة السلطان كيكاؤس الأول للتعاون في هجوم على كيليكيا ، لأنّه كان تواقّاً لضمان الولاية لابنه القاصر الذي انجبه سفاحاً من ابنة العادل ضيفة . ثم توفي الظاهر بعد أشهر قليلة . في ١١ تشرين الثاني سنة ١٢١٦ . تاركاً وراءه شهرته كحاكم نشيط وكفؤ إنما قاسي المعاملة .

وجاء النزوح الجماعي لتجار الاسكندرية إلى عكا في سنة ١٢١٦ ليعطي أمراء المسلمين تحذيراً كافياً من الحملة الصليبية المقترية . فبقي العادل متيقظاً في مصر إلى أن أتمّ الصليبيون احتشادهم في عكا (١٢١٧) وبدأوا في عملياتهم الحربية متجهين صوب الشرق . وحتى في ذلك الحين ، فإنه ترك السواد الأعظم من قواته مع الكامل وتحرك على رأس كتية صغيرة لدعم المعظم (٥) . فالعساكر التي تحت تصرفه كانت قليلة للغاية حتى تستطيع الوقوف بوجهه الصليبيين . وبينما كان هؤلاء يحاصرون بانياس ويغيرون عبر الأردن قام هو بحراسة المعازات المؤدية إلى دمشق وأوفد المعظم إلى نابلس لكي يدرأ الخطر عن القدس ، وطلب النجادات من الأمراء الشماليين .

وطراً تحوّل مفاجيء على الموقف بعد فترة وجيزة من الراحة خلال الشتاء (بين عامي ١٢١٧ - ١٢١٨) وبينما كان الأشرف يتحرك في طريقه لتدعيم الدفاع ، فقد وجد الايوبيون انفسهم يخوضون المعركة على ثلاث جبهات في

٥ - انظر حول العمليات في فلسطين سنة ١٢١٨ وسنة ١٢١٩ :

A History of the Crusades, Vol. II, Chapt. XI, pp. 389 - 396.

آن واحد . ولما سمع العادل بنزول الفرنجة على دمياط قام بإرجاع العساكر المصرية الذين كانوا تحت أمرته . وأصدر تعليماته إلى المعظم بنهديم قلعة جبل الطور لأنها احتجزت ذلك العدد الكبير من الرجال والمخازن العسكرية . وطلب إلى الأشرف أن يصرف أنظار العدو عن العملية الرئيسية بشن هجوم على مناطق الفرنجة الشمالية . فقام هذا بالإغارة على خان الأبيض وحصن الأكراد . غير أنه في تلك الأثناء بادر حزب في حلب . من الذين عارضوا الأمير الطفل العزيز محمد واتباعه شهاب الدين طغرل . إلى إغتنام فرصة المصاعب التي يواجهها العادل لكي يتفاوضوا مع الأفضل والسلطان السلجوقي . وفي مستهل شهر حزيران استولى كيكائوس على حصن رعبان وتل باشر . ثم زحف على حلب . فأسرع الأشرف للدفاع عنها وألحق الهزيمة بالسلطان وحلفائه عند بزاعة (مطلع تموز) ثم استرد المناطق المستولى عليها . وذلك بمساعدة كتائب عسكرية من العرب . فجرى اعتباره منذ هذا الحين فصاعداً بمثابة سيد حلب الأعلى ، لكنه أبقي زمام حكمها بيد طغرل الذي اشتهر بإخلاصه له ومقدرته . ثم أرسل الأمراء المتمردين لكي يلتحقوا بجيش الكامل في مصر .

بقي المعظم أول الأمر متيقظاً في فلسطين . وأحرز نصراً ثانوياً في أواخر شهر آب عند قيمون بالقرب من الرملة . وبعد ذلك مباشرة استدعته إلى دمشق أنباء وفاة العادل هناك (في ٣١ آب ، ١٢١٨) . فتولت حكم المدينة ، لكنه اعترف مخلصاً بأخيه الكامل خلفاً للعادل على السلطنة . فما إن استقرت الأوضاع في بلاد الشام من جديد حتى كان الكامل يواجه وضعاً متدهوراً في دمياط . فأرسل نداءات جديدة بطلب المساعدة وتلقى النجادات من حماه وحمص . إلا أن الكامل نفسه انسحب من دمياط قبل أن يتمكن المعظم من الوصول إليها ، وجاء انسحابه هذا بسبب مؤامرة لخلعه عن العرش تزعمها المشطوب ،

وهو ابن الأمير الكردي في جيش صلاح الدين (٦) . وأعقب وصول المعظم في شهر شباط سنة ١٢١٩ إبعاد ابن المشطوب ونفيه واستئناف العمليات الحربية على أبواب دمياط . لكن الأشرف كان منهمكاً في بلاد مسا بين النهرين بالنزاعات التي نشبت في الموصل . وتلتها اضطرابات في شمالي بلاد الشام بسبب المكائد التي دبرها ابن المشطوب مع الأفضل . فكانت النتيجة انه لم يبق في بلاد الشام الآن سوى عساكر قليلة : مما أدى إلى اتخاذ قرار بتجريد القدس من الوسائل الدفاعية وبنقل جميع المخازن الحربية منها (شهر آذار ١٢١٩) ، في حال تعرضها للهجوم من جانب الفرنجة .

ويبدو ان الاستيلاء على دمياط في تشرين الثاني سنة ١٢١٩ قد أسفر ، وهذا وجه الغرابة في الأمر ، عن تخفيف في حدة التوتر لدى الجانب الإسلامي . فمن الصحيح ان الكامل مَّني بخيبة أمل للرفض الذي قوبلت به عروضه من أجل الصلح ، ولذا دعا الكامل إلى حملة عامة لتجنيد المقاتلين « من القاهرة إلى أسوان » . لكن دعوة مماثلة كان المعظم قد وجهها في دمشق لم تلق أي تجاوب ، فما كان من المعظم نفسه حتى رجع إلى بلاد الشام ، حيث راح يضايق الصليبيين باستمرار خلال السنة التالية (١٢٢٠) ، فاستولى على قيصرية وهدمها وهاجم حصن عثليت (قلعة الحجاج) مرتين . أما الأشرف فقد كانت لا تزال تؤخره في ما بين النهرين العمليات الحربية ضد الارتقيين في ماردين واميدا وضد ابن المشطوب الذي كافأ رافة السلطان به في العام السابق بتحالفه مع امراء ماردين وسنجار . فزحف الأشرف على الموصل ، بعد ان كان قد استولى على سنجار (في شهر تموز ، ١٢٢٠) ، بجيش حلب وبقي في جوارها طيلة عدة شهور

٦ - بشأن المراحل الأولى من الحملة الصليبية على دمياط ، وموت العادل والمؤامرة ضد الكامل ، انظر **A History of the Crusades Vol. II, Chapt. XI, pp. 397 - 408.** وما يدل على عدالة الأيوبيين اللينة ان عقاب ابن المشطوب كان النفي والإبعاد وليس الموت بالأحرى .

منهمكاً خلالها بالتفاوضات مع أمراء آل زنكي ومع كيوكوري في أربيل . وما أن حلّ مطلع سنة ١٢٢١ حتى شعر بقدر كبير من الأمان والاطمئنان في ولايته إلى حدّ جعله يسلم ، وإن يكن تسليمه قد جاء مكرهاً ، بحجج المعظم . فترك أنخلاط وديار بكر تحت حكم أخيه المظفر شهاب الدين غازي ؛ لكي يرافق المعظم وغيره من الأمراء الشاميين إلى مصر . حيث انضمّ إلى الكامل عند المنصورة في نهاية شهر تموز .

وفي أثناء الفترة الفاصلة كان الكامل قد استمرّ في التفاوض مع الصليبيين من أجل السلم ، بعد أن أعوزه الدعم الفعّال من جانب إخوته وبعد أن ألغى نفسه على رأس جيش يزداد سخطاً وتمرداً وقد انهكته الحرب (٧) . حتى أنه لم يكن بعد وصول المعظم والأشرف ، في حالة نفسية تجعله يتورّط في قتال شديد ، وبالرغم من اعتراضاتهما والوضع اليائس الذي كسان عليه الجيش المهاجم ، فإنه قبل عن طيب خاطر بالتسليم الذي عرضه عليه الصليبيون ، بدلاً من مواجهة الاحتمال في قيام حصار طويل الأمد لاستعادة دمياط . فتمّ التوقيع عند نهاية شهر آب على شروط الصلح كما ينبغي ولفترة ثماني سنوات ، ونصّ أحد الشروط على إطلاق سراح عام للأسرى ، بينما أعيد احتلال دمياط من جديد في ٨ أيلول سنة ١٢٢١ (٨) .

فما أن أزيل خطر الصليبيين حتى عادت الأسباب الثانوية للخلاف بين الأيوبيين إلى البروز مجدداً . وكان الأشرف قد ظلّ في مصر مع الكامل ، بينما شعر المعظم أنه عرضة لخطر الوقوع بين طرفي الرحى وهما أخواه الأقوى

٧ - يذكر المقرئ أن القتال مع الصليبيين في المنصورة قام بأكثره « العامة » ، أي الإضافيون والمتطوعة ، أكثر مما قامت به العساكر النظامية . (السلوك ، ج ١ : ٢٠٦) . وبشأن هذه المرحلة من الحملة الصليبية ، انظر أعلاه ، المصدر نفسه ، الفصل ١١ : ٤٠٨ - ٤٢٣ .

A History of the Crusades, Vol. II, Chapt. X, pp. 423 - 428 - ٨

منه في مصر وما بين النهرين . فقام بشن حملة ناجحة في حزيران سنة ١٢٢٢ لإرغام غي صاحب جبيل على التقيد بالصلح ، ثم خطا خطوة خاطئة في محاولته ان يستولي على حماه (كانون الثاني ، ١٢٢٣) وفي احتلاله معرة النعمان والسلمية . ولما أمره الكامل بالكف عن محاصره حماه والتنازل عما استولى عليه بالفتح ، انتقم لنفسه بتشكيل تحالف مع كوكبوري صاحب اربيل ضد الأشرف (ومن المرجح ان يكون هذا التحالف قد تمّ بتشجيع سري من الخليفة الناصر) ، وبتهريض غازي على الثورة في أنحلاط . الا ان الأشرف أحمد الثورة على جناح السرعة بمساعدة عساكر حلب ، وبعد عرض للقوة في حمص جاءت تهديدات الكامل لكبح جماح المعظم عن القيام بعمليات أخرى (١٢٢٤) . فدخل المعظم ، هرباً من رغبة هذه السيطرة غير المرحب بها ، في اتصالات مع العناصر الساخطة داخل الجيش المصري وأوقع الكامل في شلل حين راح يتجسس علناً بالنجاح الذي أحرزته مكائده ويتحدثي الكامل للزحف على بلاد الشام ان هو تجاسر على ذلك . أما ضد الأشرف فقد تبنت المعظم تلك السياسة الخطرة بدعوة شاه خوارزم جلال الدين (الذي تُروى قصة مغامراته الوحشية بصحبة مجموعته الخوارزمية من القتل المأجورين في فصل آخر) (٩) لكسي يستولي على ديار بكر . فهاجم حمص مرة أخرى سنة ١٢٢٦ ، بينما تحرك كوكبوري على الموصل والارتقيون على الجزيرة . وتفادى الأشرف الهجمات على حمص بعساكر حلب ثم توسل إلى السلطان السلجوقي كيقباز الأول ان يساعده ضد الارتقيين ، لكنه ما لبث هو نفسه ان دخل معه في نزاع لاحقاً . فأعلن استسلامه للمعظم بعد ان تملكه اليأس ، غير ان الأوان كان قد فات كثيراً للحيلولة دون محاصرة جلال الدين لأنحلاط ، وهي التي استطاعت حمايتها لا أن تصد المهاجمين وتحتفظ بالمدينة فحسب ، بل في أن تنتقم باحتلالها خوي وغيرها من الأماكن في اذربيجان عقب انسحاب شاه خوارزم .

٩ - المصدر نفسه ، ج ٢ ، الفصل ١٩ ، ص ٦٧٢ - ٦٧٤ .

وجاء الآن دور الكامل لكي يتوجس خيفة من الائتلاف بين الأمراء الشاميين (لكن حلب بقيت بمعزل عنه) ، خاصة وان المعظم كان قد اعترف بسيادة جلال الدين ، وفي الوقت ذاته كان الكامل يدرك استعدادات الامبراطور فردريك الثاني للقيام بحملة صليبية . فالسبيل الوحيدة التي تراءت مفتوحة أمامه في الشهور الأولى من سنة ١٢٢٧ كانت تشير عليه بأن يجدد لفردريك العرض الذي سبق له أن تقدم به إلى الصليبيين في دمياط : وذلك بالتخلي لهم عن القدس وجزء من فلسطين . إلا أن الموقف تسبدل بكامله في غضون بضعة أشهر . فاستطاع الأشرف أن يهرب بنجاح ، في شهر أيار ، من منقاه المموة بدمشق ، لقاء الإخلال بتعهداته المهيبة . وما أن تألب أمراء حمص وحمصاء أيضاً على المعظم حتى وجد هذا نفسه يقف معزولاً بوجه الجيوش الصليبية التي أخذت تحتشد الآن في عكا ، فأقدم على تخريب التحصينات في القدس وغيرها من القلاع . لكنه توفي يوم ١٢ تشرين الثاني سنة ١٢٢٧ ، قبل وصول فردريك واعتري عساكر دمشق وأهاليها حزن عميق لوفاته ، ثم خلفه ابنه الناصر داوود بموافقة من الكامل (١٠) .

ولم تدم إعادة الوفاق بين الأمراء طويلاً . فقد بدأ داوود بداية سيئة برفضه للطلب الذي تقدم به الكامل في التخلي عن حصن الشوبك ، لكن حالة الحرب توفرت بفضل نزاع حول بعلبك ، حيث هوجم الأجد على يد العزيز عثمان صاحب بانياس . وعندما أصدر داوود أوامره للعزيز بالكف عن هجومه ، توسل هذا الأخير إلى الكامل ، الذي قام بالزحف على فلسطين في شهر تموز سنة ١٢٢٨ واحتل نابلس والقدس . فنزل الأشرف ، بناء لدعوة داوود ، على دمشق من بلاد ما بين النهرين ، وانكفأ الكامل إلى تل العجول ، حيث انضم إليه الأشرف هناك . وكانت النتيجة التي أسفر عنها مشاورهما هي في أن

١٠ - بشأن الظروف المثيرة التي أحاطت بمفاوضات الكامل مع فردريك ، انظر :

A History of the Crusades, Vol. II, Chapt. XII, pp. 448 - 450

يتولى الأشرف حكم دمشق بينما يحتل الكامل فلسطين ، على أن تُعطى الجزيرة لابن اخيهما داوود بمثابة مكافأة له . فلمّا رفض داوود هذه الشروط ، قام الأشرف بضرب حصار حول دمشق عند أواخر تلك السنة بمساعدة عساكر حلب .

يبدو أن الأمراء الشاميين لم يُعروا الصليبيين اهتماماً يستحق الذكر خلال هذه الفترة كلها . وفيما عدا مناوشة قام بها عساكر العزيز صاحب بانياس عند عكا في شهر شباط ، فإنهم لم يتدخلوا في أعمال التحصينات على امتداد الساحل ، ولا تدخلوا حتى عندما جرى طرد السكان المسلمين من صيدا . فقد بقي الكامل في فلسطين عقب وصول فردريك لإجراء مفاوضات حول تحقيق العرض المقدم منه في ظل الظروف المتبدلة . وأسفرت خمسة أشهر من المساومة العنيدة عن معاهدة التسوية بتاريخ ١٨ شباط سنة ١٢٢٩ ، وهي المعاهدة التي تلقّتها معظم الأوساط الإسلامية بسخط عنيف وقد أسهمت على وجه التأكيد في تصليب المقاومة ضد الأشرف بدمشق (١١) . على أن قاضي حماه يعرب عن استحقاقه ، في ما يُحتمل أنه نسخة طبق الأصل عن رسالة الكامل السيّارة ، لما أبداه السلطان من الحنكة السياسية في ضمان نعمة السلام السامية لمسلمي بلاد الشام ولقاء ذلك الثمن الزهيد . ثم يضيف ، وهذا بمثابة تلخيص لشروط المعاهدة ، قائلاً بأن التخلّي عن الأقاليم كان محصوراً بالقدس وحدها ، فلم يشمل الكثير ولا هو شمل القليل من بلادها وأعمالها ، واشترط فيها على الفرنجة ألاّ يقوموا بإعادة بناء شيء في القدس على الإطلاق ، «لا من السور ولا من المساكن» وألاّ يتخطّوا خندقها المائي . كما اشترطت المعاهدة على الفرنجة أن يقوم السكان المسلمون بتأدية صلاة الجمعة في القدس ، وألاّ يُنصّر إلى إعاقه أي مسلم عن القيام بزيارة القدس في أي وقت يشاء ، وألاّ يُعجى المال من أي زائر لها (١٢) .

١١ - بشأن هذه المعاهدة ، انظر المصدر نفسه أعلاه ، الفصل ١٢ : ٤٥٢ - ٤٥٨ .

١٢ - هو شهاب الدين ابن أبي دم ، مخطوطة بودليان Marsh 60 ، وقد أضيفت إليها السنة ٦٢٥ . أما البنود التي يذكرها جيرلاد من المعاهدة فلا يبدو أنها مذكورة في أي مصدر عربي .

وعلى وجه التأكيد ، فقد استطاع الكامل عقب زيارة فردريك للقدس (١٣) وعودته إلى عكا في شهر آذار ، وبناء لطلب من الأشرف ، ان يشارك في حصار دمشق (شهر نيسان) هذا الحصار الذي نفّذه على درجة من القسوة والتدمير بات معها داوود مرغماً على تسليم المدينة في ٢٥ حزيران مقابل منحه شرقي الاردن وفلسطين الشرقية ، ومن جعلتها نابلس وناحية القدس .

وأعقبت احتلال الأشرف لدمشق إعادة توزيع رئيسية للبلاد . فبقي هو مالكا لأخلاط وديار بكر واحتفظ بسيادته على حلب ، لكنه تخلى للكامل عن الجزيرة ، فقام هذا أيضاً بضم فلسطين الغربية ومعها طبريا . على انه ليس من الواضح تماماً ماذا كان الغرض من وراء هذا التشابك في الممتلكات العائدة للأميرين الأقويين بين الأمراء الأيوبيين . فقد كان على الأرجح وسيلة كي يأمن بها الواحد منهما جانب الآخر من جديد ، لكنها منحت الكامل في الواقع تفوقاً لا جدال فيه — وهو تفوق تعزز أكثر بحصاره لحماه في شهر آب سنة ١٢٢٩ وإعادة تولية الوريث الشرعي عليها : المظفر تقي الدين الثاني ، بعد ان كان أخوه الأصغر الناصر كلج ارسلان قد اغتصب المنصب لنفسه في اثناء حملة دمياط وتحت حماية الأشرف . ثم ، بينما كان الأشرف يستهلك قواته في حصار طويل لبلعبك ، قام الكامل باحتلال ممتلكاته الجديدة في الجزيرة . وفي آن واحد معاً هاجم جلال الدين أخلاط مرة أخرى ، فلم تلتق حاميتها أي دعم من أميرها الأشرف وسوى مساعدة متأخرة وغير كافية من الكامل ، مما حملها على التسليم بعد حصار استغرق سبعة أشهر (نيسان ١٢٣٠) ، لكي يتعرض السكان بأجمعهم اما للهلاك في المدبحة أو للأسر والنقل بالقوة . فتقدم السلطان

١٣ — يختلف النص الأصلي لسبط ابن الجوزي ، وهو الذي توصف فيه حوادث زيارة فردريك ، إلى حد ما عن التعديلات المستقاة بتصريف من المصادر المتأخرة لدى «ميشو»
Bibliothèque, وغروسيه, 317 - 316, **Histoire des Croisades**, III, 431 - 432, ويورد ابن راصل كذلك رواية مباشرة من الزيارة .

السلجوقي كيقباز عند هذه المرحلة الخامسة عارضاً على الكامل إقامة تحالف ضدّ جلال الدين ، وأسرع الأشرف نحو الشمال ، فتسلّم قيادة الجيوش الأيوبيّة وانضمّ إلى السلطان بالقرب من أرزنجان . وأنزلت بالخوارزميين هزيمة كاسحة في معركة ضارية (١٠ آب) ، بينما فرّ جلال الدين إلى تبريز وأعاد الأشرف احتلال خرائب أنخراط (١٤) .

واغتتم الرثاء العسكريون (الدين لم تشملهم بنود المعاهدة) فرصة غياب الكامل في الشمال فقاموا بشن هجمات على بعرين (كانون الأول ١٢٢٩) وحماه (٥ تموز ، ١٢٣٠) ، لكن المظفر تمكّن من صدّ هذه الهجمات . وأغاروا في السنة التالية على جبلة ، مثلما قامت غارات مضادة من حلب على قلعة المرقب وفلانيا (شباط ١٢٣١) إلى أن تمّ التوقيع على هدنة في حزيران . ومن الجانب الآخر ، قام رجال القبائل العربيّة (البدو) بعد أن حرّكهم الدعاة الغوغائيون . بمهاجمة الحجاج في القدس ، وعلى الطرقات إلى أن تسبّى كبيح جماعهم . لكن حبل الأمن العام استتبّ من جديد استتباباً كلياً في وجه العموم ، واستطاع الكامل والأشرف في سنة ١٢٣٢ ان يستأنفا حملتهما لتقوية السيطرة الأيوبيّة في بلاد ما بين النهرين وديار بكر ، اللّتين كانت تتهدّدهما الجيوش المغوليّة في بلاد فارس وما وراء القوقاز . وتمّ أخيراً تجريد الارتقيين من معانقهم القويّة في آميدا وحصن كيفا ، فمُنحت هذه الأخيرة للصالح أيوب وهو الابن الأكبر للكامل .

لقد أصبح الكامل الآن في ذروة سلطانه ، يتودّد إليه أمراء فارس ويزوره السفراء حتى من الهند واسبانيا . وليس مما يدعو إلى الدهشة والتعجّب أن يكون هذا النجاح ، كما يُلَمَح في بعض الأحيان ، قد دوّخ رأسه واستثار مطامحه .

١٤ - فيما يتعلق بالخوارزميين والسلجقة سنة ١٢٣٠ انظر :

A History of the Crusades Vol. II, Chapt. XIX, pp. 673, 683.

ولم يطل انتظار مجيء الأزيمة . فالسلطنة السلجوقية كانت قد وصلت هي ايضاً إلى أوج من القوة في ظلّ السلطان كيقيباذ ، وصارت الآن تنقسم حدوداً مشتركة مع الأيوبيين . واستولى كيقيباذ على أخلط (سنة ١٢٣٣) لكي يحدّجبال استخدام للعصابات الخوارزمية التي طردها المغول إلى بلاد الاناضول في أعقاب وفاة جلال الدين . فلبّى جميع الأمراء الأيوبيين نداءات الكامل في صيف سنة ١٢٣٤ ، لكن جيوشهم عجزت عن شقّ طريق لها في ممرّات جبال طوروس بوجه الدفاعات السلجوقية . وأرسل الكامل في أثناء انسحابه كتيبة من العساكر للدفاع عن خربوط ، فانهزمت الكتيبة وتمّ استيلاء القوات السلجوقية على خربوط نفسها في شهر آب . وجاءت هذه الانتكاسات لتصبّ زيتاً في محرقة الاستياء الخالص الذي غلت به صدور الأمراء الشاميين ضد الكامل ، فقام المظفر صاحب حمّاه (وهو الذي كان الضحية الرئيسية للقتل في خربوط) وأخذ زمام المبادرة في فتح باب المفاوضات مع كيقيباذ . واكتشف الكامل هذه المكيدة ، فعاد إلى مصر غاضباً ، وتفرّقت الجيوش . ثمّ اجتاح كيقيباذ ولاية الكامل في الجزيرة كلّها دون ان يواجه مقاومة ، ونقل سكانها بالقوة . غير ان الكامل عقد صلحه في السنة التالية مع الشاميين ، وقام في تنسيق مع الأشرف باسترداد الجزيرة في شهري كانون الثاني وشباط سنة ١٢٣٦ ، ثمّ أرسل ٣,٠٠٠ أسير من السلاجقة إلى مصر ، وعمد إلى تولية الصالح أيوب حكم جميع ممتلكاته الشرقية . وفي أعقاب انسحابه عاد السلاجقة إلى مهاجمة اميدا وخربوا دارا (شهر آب) ، ويرجّح انهم فعلوا ذلك انتقاماً منهم لتخريب الأيوبيين عدّة قلاع محصّنة تابعة للماردين ، وهي الإمارة الارتقية الوحيدة التي تبقت في ديار بكر .

وتوفي العزيز محمد أمير حلب في ٢٦ تشرين الثاني ، تاركاً ابنه البالغ سبع سنوات من العمر حيث حمل هذا الابن اسم جدّة الأكبر صلاح الدين والقابه التضخيمية ، فدُعي الناصر صلاح الدين يوسف ، وكان تحت وصاية جدّه

ضيفة ، وهي أخت الكامل . ولما ساورتها الشكوك ، عن حق أم عن خطأ ، بأن الكامل كان يخطط المكائد لحلب ، بادرت ضيفة إلى تشكيل تحالف مع الأشرف الذي كان بدوره غير راضٍ عن تقسيم البلدان الارتقية . فلجأ الكامل إلى تدبير إنتقامي سريع بدعوة الناصر داوود من الكرك إلى مصر وتوليته حكم دمشق . وعلى غرار ما حدث في المناسبة السابقة ، فإن المتحالفين الشاميين سعوا للحصول على تأييد السلطان السلجوقي كيقباز ضد تدخل الكامل ، ولما توفي كيقباز (٣١ أيار ، سنة ١٢٣٧) التفتوا صوب خلفه كيخسرو الثاني ، وقاموا بتوجيه إنذار للكامل يحذرونه من الزحف على بلاد الشام . إلا أن الأشرف توفي بعد أشهر ثلاثة فقط (٢٨ آب) مخلفاً حكم دمشق لأخيه الصالح اسماعيل . ومما أضعف التحالف الشامي خروج المظفر أمير حمص وإنحيازه إلى جانب الكامل ، فقام هذا الأخير بمحاصرة دمشق في شهر تشرين الثاني ومضى في هجمته حتى استسلم اسماعيل في ٢٩ كانون الاول وتم نقله إلى بعلبك . أما عساكر حلفائه الشاميين فقد سُمح لهم بالانسحاب دون أي تحرش بهم ، لكن المظفر أرسل إلى حمص لاستيفاء الجزاء منها . بينما راح الكامل يعد العدة للزحف على حلب . وكان ولاية حلب وحكامها قد أعدوا العدة كلها للحصار المتوقع وجنّدوا العساكر التركمانية والسلجوقية للدفاع عن المدينة ، فما كان من الكامل نفسه حتى توفي بدمشق في ٩ آذار سنة ١٢٣٨ .

وتؤلف شخصية الكامل مشكلة من أشد المشكلات تعقيداً في التاريخ الأيوبي . حتى ان سبط ابن الجوزي ، وهو الذي ألقى تلك العظة ضده في دمشق عندما وصلت أخبار معاهدته مع فردريك ، يتحدث عنه بعبارات الإعجاب فيصفه بالشجاع والحصيف ومحبة العلم ، مثلما يصفه بالعدل والكرم إلى الدرجة القصوى . فقد فرض الكامل احتراماً وخشية لم يفرضهما أي واحد من الأيوبيين قبله ، ونشر لواء الانضباط بين صفوف عساكره حتى قيل إن أحدهم لم يتجرأ في أثناء الحملات على مد يده لأخذ عود قش من مزارع . وكان صادقاً في

كلمته وفيّاً بها . فانتزع من اقربائه الولاء المتوجب له كسلطان . أمسا في
التحارب ، فقد كان هو المنتصر دائماً في النهاية ، لكنّه كره الحرب والكيد
كرهاً شديداً ، وفضّل الوصول إلى مبتغاه عن طريق التفاوض . لقد جاء على
نحو لافت للنظر ندّاً لفردريك في بعض الوجوه . وربما تجلّى ذلك بنوع خاص
في ترفعه عن أهواء عصره وفي تفوّقه اللامبالي لإزاء معاصريه . على أن رعاياه
لم ينظروا إليه نظرة محبة وهو لم يكن واثقاً أبداً من إخلاص عساكره ، وليس
مردّاً ذلك إلى إغضابه الرأي العام عندما تخلّى عن القدس فحسب ، بل جاء
بالأحرى عن طريق التقابل بينه وبين شخصية أخيه المعظم وما عرف عن
هذه الشخصية من انفتاح ودفء إنساني . حتى أنه أضطّر قبل أربع سنوات من
وفاته إلى إبعاد ابنه الأكبر ووريثه ، الصالح أيوب ، من مصر في همة الاشتباه
به أنه يقوم بتجنيد عساكر المماليك للثورة ضد أبيه ، لكنه ما لبث أن استماله
على نحو مميّز بمنحه ميداناً جديداً ومفتوحاً لممارسة مواهبه في بلاد ما بسين
النهرين .

أدّى ابتعاد الكامل بشخصيته المهيمنة عن المسرح إلى زجّ الأمراء الأيوبيين
على الفور في خضمّ منافسات عنيفة ومضطربة . فاعترف أمراء الجيش المصريون
بابنه العادل أبو بكر الثاني سلطاناً ، وكان الكامل قد عيّنه خلفاً له محلّ الصالح
أيوب ، ثم قام أولئك الأمراء أيضاً بتسمية الجوّاد يونس (وهو حفيد للعادل
الأول وزوج ابنة الأشرف الوحيدة) أميراً على دمشق ، واجبروا الناصر داوود
على الرجوع إلى الكرك . فانتقل جيش حلب من الدفاع إلى الهجوم ، واستولى على
معرة النعمان ، وحاصر حماه بينما عمد ولاّتها إلى تجديد التحالف مع السلطان
كيخسرو الثاني ورفضوا العروض التي تقدم بها على التوالي كل من الصالح
أيوب والعادل الثاني والجوّاد . وكان الصالح أيوب يواجه متاعب مع الخوارزميين
الذين تخلّوا عن خدمة كيوخسرو وانضمّوا إلى ارتق ارسلان صاحب ماردين .
فقرّ إلى سنجار ، لكنه عندما حاصره هناك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل

أرسل قاضي سنجار متخفياً إلى الخوارزميين لكي يتوسل ان يقفوا بجانبه .
فرحف هؤلاء على سنجار وهزموا قوات الموصل ، ثم قاموا بطرد جيش
سلجوقي كان قد ضرب حصاراً حول اميدا ، واستولى على حصن نصيبين
وإقليم الخابور من أجل الصالح أيوب ، فأعطاهم هذا بالمقابل ولاية ديسار
مُضَر (في غربي الجزيرة) .

وكان الجوّاد عند اواخر سنة ١٢٣٨ قد أخذ يتخوّف من هجوم مصري
بالاتفاق مع الناصر داوود ، فدعا أيوب إلى امتلاك دمشق مقابل اعطائه بعض
النواحي في بلاد ما بين النهرين . لكنه سبق لأيوب ان اكتسب شهرة قرعت
ناقوس الخطر لدى جيران دمشق . وعليه ، فلمّا فرغ من توطيد نفسه بدمشق
وتقدّم على فلسطين لتنظيم غزو مصر من هناك ، برز له من جديد عمه الصالح
اسماعيل الذي خرج من بعلبك برفقة المجاهد صاحب حمص ، واستولى على
دمشق من ابن أيوب المغيث عمر (في ٣٠ أيلول سنة ١٢٣٩) . ووقع أيوب في
الأسر على يد الناصر داوود في نابلس ، بعد ان هجره جميع عساكره فيما عدا
٨٠ مملوكاً ، ثم سجنه الناصر في الكرك .

وانتهت عند هذه المرحلة الحاسمة مدّة المعاهدة التي تمّ التفاوض حولها مع
فردريك على ان تدوم عشر سنوات وخمسة أشهر وأربعين يوماً ابتداءً من ١٨
شباط سنة ١٢٢٨ ، فأستأنف الصليبيون نشاطاتهم تحت امره ثيوبالد
الكمباني (Theobald of champagne) (١٥) وأرسل العادل الثاني قوّة إلى
فلسطين في شهر تشرين الأول ، حيث انزلت بالصليبيين خسائر فادحة بالقرب
من عسقلان (١٣ تشرين الأول) مما حملهم على التخلّي عن مشروعهم في إعادة
تحصين عسقلان . ثم قام الناصر داوود في الشهر نفسه بحاصرة القدس ، بعد
ان كان الفرنجة قد بدأوا في إعادة بناء تحصيناتها الدفاعيّة ، ونجح في منتصف

١٥ - انظر تاريخ الحملات الصليبية ، المصدر السابق ، ج ٢ . الفصل ١٣ .

شهر كانون الأول في اقتحام برج الملك داوود واحتلال المدينة من جديد . بيد أنه على الرغم من هذه الانتصارات المحلية لم يكن الامراء الايوبيون ولا كانت الإمارات الأيوبيّة في وضع يسمح لهم ولها بالدخول في أية عمليات جدية . فقد كانت الأمور في مصر بنوع خاص وتحت حكم السلطان الصغير العادل الثاني ، تسير من سيء إلى أسوأ . وكان هذا قد أنفق بتبذيره المتهور تلك الأموال الاحتياطية البالغة (والتي قدّرت بستة ملايين دينار وعشرين مليون درهم) التي خلفها الكامل ، كما انه نشب عدااء مكشوف بين الأكراد والأتراك في الجيش المصري . فالملك كانوا يعانون الظلم ويميلون إلى التمرد ، ولقد بلغ بالعساكر احتقارهم للعادل مبلغاً جعل الأمير ركن الدين الحجاوي (وهو القائد الذي هزم الصليبيين في عسقلان) يبادر إلى صفع العبد الأسود الذي كان يحمل إبريق العادل السلطاني وإلى انتزاع الرنك من بين يديه ، عندما راح حامل الأبريق في إحدى المناسبات يطلع الأمير مزهواً على «الرنك» (الشارة أو الرمز) الذي تلقاه السلطان لتوّه تقديرًا لإحدى بطولاته العسكرية .^٩

وأخذ المظفر تقي الدين الثاني ، أمير حماه ، زمام المبادرة في حقن النظام الأيوبي بشيء من العزم المنشط والتصميم الجديد . وكان هذا مخلصاً لسياسة التحالف مع مصر ضد الحلف الذي أصبح بمثابة تقليد الآن وتألّف من دمشق وحمص وحلب ، فاعتبر ان تولية سلطان قوي في مصر هي شأن على الدرجة الأولى من الأهمية ، وتركزت آماله المعقودة كلها على الصالح أيوب . لقد تكلّلت بالنجاح توسلاته إلى الناصر داوود ، فأقدم هذا الأخير على إطلاق سراح أيوب في ١١ نيسان سنة ١٢٤٠ بناء على اتفاق محلّف أقسم فيه المظفر بتحويل دمشق وبلاد ما بين النهرين إلى ولاية داوود لقاء مساعدة الأخير له على توطين نفسه في مصر . وجرى في الوقت نفسه تبليغ رسائل إلى الخوارزميين تستحثهم على مهاجمة حلب وحمص . فابتسم الحظّ لأيوب هذه المرة فجأة ، بعد ان جافاه تلك المفاجأة في المرّات السابقة . وثيما كان العادل يستعدّ للزحف

على فلسطين لمواجهة داوود وأيوب : قامت عساكره التركيّة باعتقاله في بلبيس يوم الرابع من أيار . وأرسلت إلى أيوب دعوة عاجلة . فدخل القاهرة في ٨ أيار لكي يُستقبل سلطاناً .

وتسبّب نجاح الصالح أيوب في مصر في إيقاظ حذر شديد لدى عمّه الصالح إسماعيل بدمشق الذي خشي : ولم تكن خشيته دون مبرّر (مع ان أيوب كان قد تنازع مع داوود) ان يكون الصالح مصمّماً على الإحاطة به أيضاً . وبما ان الخوارجيين كانوا يقومون بعملياتهم على حدود حلب ، فلم يكن بوسعهم الأمل في الحصول على تأييد يستحقّ الذكر من تلك الناحية . فالتفت تبعاً لذلك صوب الصليبيين ، وحاز على موافقة ثيو بالد والداوية في إنشاء تحالف دفاعي ضد مصر لقاء تنازله عن صفد وشقيف ارنون وبقية صيدا وطبريا ، ثم احتشدت الجيوش المشتركة في يافا . حتى ان اسماعيل سمح للصليبيين في ان يدخلوا دمشق لابتياح الأسلحة : فأدّى عمله هذا إلى إغضب سكاك دمشق المسلمين وإثارة إستيائهم الشديد .

غير ان الصالح أيوب كان منهمكاً أشد الانهماك في إعادة تنظيم مملكته وجيشه . فقد أقتعته تجربته مع الأكراد الذين هجروه في فلسطين خلال السنة السابقة ، مثلما أقتعه تردّ العساكر الأيوبيّة على النظام في مصر وعدم إخلاصها لأبيه وأخيه ، بان الاعتماد على هؤلاء واولئك هو امر متعلّز . وبعد أن أخذ مشاغبات العربان في صعيد مصر بعنف شديد ، وأعاد الاستقرار المالي ، وطّد نفسه على خلق فرقة جديدة من الممالك الأتراك المنتقين وتكوينها بشكل منتظم ، ثم عمد إلى إقطاع هؤلاء الممالك الإقطاعات والمناصب التي كان يحتلّها أمراء العساكر «الكاملية» و «الأشرفية» ، وإلى تشييد قلعة وتكنات جديدة لهم في جزيرة الروضة بقرب القاهرة . واتجه القسم الأكبر من الاهتمام الذي أولاه الصالح أيوب للشؤون الخارجية ، بدلاً من ان يولي اهتمامه للأحداث الجارية

في بلاد الشام(١٦) ، إلى إرسال قوة من عساكر المماليك لطرد اليمينيّين من مكة وإلى إعداد اسطول عند السويس لشن حملة على اليمن . فقد أزالّت المفاوضات التي بدأها ريتشارد أوف كورنول في شهر كانون الأول سنة ١٢٤٠ دون ريب أية مخاوف ربما تكون قد ساورت الصالح . ولعلّ تأخيرها في الموافقة على الاعتراف باحتلال الصليبيين لعسقلان وعلى إطلاق سراح الأسرى المحتجزين في مصر كان مرده إلى استخدامه للأسرى في أعمال منشأته العسكرية .

وقام الخوارزميون . حلفاء الصالح أيوب الشماليون ، في أثناء هذه المفاوضات بمهاجمة بلدان حلب ، فالحقوا بجيش حلب هزيمة نكراء (وهو الجيش الذي قاده ابن صلاح الدين : المعظم توران شاه) عند قلعة بزاعة في ١١ تشرين الثاني سنة ١٢٤٠ ، ونهبوا الأرياف التابعة لحلب كما استولوا على منبج . فتحرّك أمير حمص الجليلي المنصور لإبراهيم . وكان أبوه المجاهد قد توفي لتوّه ، لنجدة أقربائه ، وأرسلت عساكر إضافية من دمشق(١٧) ولمّا شن الخوارزميون غارتهم الثانية للنهب في شهر كانون الثاني ، وخرّبوا أثناء سيرها مناطق سمرين وشيزر ، قامت القوات المتحالفة بتعقبهم عبر الفرات وهزمتهم بالقرب من الرها في ٦ آذار سنة ١٢٤١ ، فتمّ اقتسام مدن الجزيرة بين المنتصرين وبندر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، ثم اجتمع جيش حلب مع قوة سلجوقية وسار الاثنان ضد توران شاه ابن الصالح أيوب ونائبه ، فأرغموه على التنازل عن أميسدا للسلطان السلجوقي كيخسرو الثاني. ولم تمض بضعة أشهر حتى كان الخوارزميون . بعد ان تجهّزوا ثانية في عانة ، قد تحالفوا مع المظفر غازي صاحب ميافارقين

١٦ - بشأن الحركة المزعومة بين المصريين وبين الصليبيين وقوات دمشق في صيف سنة ١٢٤٠ ، انظر حاشية ستيفنسون في الصفحة ٣٢١ من كتابه **The Crusaders in the East** .
١٧ - يربط مؤرخ حلب ، كمال الدين ، الاتفاقية مع دمشق بالاطلاق سراح أسرى الداوية المسجونين في حلب ، وإن يكن هذا الربط غير مباشر : بغية الطالب في تاريخ حلب (ترجمة بلوشيه) ، ص ٢١٣ .

وهاجموا عميدة (في شهر آب سنة ١٢٤١) . فهب المنصور صاحب حمص للنجدة ثانية في ربيع العام التالي ، بعد ان كانت عساكر حلب والسلاجقة قد شنت حملة غير حاسمة في الحريف ، وألحق بهم هزيمة أشد قذاحة من الهزيمة السابقة بالقرب من المجلد على نهر الخابور في ٢٢ آب سنة ١٢٤٢ . لكن أعمالهم في السلب والنهب استمرت في الجزيرة حتى مجيء ربيع سنة ١٢٤٣ ، وذلك عندما وجد السلطان السلجوقي أنه مهدد بخطر اجتياح مغولي لبلاد الاناضول ، فأسرع إلى عقد إتفاق أعطي الخوارزميون بموجبه خربوط وتعينت أخطا للمظفر غازي . إلا أن الموقف في الشمال تبدل تبديلاً كلياً عندما ألحق المغول بكيخسرو هزيمة ساحقة في الثاني من تموز (١٨) ، فاحتل المغول عميدة وأخطا وأخذوا يتهددون بلاد ما بين النهرين كلها بخطر جدّي .

وكانت للصراع في الشمال مضاعفاته في الجنوب أيضاً . فقد بقي اسماعيل صاحب دمشق خاملاً بعد ان تمّ حرمانه من تأييد حمص ، وانخفضت العمليات إلى مجرد تناوش ، وتصدّى داوود صاحب الكرك ، ومعه الداوية لحملة مصرية انطلقت من غزة فهزمها قرب القدس في شهر أيار سنة ١٢٤٢ ، لكنه انضم بعد أشهر قليلة ، وعقب غارة شنتها الصليبيون على نابلس (٣١ تشرين الأول) ، إلى عساكر غزة في غارات انتقامية على بلاد الصليبيين . وتبدّى لوهلة ان انتصار المغول قد صدم الايوبيين وأوقع الدعر في نفوسهم مما حملهم على القيام بمحاولة لتسوية منازعاتهم ، لكن المفاوضات أخفقت بفعل الشكوك التي ساورت الصالح اسماعيل حول أيوب . فعمد اسماعيل إلى تجديد التحالف مع الفرنجة ، بدلاً من استئناف المفاوضات الأيوبية ، وقام في ربيع سنة ١٢٤٤ بتخليكهم

١٨ - المصدر نفسه ، ص ٢٢٦ . ويذكر ابن بيبى ٢٦ حزيران كتاريخ . وانظر بشأن معركة كوزداغ ونتائجها

A History of the Crusades Vol. II, Chapt. XIX, pp. 691 - 692, and Chapt. XXI, pp. 725 - 732.

على القدس تمليكاً كاملاً^{١٩} بالاتفاق مع داوود صاحب الكرك والمنصور صاحب حمص . وما كان قد بدا انه خيانة فظيعة وغدر شنيع من جانب الكامل قبل خمس عشرة سنة ، أصبح الآن من الأمور المسلّم بها ، وحتى إلى حدّ التخلّي عن مسجد قبّة الصخرة .

كانت شكوك الصالح اسماعيل لها ما يبرّرها . فقد أرسل المظفر صاحب حمص سفارة إلى الأمراء الشرقيّين وإلى بغداد في شهر حزيران سنة ١٢٤٣ . ومن المؤكّد تقريباً انه تصرف هذا التصرف بالتفاهم مع الصالح أيوب ، وأصدر تعليماته إلى قائد السفارة ان يجري اتصالاً مع الخوارزميين في طريقه ، وان يدعو زعيمهم بركة خان إلى تأييد أيوب ضد أعدائه الشاميين . واكتسح مايزيد على العشرة آلاف من الخوارزميين سهل البقاع في صيف سنة ١٢٤٤ . ثم استولوا على القدس بعد حصار قصير (٢٣ آب) واحتلّوا فلسطين ، وانضمّوا إلى العساكر المصريّة في غزّة . فأخذ المنصور صاحب حمص زمام المبادرة مرّة ثانية في تكوين تحالف يضمّ المسلمين الشاميين والفرنجية للوقوف بوجههم . وتقدّمت الجيوش المجتمعة لكل من حمص ودمشق والكرك وعكا في اتجاه غزّة . واستطاع الخوارزميون والمصريون بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس (١٩) ان يحرّقوا صفوف عساكر المسلمين في الميسرة والقلب ، فقام الخوارزميون عندئذ بتطويق الفرنجة ولم يتمكن من النجاة والهرب سوى قرابة خمسين رجلاً من فرسان الداوية والاسبتاريّة (١٧ تشرين الاول) (٢٠) .

١٩ - يجب ألا نخلط بين بيبرس هذا والسلطان الماوكي الذي يعمل الامم نفسه والقب ، وقد قبض على بيبرس المذكور أعلاه بعد أشهر قليلة من تحالفه الغادر مع الخوارزميين ، وتوفي في السجن . أما بيبرس الثاني ، سلطان المستقبل ، فلم يدخل خدمة الصالح أيوب إلا في سنة ١١٤٧ ، وذلك عندما نفى سيده البندقدار ، وانخرط ماليك هذا السيد في حرس الأيوّب (الذهبي ، أضف سنة ٥٦٤٥ ومن هنا جاء لقبه البندقداري .

٢٠ - انظر بشأن وقعة الحربية

A History of the Crusades, Vol II, Chapt. XVI, pp. 562 - 564

فما كان من بيبرس حتى سار فوراً على رأس فرقته لمحاصرة عسقلان ، بينما استولى ولاية الصالح أيوب على فلسطين . وحدث بعد ذلك بزم من قصير ان توفي المغيث بن أيوب في سجنه بدمشق الذي كان محتجزاً فيه منذ سنة ١٢٣٩ ، فاستبد الغضب بأبيه وقام أيوب بتعزيز عساكره ثم سيرهم إلى جانب الخوارزميين للزحف على دمشق . واستسلم إسماعيل والمنصور بشروط . بعد حصار مريز دام طيلة الصيف التالي كله (٢ تشرين الأول ، سنة ١٢٤٥) ، فأعطى الأول بعلبك وبصرى . مما قوبل باستياء شديد من جانب أيوب . وكان قد احتل دمشق القائد المصري معين الدين الشيخ ، فجاء أول عمل له بحظر الخوارزميين من دخول المدينة لإنقاذها من مخبة عنفهم ، ثم عين لهم فلسطين الغربية . فتمرد الخوارزميون . بعد ان حرموا من الوصول إلى غنائمهم المرتبة ، وكسبوا إلى جانبهم القائد المصري في غزة ركن الدين بيبرس ، بعد ان قاموا بنهب قسم من الغوطة ، ثم تحالفوا مع داوود صاحب الكرك (فاسترد هذا القدس و نابلس والتحليل نتيجة ذلك التحالف) ، وعملوا في خدمة الصالح إسماعيل لكي يحاصروا بالأصالة عنه شركاءهم السابقين في دمشق .

وكان الاحتمال في ان يقوم الخوارزميون بنهب دمشق أمراً له وقع مؤثر في نفس المنصور صاحب حمص . فتخاصم مع إسماعيل وانحاز إلى جانب حلب فتحالف معها ، واخذ يعد العدة للتعاون مع المصريين في رفع الحصار عن دمشق . غير ان الخوارزميين الذين كانوا قد حاصروا المدينة طيلة اشهر ثلاثة انسحبوا قبل ان يتسنى للمنصور تحقيق وحدته واستداروا لمعالجة أمره ، ناهين وتخريين كل ما وقع في طريقهم . فتصدت لهم خارج حمص عساكر حمص وحلب ، تعزّزها سرايا من الخيالة العرب والتركمان ، وهزمتهم هزيمة كاملة (في ١٩ أو ٢١ أيار ، سنة ١٢٤٦) وكانت هذه نهاية الخوارزميين كقوة مقاتلة ، فتشتت بقاياهم لكي تبحث عن خدمة يمكنها القيام بها . أما الصالح إسماعيل فقد فرّ إلى حلب ، تاركاً بعلبك ليحتلها حاكم دمشق ، ونُقسل

ابناؤه أسرى إلى المنفى في مصر ، لكن الناصر يوسف رفض الاستجابة لطلب أيوب في أن يسلمه إسماعيل . وتصدت قوة مصرية لداود صاحب الكرك فهزمته عند السلط في ١١ ايلول ، ثم حاصرت في الكرك وسمحت له أخيراً أن يحتفظ بالكرك مقابل تخليه عن جميع أراضيه الأخرى وعن الخوارزميين الذين التحقوا في خدمته . ثم بدأ الصالح أيوب في آذار سنة ١٢٤٧ جولة رسمية لتفقد ممتلكاته الشامية ، فقدّم الهبات للمدارس والأوقاف الدينية والأعيان ، بينما كانت عساكره بقيادة فخر الدين ابن الشيخ تستولي على طبريا في شهر حزيران بعد أن واجهت مقاومة جريئة . ثم مضت هذه العساكر إلى محاصرة عسقلان والاستيلاء عليها وتجريد قلعتها التي أعيد بناؤها حديثاً من وسائلها الدفاعية وتحصيناتها (٢٤ تشرين الأول) .

وكان المنصور صاحب حمص قد توفي بالسلّ عقب أشهر من انتصاره على الخوارزميين ، فخضع ابنه الصغير الأشرف موسى الثاني لسيطرة أيوب كلياً . فأدّى تخفيض حمص إلى منزلة الإمارة التابعة والتخلص الفعلي من إمارة الكرك إلى إحداث تبدل خطير في ميزان القوى ببلاد الشام ، وجاء هذا التبدل في غير مصلحة الناصر يوسف ، صاحب حلب الشاب والطموح . وتسمّ اجتذاب أمير حماه ، المنصور محمد ، البالغ من العمر أربعة عشر عاماً (وكان هذا الفتى قد خلف المظفر بعد موته في تشرين الأول سنة ١٢٤٣) إلى فلك حلب بتزويجه من ابنة عمه عائشة ، أخت الناصر يوسف . ولما كان الصالح أيوب ، الذي سبق له أن عانى من دائه المميت ، قد التفت نحو مصر في العام التالي ، فإن الناصر يوسف قام بتشكيل حلف مع بدر الدين ثولج صاحب الموصل وبضرب حصار على حمص . ممّا أرغم الأشرف موسى ، بعد أن تأخّر وصول التجندات المصرية الموعودة ، على تسليم حمص والقبول بتلّ باشر بدلاً عنها كتابع ليوسف . غير أن أيوب زحف على دمشق ، بالرغم من مرضه الخطير ، وحاصر حمص في منتصف الشتاء ، لكن حالته الصحية المتدهورة والأخبار الواردة عن احتشاد

الصلبيين في جزيرة قبرص أقنعته في أن يقبل شفاعة رسول أوفده الخليفة المستعصم وإن يتوصل إلى تفاهم مع يوسف . وجرى نقل أيوب إلى مصر في ١٩ نيسان سنة ١٢٤٩ ، فأصدر أوامره على الفور بأن يتم تزويد دمياط بمخازن أسلحة ومؤن وأن يتم في القاهرة تجهيز أسطول نهري (٢١) .

ولم يترك تراجع القائد المصري فخر الدين ابن الشيخ عن دمياط في اليوم التالي لوصول أسطول الصليبيين ، وهو تراجع غير متوقع ولا تفسير له ، وقد نجم عنه إخلاء للمدينة — لم يترك للصالح أيوب سوى خيار واحد : ألا وهو تركيز قواته على معسكر المنصورة المحصن . فقد قامت عساكره الدمشقية ، خلال الفاصل الزمني الطويل الذي تلى ذلك ، بمحاصرة صيدا والاستيلاء عليها (بين شهري تموز — آب) وذهب داوود للانضمام إلى الناصر يوسف في حلب ، تاركاً ابنائه يتقاتلون على الكرك ، لكي يحتلها حاكم مصري في نهاية الأمر . إلا أن وفاة أيوب في ٢٢ تشرين الثاني لم تؤثر في الموقف المباشر ، وذلك بفضل الآلة القتالية الناجحة التي كان قد أوجدها وبفضل الشخصية القوية لمحظيته شجر الدر . وهي التي كتمت نبأ وفاته وقامت بالسيطرة على الإدارة باسمه . وقد استدعت شجر الدر ، بالاتفاق مع المماليك البحرية ، ابنه توران شاه من حصن كيفا ، لكن هذا الأخير لم يصل إلا عند نهاية شهر شباط .

وفي تلك الأثناء كانت الحملة الشاقة عند المنصورة قد أسفرت عن إعادة رصف بارزة للقوات في الجيش المصري ، علماً بأن العساكر النظامية تلقّت في تلك الحملة دعم عصابات مصرية من المتطوعين ، وهم الذين استشار حماسهم الوعظ الذي ألقاه فيهم الشيخ المراكشي أحمد البدوي . وخلال المعركة التي تلت في ٨ شباط سنة ١٢٥٠ ، وعندما قام الصليبيون بعبور إحدى المخاضات

٢١ — فيما يتعلق بالحملة الصليبية التي قادها لويس التاسع ، انظر

A History of the Crusades, Vol. II, Chapt. XIV, pp. 494 – 504.

وهاجموا المعسكر المصري ، فإن وفاة فخر الدين الشيخ قد تلاها انتشار الذعر بين صفوف عساكره ، لكن استعادة المركز تمت بفضل هجوم مضاد عنيف شنته المماليك البحرية بقيادة ركن الدين بيبرس البندقداري . فأصبح المماليك البحرية منذ هذه اللحظة في مركز السلطة والسيطرة ، وهم الذين جنوا الفضل الأكبر من عملية القضاء على جيش الصليبيين عند فارسكور في السادس من شهر نيسان . وعليه ، فإنهم لم يكونوا على مزاج يسمح لهم بالإذعان لمحاولات توران شاه إلى استبدالهم في مناصب الدولة بجماعته من العراقيين . فازدادت حدة الانفعال لدى الجنابيين ، وعندما قام توران شاه بارسال كتاب تهديد إلى شجر الدر ، كان كتابه بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير . وعمد ضباط المماليك تحت قيادة بيبرس إلى مهاجمة توران شاه وقتله يوم الاثنين في ٢ أيار ، لاعتقادهم بأن توران شاه قد قرّر التخلص منهم ، ثم بادروا إلى إعلان شجر الدر سلطانة على مصر ومليكة للمسلمين . أما المفاوضات مع لويس التاسع فقد أوصليها إلى خاتمة نائب أيوب السابق ، الهلباني ، وأعيد احتلال دمياط في السادس من أيار (٢٢) .

وتنزع الطريقة المسرحية التي تمّ فيها إنهاء وجود السلالة الأيوبية بمصر نحو إخفاء التطورات التي وصلت إلى ذروتها بمقتل توران شاه . وكان قد سبق للصالح أيوب في الواقع أن قطع الصلة بمبادئ الحكم الأيوبي كانت تعوزه المزايا الشخصية التي استندت إليها سلطة أسلافه ، والتي حافظت على تضامن البيت الأيوبي ، فحاول أن يسدّ هذا النقص ببناء آلة عسكرية (سيطر عليها بقساوة لا تعرف الرحمة والرأفة) من أجل فرض مشيئته . فهو لم يعامل الأمراء الآخرين من بني أيوب بمثابة أقرباء بل عاملهم كاعداء (ربما شدّ عن ذلك

٢٢ - بشأن هذه التسوية انظر

A History of the Crusades, Vol. II, Chapt. XIV, pp. 503 - 504
وراجع الفصل الثاني والمشرّين من المصدر نفسه حول سلاطين المماليك .

المظفر صاحب حماه) . ولذلك فقد دشن حكماً فردياً لا يختلف عن حكمهم سلاطين المماليك الذين جاؤوا من بعده. ولم يكن لدى الملقدين والعساكر في الفرقة المملوكية الجديدة أي شعور بالولاء نحو البيت الأيوبي والإخلاص له ، بل انحصر ولاؤهم بزعمائهم وقادتهم . فما إن قوبل مركزهم بالتحدي حتى بادروا إلى إثبات وجودهم وتخلصوا من السلطة الملكية من أجل مصالحهم .

على أنه لم يكن متوقعاً للأيوبيين في بلاد الشام أو لمؤيديهم الأكراد أن يتقبلوا انقراض فرعهم المصري بناء على أوامر أملاها المماليك الأتراك فلا تنور نائرتهم . فقد عمد حاكم الكرك إلى تنصيب المغيث عمر ، وهو أحد أبناء العادل الثاني ، سلطاناً في شرقي الأردن ، بينما قامت عساكر الأكراد في دمشق بدعوة الناصر يوسف صاحب حلب لتسلم زمام المدينة ، فأدخلته إليها في ١١ تموز . واقرنت شجر الدر في الثلاثين من تموز إلى القائد التركاني العام أيبك ، ثم تنازلت عن الملك لصالحه . فاعترفت به العساكر سلطاناً على القوز ، وحمل لقب المعز ، لكن الأمراء قرروا ، نظراً لما قد ينجم عن ذلك من ردود فعل في بلاد الشام ، أن يشركوا أميراً أيوبياً معه فأختاروا لهذا الغرض حفيداً من أحفاد الكامل ، وهو الأشرف موسى الثالث وله من العمر حينذاك ست سنوات . ولم تمض فترة وجيزة حتى أسقطوا الأشرف بهدوء واختفى عن المسرح .

وتصدت المماليك البحرية في تشرين الأول للتحرك الأول الذي قامت به قوات الناصر يوسف من دمشق إلى غزة . فعمد الناصر يوسف حينئذ إلى تشكيل ائتلاف يضم جميع الأيوبيين الشاميين ، ثم خرج على مصر من جديد في شهر كانون الأول . ومن المسلم به أن عواطف السكان ومعظم عساكر الجيش كانت تقف إلى جانبه ، لكن المماليك أرغموه على الفرار في الثاني من شباط ١٢٥١ عقب قتال مشوش عند الحدود المصرية . فتم أسر العديد من الأمراء الأيوبيين في أثناء هزيمة الجيش الشامي ، ومن بينهم الصالح إسماعيل الذي أعدم

بأمر من أبيك . والمحارب القديم توران شاه ، ابن صلاح الدين . الذي أطلق سراحه بطريقة مشرّفة إلى جانب غيره من الأيوبيين . ثم تحرّكت القوات المصرية إلى فلسطين ، لكنّها إنسحبت من جديد عندما زحف الناصر يوسف على غزة للمرة الثالثة فاحتلّ داروم . ويبدو ان ذلك قد تمّ قبل نهاية السنة ذاتها . كما يبدو من المصادر الغربية ان هذه الحملة الثالثة لم تكن تستهدف اجتياح مصر ، بل كانت تهدف إلى الحيلولة دون اتصال الجيش المصري مع الملك لويس التاسع ، وكان هذا الأخير قد رفض العرض الذي تقدّم به الناصر في ان يتخلّى له عن القدس مقابل إنشاء تحالف بينهما ، وذلك بعد ان استجاب أبيك لمطلبه في إطلاق سراح جميع الأسرى الصليبيين . وقالما تذكر المصادر العربية نشاطات لويس التاسع في فلسطين خلال هذه السنوات (٢٣) . فقد كانت الجيوش المصرية والشامية تقف في مواجهة بعضها بعضاً طيلة ما يزيد على السنة ، بينما كانت المفاوضات مستمرة . وأخيراً . تنازل الناصر عن القدس لأبيك (٢٤) عند أواخر شهر آذار من سنة ١٢٥٣ ، وعقد الصالح . وفيما علما أعمال المضايقة التي قامت بها القوات الشامية وهي في طريق عودتها إلى دمشق ، فقد ترك لويس وشأنه لكي يتابع أعماله في التحصينات دون ان يعكر صفوها شيء ، وقام قبل عودته إلى فرنسا بالتوقيع على معاهدة صالح مع دمشق مدتها عشر سنوات وستة أشهر وأربعين يوماً .

وأدّى العنف من جانب المماليك البحرية في مصر وعدم تقيدهم بالأوامر والنظام إلى قطيعة علنية مع أبيك في سنة ١٢٥٥ . ففقدت أكثرية المماليك البحرية إلى دمشق بعد أن أعدم أبيك قائدهم ، ورحّب بهم الناصر يوسف

٢٣ - انظر A History of the Crusades Vol. II, Chapt. XIV, pp. 504 - 508

٢٤ - يقول الزبيبي (أعيد إلى هذا سنة ١٢٥٠ هـ) على نحو محدد واضح ان نابلس ونواحيها كانت ستبقى تحت حكم الناصر ، ولكن قارن ذلك بما جاء في :

A History of the Crusades Vol. II, Chapt. XXII, pp. 742 - 743

في دمشق كحلفاء له ضد مصر . وقام جون أوف ايبلين خلال فترة التوتن المتجدد بزج المصريين عند غزة في مناوشات وغارات عبر الحدود ، لكن لما أعاد أيبك الصلح مع الناصر في سنة ١٢٥٦ بالتخلي له عن فلسطين ، تم تجديد معاهدة السنوات العشر مع الفرنجة وتوسيع مداها ونطاقها ، بحيث صارت تشمل مصر أيضاً .

وبقي بيت صلاح الدين الأيوبي صاحب السيادة العليا في بلاد الشام طيلة ما يقارب أربع سنوات أخرى ، وذلك في شخص حفيد الأكبر الناصريوسف ، رغم ان هذا كان قد تورط من حين إلى آخر في نزاع مع المنيث صاحب الكرك حيث كانت أسباب الخلاف تعود في المقام الأول إلى ما أقدم عليه ممالك البحرية في تحويل خدماتهم وفقاً للنزوات من أمير إلى آخر . فلما استدعاه هولاءكو المغولي بعد الاستيلاء على بغداد لتقديم ولائه في سنة ١٢٥٨ ، قام الناصر يوسف بإيقاد ابنه العزيز محمد لينوب مكانه ، ولكن عندما باشر هولاءكو في حملته الغربية سنة ١٢٥٨ ، عمد الناصر إلى ترك الدفاع عن حلب بيد توران شاه واتخذ هو موقعا خارج دمشق يسانده المنصور الثاني صاحب حماه . وبعث في الوقت نفسه برسول إلى السلطان المملوكي الجديد قُطُز لكي يتوسل العون منه . غير ان المنصور انسحب ، عقب نهب المغول لحلب في كانون الثاني سنة ١٢٦٠ ، مع عساكره الشامية والمماليك البحرية لكي ينضم إلى جيش قُطُز . فتم احتلال دمشق يوم أول آذار ، وسقطت بدورها كل من بانياس وعجلون ونابلس وغيرها من القلاع والحصون . أما الناصر الذي فر إلى شرقي الاردن ، فقد قبض عليه مرافقوه الأكراد بالذات وقاموا بتسليمه إلى القائد المغولي كيتبوغا (٢٥) . وزحف قُطُز على بلاد الشام في شهر آب يرافقه المنصور ، الذي أبلى بلاء حسناً في معركة عين جالوت الحاسمة (٣ أيلول) وأعيد إلى تولي

٢٥ - قام هولاءكو باعدائه حين وصلت أخبار هزيمة الجيش المغولي في معركة عين جالوت .

إمارته في حماه . وكذلك أعيد الأشرف موسى الثاني صاحب حمص إلى ولاية إمارته ، مع انه كان قد انضم إلى هولاكو في بداية الأمر ، أما حلب فقد جرى وضعها تحت حكم غير أيوبي .

وتسم إرسال جيش مغولي ثان من العراق إلى بلاد الشام بعد مضي سنة واحدة ، فاستولى هذا الجيش على حلب من جديد (في شهر تشرين الثاني سنة ١٢٦١) . وانكفأ المنصور إلى حمص حيث تضافرت قواته هناك مع قوات الأشرف . فأنزل الأميران الأيوبيان هزيمة بالقوات المغولية في معركة وقعت خارج حمص (١٠ كانون الأول) وقامت عساكرهما بطرد المغول وإرجاعهم . ويصل تاريخ الأيوبيين النشط في بلاد الشام إلى نهايته بهذه المأثرة غير المغمورة . فقد أقدم السلطان المملوكي بيبرس في سنة ١٢٦٣ على قتل المغيث غدراً ثم استولى على الكرك ، وأخذ إمارة حمص في السنة التالية لدى وفاة الأشرف موسى . فلم يُسمح إلا للمنصور وحده ، باعتبار إخلاصه والخدمة التي أسداها ، ان يحتفظ بإمارته في حماه ، حيث بقي بيت تقي الدين مستمراً حتى سنة ١٣٤١ ولم ينقطع استمراره سوى لفترة وجيزة خلال تلك المدة .

صلاح الدين الأيوبي

ببليوغرافيا

١ - الكتب

- ابن شداد، محمد بن علي. الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة. حقق سامي الدمان الجزء الخاص بدمشق. مطبوعات المعهد الفرنسي بدمشق، ١٩٥٦.
- ابن شداد، أبو الحسن يوسف بن رافع. في سيرة صلاح الدين الأيوبي، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. صححه وحققه وشرح غريبه محمد محمود صبح. القاهرة، دار الكتاب العربي، لا.ت. ٤٢٣ ص. (من التراث القديم).
- ابن شداد، أبو الحسن يوسف بن رافع. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. القاهرة. مطبعة الآداب، ١٨٩٩. ومطبعة محمد علي سبيح، ١٩٢٧.
- ابن منقذ، أسامة أبو النضر مجد الدين. كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، ١٩٣٠ م ١٣٤٩ هـ. ونقله إلى الانكليزية بعنوان:
An Arab-Syrian gentleman and Warrior in the period of the Crusades. Memoirs of Usamah ibn Munqidh (Kitab al-Iibar).
- مطبعة جامعة كولومبيا، نيويورك، ١٩٢٩ م ١٣٤٨ هـ.
- ابن واصل، محمد بن سالم. مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. تحقيق جمال الدين الشيال، منشورات الإدارة العامة للثقافة بوزارة المعارف، مطبعة جامعة القاهرة، الجزء الأول، ١٩٥٣ م ١٣٧٢ هـ الجزء الثاني ١٩٥٧ م، ١٣٧٦ هـ.
- أبو حديد، محمد فريد. صلاح الدين الأيوبي وعصره. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩١٤ م ١٩٢٧.
- ٢٠٣ ص. خرائط. صور.
- أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل. كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، القاهرة: مطبعة وادي النيل، ١٨٧٠.
- أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل. كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية. تأليف شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي المعروف بابي شامة. نشر وتحقيق محمد حلمي محمد أحمد. القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٦.
- أرملة، إسحق. الحروب الصليبية في الآثار السريانية. بيروت: المطبعة السريانية، ١٩٢٩.
- بدوي، أحمد أحمد. الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام. القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٣.
- بدوي، أحمد أحمد. الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام. القاهرة: مكتبة مصر، ١٩٥٢.
- البنا، عبد الرحمن. صلاح الدين الأيوبي - منقذ فلسطين. القاهرة: مطبعة دار الكتاب العربي ١٩٥٢، ١٢٨ ص.
- بجلي، أحمد. صلاح الدين يوسف بن أيوب. القاهرة: ١٩٢٠.
- ٢٠٩ ص. صور، خرائط. المراجع: ص ٢٠١ - ٢٠٢.
- ط ٢. القاهرة: المطبعة الرحمانية، ١٩٦٦، ٢٣٤ ص.
- بيومي، علي. قيام الدولة الأيوبية في مصر. القاهرة: دار الفكر الحديث، ١٩٥٢.
- التميمي، رفيع. الحروب الصليبية. باقا: ١٩٤٧.
- جمعة، خالد حسن. الوحدة العسكرية سبيل التحرير: دراسة الأبعاد الحقيقية لقيادة صلاح الدين الأيوبي. بغداد: مطبعة الحوادث، ١٩٧٩، ٥٥ ص.
- جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت: المعهد العالي للدراسات الإسلامية. مؤتمر صلاح الدين الأيوبي

- بمقاس نسبة مرور لثمانماية عام على وفاته، ٢٢-٢٦ آذار ١٩٩٤ . دراسات اسلامية ٢٠٨-٥ ص.
- حبشي، حسن. الحروب الصليبية. مذيبة بالترجمة العربية الكاملة للحوليات الفرنجية Gesta Francorum. القاهرة: مطبعة الاعتماد، ١٩٤٧.
- الطبعة الثانية: القاهرة: مطبعة الاعتماد، ١٩٥٨.
- حبشي، حسن. الشرق العربي بين شقي الرحي: حملة القديس لويس على مصر والشام. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٩.
- الحريزي، سيد علي. كتاب الأخبار السنية في الحروب الصليبية. القاهرة: المطبعة العمومية، ١٣١٧ هـ ١٨٩٩ م.
- الطبعة الثانية: القاهرة: ١٣٢٩ هـ ١٩١١ م.
- حسين، فوزي بخيت. صلاح الدين وتوحيد الجبهة الإسلامية زمن الصليبيين. رسالة ماجستير، جامعة القاهرة. كلية الآداب (١٩٥١)، ١٩٤٥، ٢٦٠ ص.
- حسين، محمد أحمد. أسامة بن منقذ: صفحة في تاريخ الحروب الصليبية. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٦.
- حسين، محسن محمد. الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين: تركيبه، تنظيمه، أسلحته، بحريته، وبرز المعارك التي خاضها، ط ١. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦، ٥٣٦ ص.
- حلواني، أحمد عبد الكريم. ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين في عهد الدولتين النورية والأيوبية. دمشق: دار الفداء، ١٩٩١، ١٦٧ ص. بيليوغرافيا: ص ١٥٧ - ١٦٤.
- حمزة، عبد اللطيف. أدب الحروب الصليبية. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٩.
- حمزة، عبد اللطيف. للحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي. القاهرة: دار الفكر، ١٩٤٧.
- حمزة، عبد اللطيف. صلاح الدين بطل حطين. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٢٧، ٢٦٤ ص. ثم سنة ١٩٥٨، ثم سنة ١٩٧٢.
- حوى، سعيد. بطلا الحروب الصليبية في المشرق والمغرب يوسف بن تاشفين وصلاح الدين الأيوبي، حماة دار الاندلس، ١٩٧٢، ٧٨٠ ص.
- درويش، إبراهيم محمد. قيام الدولة الأيوبية في مصر. القاهرة: دار الفكر الحديث، ١٩٥٢.
- الدهان، سامي. الناصر صلاح الدين الأيوبي. القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠، ١٥١ ص. (سلسلة اقرأ، ٢٠٧).
- الرويحي، أحمد عبد الجواد. صلاح الدين الأيوبي. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٥٦، ١٩٢ ص.
- ربيع، أحمد. حياة صلاح الدين الأيوبي. القاهرة: لا.ت.
- زكار، سهيل. حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس. ط ١. دمشق: دار حسان، ١٩٨٤، ٢٩٥ ص. خرائط.
- سعداري، نظير حسان. التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي. القاهرة: مكتبة النهضة، ١٩٥٧، ٣٢٢ ص.
- سعداري، نظير حسان. ثلاثة من مؤرخي الحروب الصليبية. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧.
- سعداري، نظير حسان. جيش مصر في أيام صلاح الدين. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦.
- سعداري، نظير حسان. خمسة من معاصري صلاح الدين الأيوبي. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧.
- شوفيل، جنيفاف. صلاح الدين بطل الإسلام. ج. شوفيل، ترجمة جورج أبي صالح. بيروت: دار الأمير، ١٩٩٢، ٤٤٢.
- ترجمة: Saldain: rassembleur de l'Islam.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح. الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة، ١٩٦٥، ٢٩٩ ص.
- ص. (إعلام العرب، ٤١). مراجع: ص ٢٩٧ - ٢٩٨.
- عاصي، حسين. المؤرخ أبو شامة وكتابه الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية. ط ١. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩١، ٢٨٧ ص. (إعلام مؤرخي العرب والإسلام) بيليوغرافيا: ٢٧٧ - ٢٨٥.
- عماد الدين الكاتب. محمد بن محمد، الفتح القسي في الفتح القدسي. القاهرة: مطبعة الموسوعات، ١٩٠٣. والقاهرة: المطبعة الخيرية، ١٩٠٤.

- ١٠ - الغامدي، عبد الله سعيد محمد. صلاح الدين والصليبيون: «استرداد بيت المقدس»: دراسة جديدة تتناول جيش صلاح الدين وتنظيماته الحربية ودرره في جهاد الصليبيين. مكة المكرمة: المكتبة الفيصلية، بيروت: توزيع دار الندوة الجديدة، ١٩٨٥. ٢٢٤ ص: خرائط. بيليرغرافيا: ص ٢١٩ - ٢٢١.
- ١١ - قاسم، أنيس. تاملات في الاحتلال، الصليبي والصهيوني. تأليف أنيس قاسم. ليبيا: الدار العربية للكتاب، ١٩٧٥. ٢٨٨ ص. ٢١ سم. بحري مراجع.
- ١٢ - قلعي، قدي. صلاح الدين الأيوبي. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٤٧، ١١٢ ص. (أعلام الحرة، ٧).
- ١٣ - كاشف، سيدة اسماعيل. صلاح الدين الأيوبي: بطل وحدة الصف العربي الإسلامي وبطل الجهاد في سبيل الله. ط ١. بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٧، ٩٥ ص.
- ١٤ - كمال، نافع، أوراق بريشان. (استانبول: ١٢٨٨: ١٨٨٧ م. ٢٦٨، ١٠١ ص).
- ١٥ - كيلاني، محمد سيد. الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام. القاهرة: مكتبة مصر، ١٩٤٧.
- ١٦ - ليونز، ملكوم كامرون. صلاح الدين، ملكوم كامرون ليونزود، أ.ب. جاكسون، نقله إلى العربية علي ماضي، راجعه وحققه نقولا زيادة، فهمي سعد، بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٨، ٤٨٩، (٩) ص: مصورات.
- ١٧ - ماجد، عبد المنعم. صلاح الدين الأيوبي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧، ١٥٢ ص. (تاريخ المصريين، ٧).
- ١٨ - ماجد، عبد المنعم. الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٨، ٢١٧ ص. مراجع: ص. ١٩٢ - ٢٠٩.
- ١٩ - النشاشيبي، محمد اسعاف. البطل الخالد صلاح الدين الأيوبي والشاعر الخالد أحمد شوقي. القدس: مطبعة بيت المقدس، ١٩٢٢، ١١٠ ص. صورة في الصدر.
- ٢٠ - نصوص تاريخية «عصر الأيوبيين والمماليك». جمعها سعيد عبد الفتاح عاشور. بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٢.
- ٢١ - النقاش، زكي. العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية. بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٠٨.
- ٢٢ - نوري، دريد عبد القادر. سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة ٥٧٠ - ٥٨٩ هـ. ١١٧٤ - ١١٩٣ م. دريد عبد القادر نوري. - بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٧٦، ٥٠٤ ص. أطروحة (ماجستير) - جامعة بغداد. وتلخيص بالانكليزية. المراجع: ص. ٤٧٠ - ٤٩٥.
- ٢٣ - نيوي، ب. ف. صلاح الدين وعصره. ترجمة معنوح عنوان. تقديم سامي الجندي. ١٩٩٣، ٢٥٧ ص.
- ٢٤ - الركيل، مصطفى. صلاح الدين الأيوبي. القاهرة: مكتبة المعاهد العلمية، ١٩٢٨، ١٦٠ ص. (كتاب الشهر).
- ٢٥ - ابن الأثير، أبو الحسن محمد. الكامل في التاريخ. بيروت: دار صادر، ج ١٠ ص ٥٩٢.
- ٢٦ - ج ١١ ص ١٥، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٦٥، ٢٧٢، ٢٨٦، ٢٩٢، ٢٩٦، ٢٩٨، ٣٠٢، ٤٠٥، ٤٠٨، ٤١٣، ٤٢٢، ٤٢٧، ٤٢٩، ٤٣٤، ٤٤٠، ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٥٣، ٤٦١، ٤٦٣، ٥١٨، ٥٢٣ - ٥٥٩.
- ٢٧ - ج ١٢ ص ٥، ٥٦، ٦٠، ٨٩، ٩٥، ٩٧، ١٠٠، ١٠٢، ١٢٧، ١٢٩، ١٥٥، ١٥٩، ١٧١، ٢٥٥، ٢٢٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٤٨٠، ٤٩٢.
- ٢٨ - ج ١٣ ص ١٧٩.
- ٢٩ - ابن خلكان. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار الثقافة/ ١٩، ج ٨ ص ١٢٧.
- ٣٠ - صلاح الدين الأيوبي الملك الناصر أبو المظفر (يوسف بن أيوب بن شاذي).
- ٣١ - ج ١ ص ١٨١، ١٨٢، ١٨٩، ١٩٦، ٢١١، ٢٥٥ - ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٧٢، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٧، ٣٠٦، ٣٠٩.
- ٣٢ - ج ٢ ص ١١٢، ٢٥٨، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٤٠، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٧، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٧٩، ٥٢٣.
- ٣٣ - ج ٣ ص ٥٤، ٥٨، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٩، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٢، ٢٢٧، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٦، ٤٥٧، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٩٧.
- ٣٤ - ج ٤ ص ٥، ٢٥، ٩١، ٩٢، ٤٤٤، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٥، ٣٩٠، ٤٧٢.

- ج ٥ من ٧، ١٠، ١٢، ١٤، ١٥، ١٦، ٤٤، ٧٤، ٧٥، ٧٩، ٨٨، ١٤١، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٦، ٢٠٢ - ٢٠٧، ٢١٤، ٢٩٠؛
- ج ٦ من ٦٥، ٢٧٢؛
- ج ٧ من ١٢، ٨٧، ٨٨، ٨٩ (١٣٩ - ٢١٨)، ٢١٩، ٣٤٢.
- الفلقسندي. كتاب صبيح الأعشى في صناعة الإنشاء.
- فهارس كتاب صبيح الأعشى في صناعة الإنشاء. تصنيف وإعداد محمد قنديل البلقى. القاهرة: عالم الكتب، ١٩٧٠، ص ١٤٨ وص ٢١٢.
- صلاح الدين يوسف بن أيوب (السلطان صلاح الدين الأيوبي).
- ج ١ ص ٤١، ٩٦، ٩٧، ١٢٢.
- يوسف بن أيوب. ج ١٣، ص ٤٣.
- بنو أيوب: ج ١ ص ٢٨، ٣٦٩، ٤١٧، ٤٤٤.
- ج ٢ ص ١٩٨؛
- ج ٣ ص ٢٧٠، ٢٧٢، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠؛
- ج ٤ ص ٧٠، ٩١، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١٤٠، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٦، ٢٣٧، ٣١٧، ٣١٨.
- ج ٥ ص ١١، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٢٨٧؛
- ج ٦ ص ٤١؛
- ج ٧ ص ١٢٠، ١٧٧، ٢٧٠، ٣٤٠، ٣٤٢؛
- ج ٩ ص ٤٠٣؛
- ج ١٠ ص ١٨٢، ١٨٣، ١٩٠؛
- ج ١١ ص ٣٢؛
- ج ١٢ ص ٣٢٣؛
- ج ١٣ ص ١٤٤؛
- ج ١٤ ص ٣٧٠.
- ياقوت الرومي الحموي. معجم البلدان. تحقيق فرديناند وستنفيلد. ليبزيك، ١٨٧٠.
- ج ٦ ص ٤٨٠ - صلاح الدين يوسف بن أيوب.
- ج ١ ص ٥٦٥، ٥٨٩، ٦٩٤، ٧٧٥، ٧٧٦، ٧٨٢، ٧٨٥، ٧٨٧، ٨٦٧، ٨٦٩.
- ج ٢ ص ٢٦، ٢٨، ٣٣، ١٠٥، ٢٩١، ٥٢٥، ٥٩٧، ٨١٩، ٩١٢، ٩١٨.
- ج ٣ ص ٢٢٦، ٣٠٥، ٤٣٨، ٤٤١، ٥٣٤، ٦١٦، ٦٧٤، ٧٠٨، ٧٦٠، ٩٠١.
- ج ٤ ص ١٦٢، ٥٩٩، ١٠٠٣.

٢ - المقالات

- التميمي، رفيق. «الحروب الصليبية: ماهيتها، تطوراتها، نتائجها». الرسالة م ٩، ع ٤٢٢، ١٨ أغسطس ١٩٤١، ص ١٠٣٥ - ١٠٣٨؛ ع ٤٢٥، ٢٥ أغسطس ١٩٤١ ص ١٠٦٦ - ١٠٦٩.
- جرار، فاروق أنيس. «أسطول صلاح الدين الأيوبي». الأبحاث ج ١٣ (١٩٦٠) ص ٧٠ - ٩٥.
- الجميلي، رشيد عبد الله. «صلاح الدين و ٨٠٠ عام على حطين». أبحاث العربي. ٧/١٢ - ١٩٨٧/٩.
- ص ٨٤ - ٩٠ بيليوغرافية.
- جواد، مصطفى. «نظرات في ذيل الروضتين لأبي شامة المقدسي». مجلة المجمع العلمي العربي. م ٢٣ ج ٤، ١٩٤٨، ص ٦١٨ - ٦٣١؛ وم ٢٤ ج ٩، ١٩٤٩، ص ١٥٢ - ١٥٨.
- حاتم، أنور. «شهود العيان على فتح الصليبيين أنطاكية». المشرق. ج ٢ نيسان - حزيران ١٩٣٤، ص ١٧٩ - ٢٠١.
- حتي، فيليب. «تحفة الشرق لمدينة الغرب في القرون الوسطى في الكتاب الذهبي لعيد المقتطف الخمسيني». مطبعة

- للمقتطف والمقطم، القاهرة، ١٩٢٦. ص ١٤٠ - ١٥١.
- «درس في حياة أسامة بن منقذ وكتاب الاعتبار». مجلة المجتمع العلمي العربي، م ١٠، ١٩٣٠، ص ٥١٣ - ٥٢٥، ٥٩٢ - ٦٠٣.
- الحديث (تحرير). «صلاح الدين الأيوبي». الحديث. السنة ٢ العدد ١ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٨ ص ١٢٣ - ١٢٤.
- حسين، محمد أحمد. «صلاح الدين والصليبيون» المجلد: سجل الثقافة الرفيعة، السنة ٢، العدد ١٥ آذار (مارس) ١٩٥٨ ص ١٢ - ١٧، والعدد ١٦ نيسان (أبريل) ١٩٥٨ ص ١١ - ١٤. والعدد ١٧ أيار (مايو) ١٩٥٨ ص ١١ - ١٤.
- حسين، محمد كامل. «التشيع في مصر في عصر الأيوبيين والمماليك». مجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة) م ١٥ ج ١، مايو ١٩٥٣، ص ٥٧ - ٥٨.
- رباط، الأب أنطون. «العلاقات بين الشرق والغرب». المشرق م ١٤، ١٩١١ ع ٧ (تموز) ص ٥٤٨ - ٥٥٢.
- رضا، محمد رشيد. «ذكرى صلاح الدين ومعركة حطين». المزار ج ٣٢ (١٩٣٢) ص ٥٩٢ - ٦٠٦.
- زكار، سهيل. «وقائع معركة حطين». تاريخ العرب والعالم. ٩: ١٠٥ - ١٠٦ (٧ و ٨/ ١٩٨٧) ص ٧٠ - ٨١ رسوم.
- زيادة، نقولا. «سوريا في زمن الصليبيين». المقتطف م ٨٧، يونيو ١٩٢٥، ص ١٦ - ٢٣ يوليو ١٩٢٥، ص ١٩٢ - ٢٠٣.
- زريق، قسطنطين. «جندي في جيش صلاح الدين». المكشوف (بيروت) م ٣، ٢٤، آذار، ١٩٢٧، ع ٨٨، ص ٢، ١٤ - ١٦.
- زريق، قسطنطين. «ما ساهم به المؤرخون العرب في المئة سنة الأخيرة في دراسة التاريخ العربي عن فترة الحروب الصليبية». الأبحاث ج ١٢ (١٩٥٩) ص ٢٣٢ - ٢٥٩: وص ٢٨٢ - ٢٩٢.
- الشنتوي، أحمد. «مواقف ابن جبير السياسية من خلال رحلته». حوليات الجامعة التونسية ٢٩ (١٩٨٧) ص ١٩١ - ٢٢٣ بيلوغرافية (مراجعة كتاب).
- الشيال، جمال الدين. «الجاسوسية في حروب الأيوبيين». المقتطف ج ٩٩ (١٩٤١) ص ٤٦٦.
- الطليان، سعيد. «موقعة حطين: دراسة عسكرية». تاريخ العرب والعالم. ٩: ١٠٥ - ١٠٦ (٧ و ٨/ ١٩٨٧) ص ٨٨ - ٩٦ بيلوغرافية. رسوم.
- عنان، محمد عبد الله. «الشرق والغرب: فكرة الحروب الصليبية». الهلال م ٣٤، ١٩٢٦، ٧٠٩ - ٧١٤.
- «فلسطين في التاريخ». العرفان م ١٨، ١٩٢٩، ص ٤٠١ - ٤٠٥.
- «أوكراس العقبان في أوكراس الجبال: قتال الصليبيين والمسلمين في سوريا ولبنان». الهلال م ٤٢، ١٩٢٤، ص ٥٤٩ - ٥٥٧.
- «مؤامرة على صلاح الدين». الهلال م ٤٦، ١٩٢٨، ص ٢٩٧ - ٣٠٢.
- عيسى، علي محمد. (ترجمة). «الحروب الصليبية». لارنس باركر في - تراث الإسلام. الجزء الأول، القاهرة ١٩٣٧، ص ٨١ - ١٤٧.
- الفيشاوي، خالد. ٨٠٠ عام على حطين، صلاح الدين والعمل العربي الموحد، القاهرة ٢٠ و ٢١ حزيران يونيو ١٩٨٧. الفكر الاستراتيجي العربي، ٥: ٢١ و ٢٢ (٧ و ١٠) ١٩٨٧ ص ٢٩٥ - ٣٠٤.
- محمود، علي السيد علي. «ملاحم الجانب العربي الإسلامي في المواجهة ضد الغزو الصليبي». المستقبل العربي ١٠: ١٠٢ - ١٠٣ (٨/ ١٩٨٧) ص ٤٠ - ٦٣ بيلوغرافية.
- المقتطف (تحرير). «احضار صلاح الدين الثلج إلى الأردن من جبال لبنان». المقتطف ج ١١ (١٨٨٧) ص ٣١٤.
- المقدسي، أنيس خوري. «الدولة الأيوبية في رسائل ابن الأثير». الأبحاث ج ١٨ (١٩٦٥) ص ٣٠٥ - ٣٣٨.
- «ندوة مرور ٨٠٠ عام على حطين صلاح الدين». الدراسات الاعلامية للسكان والتنمية والتعمير: ٤٨ (٩/ ١٩٨٧) ص ١٥٧ - ١٥٨.

هذا الكتاب

يضم هذا الكتاب مجموعة من الدراسات والمقالات العلمية التي وضعها المستشرق السير هاملتون أ. جب في مناسبات متفرقة، على أن القاسم المشترك بينها هو انتظامها كلها في سلك واحد من حيث تناولها لصلاح الدين الأيوبي كظاهرة فذة في سجري التاريخ العربي والإسلامي. فهي تتوقف عند الظروف المحيطة بظهور صلاح الدين واشتداد الهجمة الصليبية، وتدرس المصادر التاريخية العربية عن حياة صلاح الدين وصعود نجمه، ثم تنتقل إلى البحث في طبيعة وتركيب الجيوش التي تجسدت تحت لوائه وأحرزت انتصاراتها الرائعة في حطين فزحفت لاسترجاع بيت المقدس. ويفرد المؤلف دراسة مفصلة لكل من مآثر صلاح الدين ومآثبه، بالإضافة إلى الأيوبيين ومسير أفراد البيت الأيوبي عقب غياب صلاح الدين عن المسرح.

ومما لا ريب فيه أن الموضوع التاريخي الذي تتناوله مقالات الكتاب يلقي المزيد من الضوء على صفحة العصر الحاضر من مختلف الزوايا. فبالاستشرق واطلاع الكتاب ليس بحاجة إلى التعريف، والقارئ العربي سوف يخرج بفهم أفضل للحاضر من خلال متابعتة لأحداث الماضي وإطلاعه على الظروف التي رافقت بروز صلاح الدين على مسرح التاريخ العربي والإسلامي.

To: www.al-mostafa.com